٢٤ صفحات من تاريخ مصر

المماليك في مصر

أنور زقلمة



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

مكتبة لسان العرب

هذه السلسلة تضم :

١ - فتح العرب لمصر
٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ - فتوح مصر وأخبارها
١١ - تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ - قوانين الدواوين
١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ - الحكم المصري في الشام
١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ - مذكراتي
١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ - وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ - السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشاته المعمارية
٢٣ - صفوة العصر
٢٤ - المماليك في مصر
٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ - سلاطين بني عثمان

مكتبة مدبولي
MADBOULI BOOKSHOP
6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

المماليك
في مصر

صفحات من تاريخ مصر

(٢٤)

المماليك في مصر

تأليف

أنور زقلمة

مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

الناشــر
مكتبة مدبولى
ميدان طلعت حرب بالقاهرة ـ ج م ع
تليفون ٥٧٥٦٤٢١

مقدمة المؤلف

لست أدري السبب الذي غرمت من أجله بتاريخ مصر في عهد المماليك ، فقد قامت في رأسي منذ مدة طويلة فكرة كتابة تاريخ شامل كامل لعصر المماليك فبدأت بجمع المصادر والكتب والمذكرات التي أستعين بها في تحرير هذا الموضوع . ولما بدأت أكتب وجدت أن الموضوع تشعب بي وكبر حجم الكتاب وأصبح من المتعسر إصداره في أقل من عدة مجلدات ، فاخترت أحد أبواب كتابي القديم وهو علاقة المماليك بغيرها من الدول الأجنبية ، وصدرته بمقدمة عن المماليك ومنشأهم وأقسامهم ، وبذا لم يصبح هذا الكتاب فصلاً تاريخياً كاملاً عن عهد المماليك كما أردت له أولاً ، بل صار سفراً مجملاً لتأثير حكم المماليك في مصر والعالم أجمع وخصوصاً في الشرق .

وسيجد القارىء بين طيَّات هذا الكتاب تاريخاً مفصلاً لمصر وسوريا تحت حكم المماليك ، وبياناً لاتساع الامبراطورية المصرية تحت حكمهم من المحيط الهندي جنوباً إلى الأناضول شمالاً وبلاد المغرب غرباً والصين شرقاً ، ومما يزيد في قيمة كتابي هذا ، الفصول الممتعة التي كتبتها في تاريخ علاقة المماليك بالمغول والحروب الصليبية وبلاد النوبة والسودان وأرمنيا ورودس وقبرص والبرتغال والبندقية والبلاد العربية والهند والقبائل التركمانية والأتراك العثمانيون وغيرهم . وكذلك فيه بحث فريد عن علاقات

المماليك بالبابوية وملوك الدول الأوربية في تلك العصور .

ولا ريب عندي إن عصر المماليك أمتع جزء في تاريخ مصر السياسي والأدبي والاقتصادي على الإطلاق لما اتصف به ذلك العصر من الغرائب : ولما حواه من متناقضات ، ومع كثرة مصادر هذا العصر التاريخية : فإنه يُعتبر اليوم من أغمض أجزاء تاريخ مصر على الإطلاق ، فإنه بينما نجد الحوادث مفصَّلة بإسهاب كبير ومتعددة المصادر في فترة ما إذا بنا ننتقل بعدها تواً إلى عصر خالٍ تماماً من المصادر والتفصيلات ولذا لا تزال أجزاء طويلة من تاريخ مصر في هذا العصر غامضة ومكتوبة بطريقة خيالية لا يقبلها المؤرخ أبداً وقد حاولت قدر استطاعتي وقدر المصادر التي أستقي منها أن أربط تاريخ هذه العصور ربطاً محكماً وأن أحقق كثيراً من الحوادث التي كنت أشك في صحتها . ولعلي أفلحت في كثير منها . وقد بدأت كتابي بمقدمة صغيرة عن تاريخ مصر من الفتح العربي إلى نهاية دولة الأيوبيين التي ورثها عنهم المماليك لاعتقادي أن مصر من يوم أن فتحها عمرو بن العاص حتى حملة بونابرت هي وحده لا تتجزأ .

وإنني أرجو بهذا العمل أن أكون قد قمت بما يجب عليَّ نحو العلم وبلادي . وأرجو القرَّاء الكرام أن ينظروا إلى هذا الكتاب نظرة صفح عمَّا أكون قد وقعت فيه من غلطات أو هفوات ولا يسعني أخيراً إلا أن أسدي شكري على هذه الصفحات إلى جميع من ساعدوني في جمع أو تحرير هذه الصفحات .

أنور زقلمة

مكتبة الكتاب ـ مصادر البحث

رأيت قبل أن أبدأ في تحرير هذا الكتاب أن أعرض أمام القارىء جميع الكتب والنشرات والمذكرات التي استعنت بها في تحرير كتابي هذا ، فهذه المصادر كما يقول اللورد روزنبري هي كالأساس الذي يُبنى عليه المنزل ، واني لا أبغي من وراء هذا العرض إلا أن أعطي للقارىء مُحب التوسع في البحث مصادر تعينه على بحثه ، فهذا الفصل في مكتبة الكتاب يحتوي على جميع المصادر المهمة التي أخذت منها كتابي وقد أشرت في الهوامش إلى الجهات التي نقلت منها معلوماتي عندما كنت أنقل حرفياً ، أو حينما كنت أختصر أو أعرب أو أستمد الفكرة وأصوغها بلغتي فقد ألمعت لذلك إلماعاً في نهاية الفصل ، وهناك مصادر أخرى غير التي سأذكرها أغفلت بيانها لعدم أهميتها ولاحتوائها على غلطات مادية كثيرة . وكنت أحب أن أتوسع في بيان أهمية هذه المصادر ومركزها الأدبي كما عمل اللورد روزنبري لما خصص الفصول الأولى من كتابه عن نابليون في سنت هيلانه للبحث في مصادر كتابه ولكنني وجدت أن البحث سيتشعب وسيطول بيان هذه المصادر طولاً قد يكون مملاً فاكتفيت بما سأذكره وأظن فيه الكفاية إذا أضفناه إلى الهوامش التي ذكرت فيها كثيراً من هذه المصادر وأهميتها الأدبية والعلمية .

* * *

لا يعتمد الإنسان في كتابة التاريخ إلا على اثنين : شاهد عيان ، أو مؤرخ موثوق به . وكلا الإثنين له أهمية عُظمى في تدوين التاريخ . فكتابة

الأول تُعتبر مذكرات كُتبت عن عصرٍ معيَّن وأكثر هذه المذكرات تُكتب لأغراض خاصة تقلّل من قيمتها التاريخية ومهمة المؤرخ في هذه الحالة هو إظهار أغلاط هذه المذكرات وتنقيتها من الشوائب التي لحقتها لأنه يبحث تحت نور الحقيقة بعد أن تجرد من ملابسات العصر . ولذلك اعتمدت في كتابة هذه الصفحات على كلا الفريقين فأما المعاصرون لهذه الحوادث فكثيرون ولدينا كثير من مؤلفاتهم بالعربية وباللغات الأجنبية . وأهم هؤلاء الكُتَّاب على الإطلاق هو المقريزي . ولحسن الحظ وجدت طائفة من الكُتَّاب والمؤرخين في هذا العصر متتابعة ، كأنها السلسلة كل حلقة من حلقاتها تكمل الأخرى ، فقد بدأ هذا العصر بأبي الفداء فأرَّخ وقته ومات وتبعه المقريزي فكمَّل تاريخه وهكذا حتى نهاية عصر المماليك .

فأبو الفداء إذن هو أول هؤلاء الكُتَّاب وُلد عام ١٢٧٣ ومات عام ١٣٣١ م وشغل وظيفة نائب حماه واشترك بنفسه في عدة حروب ووقائع نخص بالذكر منها واقعة «مرج الصفر» ، بين الناصر وغازان ، وحصار ملطية ، ولذا كتب في هذه الحروب كتابة موثوق بصحتها . ولذلك اعتمدنا في إيرادها على وصفه لها ، ثم جاء بعد أبي الفداء النويري الذي وُلد عام ١٢٨٠ م وتوفي عام ١٣٣٢ والنويري هذا مثله مثل أبي الفداء اشترك في حروب المماليك اشتراكاً فعلياً وأورد كثيراً من وصف وقائعهم وتمتاز كتابته باحتوائها على المستندات والرسائل التي تدل على روح ذلك العصر .

وفي عام ١٣٥٨ م وُلد أعظم هؤلاء المؤرخين المعاصرين المقريزي (بعض المؤرخين يختلفون في سنة ميلاده فيجعلونها ١٣٦٤ م) وليست أهمية هذا المؤرخ مقصورة على عصرنا هذا فإنه في نفس عصره وفي الوقت التي كتب فيه كتابه أوفد تيمور رسولاً خاصاً جاء إلى مصر ليحصل على نسخة من تاريخ المقريزي وفعلاً نال ذلك الرسول بغيته في يناير سنة ١٤٣٦ وفي حياة المقريزي . وقد شغل المقريزي (ودُعي بهذا الإسم نسبة إلى الجهة التي نشأت فيها أسرته في بعلبك) وظيفة رئيس شرطة القاهرة وشغل أيضاً وظيفة

ناظر الوقف في دمشق واشتغل حيناً قاضياً فيها . ولم يكُ مطلقاً من رجال البلاط السلطاني . ومن أجل هذا لا يتملق في كتابته . ولم يغضب أبداً إلا مرة واحدة في عصر برسباي وذلك لأن هذا السلطان أساء إليه ولذلك نجده كثيراً ما قسا في حكمه عليه . ورغم ذلك فهو كاتب خصب مُجيد . تمتاز كتابته بما عليها من مسحة الصدق والحيدة ليس في عصره فقط الذي شهده بنفسه بل في العصر الذي سبقه . ومات المقريزي عام ١٤٤١ فخلفه في إتمام ذكر حوادث العصر أبو المحاسن الذي يمكننا أن نعتمد عليه لعشرين عاماً بعد وفاة المقريزي ، وُلد أبو المحاسن عام ١٤٠٩ وهو ابن الأمير تغري بردي الذي كان مملوكاً يونانياً للسلطان برقوق ، وكان لوالده نصيب وافر في الحوادث التي حدثت في عصر السلطان فرج وكاد هذا المملوك أن يُشنق يوماً لولا شفاعة زوجة السلطان فيه والتي كانت يونانية أيضاً مثله ، وقد تربَّى هذا المؤرخ في البلاط السلطاني وكان محبوباً من جميع السلاطين . ومما كتبه هو عن نفسه أنه عندما كان طفلاً توجه إلى السلطان «شيخ» وطلب منه طعاماً لأنه كان جائعاً فأمر شيخ أحد الخدم بأن يعطيه خبزاً فأجابه الطفل : «إن هذا طعام الشحاذين ، أعطني لحماً ودجاجاً أو فاكهةً أو حلوى ، فسُرَّ السلطان من إجابته وأعطاه ثلثمائة دينار ووظف له راتباً شهرياً . وبهذه الكيفية عاش أبو المحاسن في كنف البلاط ولذلك جميع أحكامه عن أعمال السلاطين غير موثوق بها . فبينما المقريزي يطعن في برسباي نجد أبا المحاسن يُحسن أعماله لأنه كان من رجال بلاطه . ولهذه الأسباب فإنَّا نكاد أن لا نقبل أحكام أبي المحاسن ولكن يشفع له كونه عالماً مدققاً وأنه كمَّل سلك الحوادث الذي انقطع تدوينها بموت المقريزي . وفي حكم قايتباي مات أبو المحاسن عام ١٤٧٠ م وبموته فقدنا مصادر المعلومات . وقلَّت لدينا التفاصيل ، إلى أن بدأ ابن اياس يكمل هذه السلسلة . وقد عاش هذا المؤرخ حتى الفتح العثماني وشهده بنفسه فكتابته عن هذا العصر هو المورد الوحيد للجزء الأخير من تاريخ الطبقة الثانية من المماليك ، ولمَّا كان ابن اياس قد عاش بعد زوال نفوذ المماليك فلكتابته قيمة المؤرخ كما أنه لها

حجة الشاهد وتمتاز كتابة ابن اياس بإيضاحها الشديد وإيجازها المُخل ، وانتهى تاريخ ابن اياس عند عام ١٥٢٢ م إذ مات بعد ذلك بعامين سنة ١٥٢٤ م .

ثم أشير إلى كتابين جليلين وهما تاريخ سلاطين المماليك تأليف ذترستين طبع ليدن بهولندا وتاريخ سلاطين المماليك تأليف ابن أبي الفضائل ومترجم إلى الفرنسية بقلم مسيو (بلوسية) ومطبوع بها في باريس ولا يوجد منه إلا الجزء الثاني في مكتبة الجامعة المصرية تحت رقم ٣٨٢٧ تاريخ .

ويجب أن نشير هنا إلى بعض المصادر الصغيرة التي وجدت فيها من المعلومات ما فات كثيراً من المصادر العظيمة . فأشير إلى كتاب صغير وضعه رجل قبطي يُدعى «ابن زنبل الرمال» باللغة العربية عن تاريخ هذا العصر ، وقد بقي هذا الكتاب مطموراً في دار الكتب البطريركية حتى قيّض الله له الأستاذ الكبير توفيق اسكاروس فأظهره . فسعت الدار الملكية للكتب في الحصول على نسخة خطية منه وفعلاً تمَّ ذلك وهي موجودة الآن بدار الكتب الملكية . ويجب أن أُعبِّر عن ما يكنه قلبي هذا للأستاذ توفيق من الشكر الجزيل على ما أبداه نحوي من المساعدات بإعارتي مجموعة من الأخبار الصغيرة التي نقلها عن هوامش كتب قبطية متفرقة عثر عليها أثناء قراآته في دار الكتب البطريركية ـ وقد نقلت هذه القصاصات ودونتها في هذا الكتاب وأكثرها كان موجوداً على رقوق خطية ـ ويجب أن لا ننسى كتاب عجائب الآثار للجبرتي فهو دليلنا العربي الوحيد عن نهاية عصر الطبقة الثالثة من المماليك .

وأما عصر أسرة المماليك الثالثة فتعوزنا فيه المصادر العربية والإفرنجية ، ولا بد أن تكون له مصادر نفيسة باللغة التركية التي أجهلها ولكن يجب أن ننوِّه عن مؤرخ قبطي يُدعى «شمس الدين» كتب عن تاريخ مصر وأحوالها تحت حكم الأتراك . ومما تمتاز به كتابته بيانه لحالة مصر الإقتصادية في ذلك العصر .

وفي عهد الأتراك أيضاً زار مصر كثير من الأجانب أجادوا في وصف أحوال مصر . ونبدأ فنذكر منهم الدكتور ريتشارد بوكوك الذي زار مصر عام ١٧٣٧ مستصحباً معه راهباً فرنسيسكانياً كاثوليكياً . وهذا يُفسر لنا سبب اللعنات الهائلة التي صبَّها هذا الرحَّالة على الأقباط إذ كانت العداوة مستحكمة إذ ذاك بين الكنيستين الغربية والكنيسة المصرية ، وقد زار هذا الرجل العاصمة والفيوم وجال في أنحاء الصعيد بطريق النيل ، وزار كثيراً من الأديرة القبطية ووصفها ، وتمتاز كتابته بصدق الوصف ونظر ثاقب . وفي نفس هذا الوقت زار مصر «فردريك نوردون ، أحد ضباط البحرية الدنماركية وكتب عنها كتاباً ليس له قيمة تاريخية بالمرة .

وفي سنة ١٦٩٢ م كان المسيو دي ماييه قنصلاً جنرالاً لفرنسا في مصر . وقد بقي هذا الرجل في مصر ٣٠ عاماً دارساً منقباً عن أحوالها وتعلم اللغة العربية وكتب كتاباً نفيساً عن أحوال مصر في أواخر القرن السابع عشر وأول القرن الثامن عشر الميلادي .

وفي أواخر عصر المماليك وفي أوائل حكم محمد علي زار رجل انجليزي اسمه «لان» مصر مرتين الأولى سنة ١٨٢٥ م ، والثانية سنة ١٨٣٣ وقد كتب هذا الرجل كتاباً سمَّاه «أخلاق وعادات المصريين الحديثينThe» manners and custons of modern Egyptians وقد وصف هذا الرجل مدينة القاهرة وأهلها وصفاً ممتعاً وخصوصاً من الوجهة الأخلاقية والمعاشية . ويجب أن لا ننسى الكتاب الفخم الصغير الذي حرَّره لاستافرو لاسنجيان الرومي وعنوانه «ثورة علي بك»The revolt of Aly Bey ومطبوع في لندن باللغة الإنجليزية سنة ١٧٨٤ م وموجود بدار الكتب الملكية وهذا الكتاب له قيمة عظمى تاريخية لأن مؤلفه عاشر علي بك وخدمه فحكم عليه حكم اطلاع ومعرفة . وقد كتب كلوت بك كتاباً عن مصر في أوائل حكم محمد علي وكان عصر المماليك لا يزال ماثلاً للأذهان فجاء كتاباً بديعاً من جهة وصفه للمصريين وأخلاقهم وعاداتهم ، وهذا الكتاب مترجم ترجمة نفيسة بقلم مسعود بك .

إلى هنا انتهينا من مذكرات المعاصرين وبقي أن نذكر كتب كبار المؤرخين الذين لهم الفضل الأول في تصحيح تلك المذكرات وتبويبها وتمحيصها . فاذكر أولاً كتاب حافظ بك عوض عن الحملة الفرنسية ففي مقدمته فصل ممتع حقاً وبديع عن طبقة المماليك الثالثة وتأثير حكمهم في مصر والشرق ، وكذلك كتاب الأستاذ توفيق اسكاروس «نوابغ الأقباط في القرن التاسع عشر» وكتاب «تاريخ مصر» للأستاذين الإسكندري وسليم حسن .

وأحسن كتاب أذكره لمحب البحث والاطلاع من عصر المماليك ، كتاب السير وليم موير عن تاريخ دولة المماليك ، فإنه خير كتاب في هذا الموضوع ويجب أن أذكر أنه معرَّب تعريباً بديعاً جداً ونسخه تُباع في جميع المكاتب في مصر . ولا بد أن أذكر إلى جانب هذا الكتاب كتاب مدام بوتشر عن تاريخ الأمة القبطية فهو كتاب جليل فيه فصول تاريخية مهمة عن المماليك وعلاقتهم بالأقباط والنزلاء الأجانب ، ثم يجب أن أذكر كتاب الدكتور ويل «تاريخ الخلفاء» كمصدر متين في سياق أحوال حكومة هذا العصر وكذلك كتاب «دونفشير» ، L'Egypte Musulmane Par Devonshire ودوسافاري Lettres Sur L'Egypte Par Savari وفي ثنايا أعداد المجلة الآسيوية يجد القارىء بعض الأحيان مقالات بديعة عن عصر المماليك وحكمهم في الشرق (راجع المجلة الآسيوية سنة ١٨٨٨ م صفحة ٣٠٥) وأُحيل القارىء أيضاً إلى دليل دار الآثار العربية تأليف ماكس هرتز . وقد أخذت الدار هذا العام تعد دليلاً جديداً لمحتوياتها لم يصدر بعد . وقد جاء فيما دوَّنته البعثة الأثرية الفرنسية ، كثير من الأشياء الشائقة عن عصر المماليك وخصوصاً عن الآثار ومما يذكر بالفخر لهذه البعثة ، نشرها الصور الفخمة للآثار العربية المصرية ، وفي كتاب وصف مصر بحث طريف عن الحالة المالية لمصر في عهد المماليك فليرجع إليه من شاء زيادة التوسع في حالة مصر الإقتصادية في ذلك الوقت .

والذين يهمهم البحث في هذا الموضوع أُحيلهم على كتاب ولكن

الألماني وهو كتاب متقن شامل في هذا الموضوع وهو في خمسة أجزاء لا يهمنا في بحثنا إلا المجلدين الرابع والخامس اللذين كثيراً ما كنت أستعين بأصدقائي عارفي الألمانية في ترجمة نتف منهما وكثيراً ما كنت أرجع إليهما في تصحيح بعض الحوادث أو التواريخ . وهذا الكتاب خاص بتواريخ الخلافة العربية . وهناك كتاب آخر لولكن أيضاً في ثمانية أجزاء بديع جداً في نفس الموضوع . وفي النهاية أذكر مصدرين أولهما فرنسي وثانيهما انجليزي فالأول تاريخي والثاني يُعنى بالوجهة الإقتصادية بصفة خاصة .

Egypte Depuis La Conquete des Arabes jusqua la Domination Francaise.

Egypt in The Nineteenth Ceutnry by Cameron.

وإنني أرجو أن لا يمل القارىء من الاطلاع على هذه الصفحات الكثيرة .

منذ الفتح العربي حتى المماليك

يمكننا أن نقول أن مصر منذ الفتح العربي حتى الحملة الفرنسية هي حلقة تاريخية واحدة لا يمكن تجزئتها ولو أن عهد المماليك كان عهداً فريداً في نوعه إلا أنه كان نتيجة لما تقدمته من الحكومات والعصور ولذا كان واجباً على أن أكتب كلمةً تمهيدية مختصرة جداً عن الحكومات التي توالت على مصر منذ الفتح العربي حتى عهد حكم المماليك .

«عصر الخلفاء الأول»

فُتحت مصر في السنة الثامنة عشرة للهجرة في عهد ثاني الخلفاء الراشدين ولكن لم يكن لها شأن يُذكر في الدولة العربية في أيام ولاة الخلفاء ، ودام الحال على هذا المنوال نحو قرنين ونصف تعاقب عليها أكثر من مائة عامل لم يؤل على يدهم لمصر خير يُذكر ولو استثنينا عمرو بن العاص القائد الشهير الذي أنشأ أول جامع عُرف بمصر بمدينة الفسطاط التي اختطها لا نجد غيره من الولاة له منشآت يذكر بها . وبقيت مصر منذ فتحها حتى عام ٢٥٤ هـ محكومة بعمال يُرسلون إليها من قِبَل الخلفاء الراشدين ثم من قِبَل بني أمية وبعدها من قِبَل بني العباس .

«الدولة الطولونية»

في سنة ٢٥٥ هـ آلت ولاية مصر إلى أحمد بن طولون وكان والده من

موالي خليفة بغداد . وفي ثاني سنة من ولايته أعلن استقلاله ولم يقر للخليفة العباسي إلا بالسلطة الدينية . وكان هذا العمل مبدأ لدخول مصر في دور جديد فأفرد لها في التاريخ جزء خاص واستقلت فيه بباب إذ كان لها بين العالم الإسلامي الشأن الرفيع والمكانة التي لا تُبارى .

وحكم من هذه الدولة خمسة ملوك لم تزد مدة حكمهم عن ٣٤ سنة وفي هذه المدة القصيرة وخصوصاً في أيام مؤسس هذه الدولة نمت الثروة وانبسط الرغد في مصر .

«الدولة الإخشيدية»

انقرضت دولة بني طولون بعد أربع وثلاثين سنة وكان يظن أن أيامها تطول وخلفتها الدولة العباسية التي قبضت على الأزمة الدينية والسياسية بمصر ولكنها لم تلبث إلا القليل وزالت سلطتها كما زالت دولة بني طولون من قبل لأن أبا بكر محمد بن طفح النائب عن الخليفة الراضي بالله استضعف مولاه فاستقلّ بالبلاد في سنة ٣٢٤ هـ وتلقب بالأخشيد ومعناه ملك الملوك وهو لقب ملوك فرغانة إذ كان يزعم أنه من سلالتهم وفي عهد هذه الدولة لم تذق البلاد طعماً للراحة والاطمئنان اللذين كانوا يعلِّلُونها بهما وأهم حادثة تاريخية تُذكر عن هذا العصر تمكين الارتباط بين حكام مصر وحكام آسيا لا سيما بلاد الشام التي ما زال يجري عليها ما كان يجري على مصر .

«الدولة الفاطمية

في سنة ٣٦٢ هـ افتتح المُعز بن المنصور البلاد المصرية وهو من دولة حكمت شمالي أفريقيا حتى حدود مصر المستقلة عن الخلفاء من دولة بني العباس وملوك هذه الدولة يُسمون بالفاطميين ـ لأنهم كانوا يدعون أنهم من نسل السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي ـ وكانت قبيلة مؤسس هذه الدولة تقيم في السفح الغربي من جبال الأطلس ثم استولت على القيروان .

والذي حمل المُعز على افتتاح هذه البلاد هو أنه في سنة ٣٠٠ هـ كان قد خطر لأحد أجداده أن يغزو مصر لظنه في نفسه القدرة على ذلك فجرَّد عليها سرية لم تنجح . ولكن الاسكندرية ومدينة الفيوم بقينا في حوزته فلما آلت الخلافة إلى المُعز بعث إليها جوهراً أحد قواده في حملة أخرى فتمكن فن فتحها باسم مولاه .

وباستيلاء الفاطميين على مصر دخلت البلاد في عصر مغاير لسابقه وانتقلت الأزمة الدينية من العباسيين لهم وكان الفاطميون مبغضين إليهم لتمذهبهم بمذهب الشيعة .

وفي عهد الأول والثاني من خلفاء هذه الدولة صلحت أحوال مصر وكثر فيها العمران ولكن بعد قليل حلَّت بها الفوضى والخبال في أيام الحاكم بأمر الله لأن الاضطراب والتخوف اللذين كانا من دأب هذا الخليفة وطغيانه وجوره كل ذلك عرض به للفتن والثورات التي كان يؤدي إليها ما كان يصدر من الأوامر عن حمق ونزق وقسوة قلب . بعد ذلك نهضت مصر نهضة جديدة . والفضل في ذلك لحكمة الوزير بدر الجمالي وحزمه في سياسة الأمور ولكن هذا الخير الذي جاء بعد أوانه لم تطل أيامه فوقعت البلاد ثانية في الفتن في عهد الأخيرين من خلفاء الفواطم وفي غضون تلك الأيام ظهر الصليبيون أمام القسطنطينية ثم استولوا على بيت المقدس وانتزعوه من مصر سنة ٤٩٣ هـ .

«الدولة الأيوبية»
٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ

لما صار الأخيرون من الخلفاء الفاطميين لعبة في يد وزرائهم لم يبقَ لهم في الخلافة إلا اسمها وغدا الوزراء كثيري الشغب يتنازعون السلطة فيما بينهم لما وقر في نفوسهم من الطمع في الملك إلى أن بلغت بهم الجرأة أن فتكوا بأحد الخلفاء تخلصاً منه وقصارى القول أن الدولة الفاطمية انقرضت

وراحت ضحية تنازع الوزراء . وما لبثت مصر والشام أن تولّى عليهما صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب .

وكانت أيامه وأيام من خلفه وهم أول من تلقبوا بالسلاطين أيام اضطراب وفتن داخلية في البلاد وخارجها لما وقع فيها من الحروب الهائلة ولكن هذا العصر اشتهر على الأخص بالحروب التي تفجرت ينابيع الدماء فيها وهي الحروب الصليبية التي قامت ابتغاء انتزاع بيت المقدس من حوزة المسلمين .

واحتاج صلاح الدين ومن بعده خلفاؤه ليقوم بحروبه العظيمة أن يستعين بجند أغراب فجمعهم من أطراف الأرض وخصوصاً من الجركس والأتراك فكانوا سبباً في القضاء على دولته كما هو مبين فيما يلي من فصول ، وهو موضوع بحثنا هذا .

— ١ —

نشأة المماليك وحكمهم

الحوادث التاريخية التي آلت إلى استخدامهم في مصر :

يمكن أن يُسمى عصر المماليك بحق بالعصر المظلم لأنه أغمض عصر في تاريخ مصر ، ولأنه من جهة أخرى كان مظلماً بالحجب التي حالت دون المؤرخين للوصول إلى حقيقته ، ولكنه بالرغم مما يُوصف به كان عصراً قائماً بنفسه له مظاهر وتعاليم وفلسفة ونظم اجتماعية وأخلاقية خاصة به .

ولهذا العصر تأثير شديد في مجرى الحوادث في تاريخ مصر في العصور التي تلته لأن النير الذي ألقاه المماليك على رقاب المصريين كان أثقل من أن تتخلص منه مصر في حوالي ثلاثة قرون[1] ولذا يمكننا أن نقول أن مدنية هذا العصر كثيرة المتناقضات ، ولذلك وُصفت هذه بأنها عصر الظلام ، أو عصر الفوضى أو العصور المظلمة ووصفها الغير بأنها عصر النظم المحلية وحكم الاقطاع أو عصر الفروسية والشجاعة وغير ذلك من المظاهر المختلفة التي جعلت تاريخ هذا العصر أمتع جزء في تاريخ مصر .

وفي هذا العصر عاشت مصر نفس الحياة التي عاشتها أوربا في القرون الوسطى في عصر الفرسان والاقطاع .

آل تراث الأيوبيين بعد انقراض الملك منهم إلى المماليك البحرية سنة ١٢٥٠ . فقد اضطر صلاح الدين الأيوبي لكي يتمكن من القيام بحروبه

(١) لا يزال كثير من العادات الباقية من عصر المماليك فاشية في أرياف مصر «وخصوصاً في الصعيد» حتى الآن .

الصليبية إلى أن يشتري ١٢ ـ اثني عشر ـ ألف مملوك من الجراكسة والأتراك وبعد أن دربهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية ألف منهم جنداً لم يلبث أن صار أشد الجنود الآسيوية الأصل بأساً وأقواهم بطشاً . وكانت سلطة مواليهم قد آلت على توالي الأيام إلى حوزتهم فغلبوهم على أمرهم وتصرفوا في أحوال الدولة على أهوائهم ثم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشهم واختاروا السلاطين لهم من بينهم وأخذوا يؤلفون برسم أنفسهم فرقاً من المماليك على الوجه الذي ألفت به فرقهم فتضاعف عددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفيذ أحكامهم والتغلب على سواهم .

وطريقة جلبهم إلى مصر أنهم كانوا وهم في مقتبل العمر يُباعون في أسواق النخَّاسة بيع الأرقاء ثم يُنقلون إلى ذلك القطر الذي قُدِّر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه دون أن تربطهم به صلة وطن ولا آصرة قرابة .

ولم يكن عجباً أن يعاملوه وأهله معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها إذ لم يكن يعنيهم من شأنه وشأن أهلها سوى التفنن في ضروب ابتزاز الأموال واستدرار الخير فتطوروا بطور الحضارة والترف وألفوا النعيم وغضارة العيش وبلغوا في ذلك الغاية حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاختلال والمكايد المُراد بها تعزيز الأطماع الذاتية وتفشي وسائل العنف والقهر بما يؤدي إلى سفك الدماء وإزهاق الأرواح لتحقيقها .

ورغم توالي حضور المماليك وغيرهم من قبائل الغزاة إلى مصر وتوطنهم فيها فقد استمر النقص في السكان منذ الفتح العربي حتى قدرتهم (عدد السكان) الحملة الفرنسية بمليوني نفس . وإنَّا إذا بحثنا عن أسباب هذا النقص لا نلبث أن نتأكد رجوعها كلها إلى ما كانت عليه حكوماتهم من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التي اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت في شؤونها بالعبث والإفساد حتى ضاع الغرض المقصود منها .

ومن الأسباب المباشرة لتناقص عدد السكان كثرة عدد الطواعين التي أصابت مصر . ولكن من المسؤول عن عدم وقاية البلاد من هذا البلاء ؟ أليس هم بالطبع حكام البلاد الذين لم يكن لهم غرض إلا إرواء شهواتهم والقبض على السلطة فوق رقاب العباد ؟

ويرى «كوفيه» وقد نقل عنه كلوت بك أن أسباب تناقص عدد السكان هو طغيان الصحراء على الوادي الخصيب .

وقد نشأ عن الفوضى الطويلة التي حلَّت في مصر محل النظام طوائف كثيرة من صغار الزعماء استمدوا من قوة الحسام ما انتحلوه لأنفسهم من حق التصرف في نفوس الأهلين وإيرادهم موارد الهلاك .

ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتها وشبابها وقوتها وقد ضيق عليها الأنفاس . أولئك الألوف المؤلفة من صغار الظلمة الطاغين ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثل المصاب بالبرص ليس لدائه طب إذا أصبح ميداناً للحروب الأهلية ومجالاً تعبث فيه طوائف الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد .

* * *

«مثَّل المماليك في تاريخ المشرق ، دوراً مهماً جعل من الواجب على المؤرخين أن يضعوا له بحثاً خاصاً ، وتحقيقاً دقيقاً ، ليظهروا ما كان لتلك الطغمة من الأثر الطيب أو السيء ، وليشرحوا أيضاً ما إذا كان في ظهورهم وتقوية شأنهم ، بل وفي ذكائهم وقوة بأسهم ، فائدة للأمم الإسلامية ، بحيث استطاعت أن ترد وقتاً ما بهؤلاء المماليك الحروب الصليبية من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر ، أو هل كان ظهور أولئك على مسرح السياسة الشرقية ، سواء في آسيا أو في شمال أفريقيا ، سبباً في اضمحلال النهضة العربية ، وقضاء على الحياة الفكرية .

إني أميل إلى الرأي بأن المماليك وخصوصاً الطبقة الأخيرة منهم كانت

سبباً لبلاء هذه الديار وعذاب أهلها مدة طويلة من الزمان ، إذ صيروا وادي النيل ميداناً للسلب والنهب والمظالم كما سنرى ذلك مفصلاً فيما يلي :

* * *

كلمة مملوك هي اسم مفعول من «ملك» وهو ظاهر المعنى لا يحتاج لإيضاح وقد ذكر المؤرخون أن منشأ المماليك من جهات «قفجان» من شمالي آسيا . وأنه لما غزا المغول تلك الأصقاع تحت قيادة «باتوخان» حفيد جنكيز خان ، ساموا أهلها الذل وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، حتى هاجر سكان الولايات القزوينية والقوقاسية من ديارهم ، فضعفت قبائلهم وتشتتت في بلاد آسيا الصغرى. وكانت تجارة الرقيق الأبيض والأسود في شدة انتشارها ، فكان النخَّاسون يبتاعون أحسن أبنائهم وأجملهم وأقواهم من أقاربهم ، وآبائهم ، أو كانوا يختطفوهم فيبيعونهم لمن شاء من أمراء وأغنياء الديار السورية والعربية والمصرية فيشب الفتى وقد نسي قومه وجنسيته واندمج في سلك أمثاله المماليك تحت رعاية مملوك منهم أو أمير من أمراء العرب أو غيرهم ، يقربونهم إليهم ، ويحبونهم لجمالهم وذكائهم وولائهم في خدمتهم ، فيرقونهم بعد أن يشتد ساعدهم في بطانتهم ، وعند ذلك تتطلع نفوسهم إلى مراتب العز ومنازل الإمارة والشرف بل إلى الملك ذاته لأنهم كانوا يعرفون أن أمثالهم من المماليك الأرقاء الذين ابتيعوا صغاراً ، وربوا في أحضان أسيادهم وملوكهم ، شبوا على الفروسية والإقدام ، ووصلوا إلى أرقى مناصب الملك والسيادة ، ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم أن سلاطين المماليك بعد الدولة الأيوبية من عهد الظاهر بيبرس ، فالملك قلاوون ، فالسلطان حسن وبرقوق وبرسباي وقايتباي وجميع ملوك هذه الدولة وسلاطينها ، لم يكونوا إلا مماليك ، أو أبناء مماليك مثلهم .

ومدة حكم هؤلاء المماليك لا يمكن أن يجد لها الإنسان مثيلاً في تاريخ العالم كله وذلك لأن مركزهم كان استثنائياً لأنه لم يسمع مطلقاً ـ ولو

أنه حدث أن العبيد والأرقاء في ثوراتهم يسودون مواليهم سيادة لا تلبث أن تنقشع سحبها ـ إن طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال من أسواق آسيا يكثر عددهم ويؤوا أرقاء مثلهم ثم يحكمون قطراً غنياً كمصر ، ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر ، ويصبح مملوك اليوم منهم حاكم الغد ولكن مماليك مصر يعطوننا هذا المثال .

وقد كان نهوض هذه الطائفة تبعاً للسُنة التي جرى عليها العباسيون وهي بيع الألوف من العبيد من قبائل التركمان والمغول واستخدامهم حرساً لهم ومصدراً لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتئذٍ وأصبحوا سدى الجيش ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثون أن يصبحوا ذوي الأمر والنهي في بيت الملك ، يشعلون نيران الفتن والقلائل حتى عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلّة وسلك سبيلهم خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب من سبقهم من الخلفاء العباسيين وقد نحت دولة الأيوبيين بعدهم هذا النحو إذ كانوا غرباء في البلاد فاحتاجوا إلى الاعتزاز بأمثال هؤلاء» .

«إن القبائل المقهورة في أواسط آسيا كانت لا ترى غضاضة في بيع أفلاذ أكبادها للنخّاسين الذين كانوا يعدُّونهم لحُسن المستقبل والسعادة في الغرب . وقد سهَّل عمل النخّاسين ما كان يُذاع عن ثروة مصر الكبيرة التي يمكن الحصول عليها بأقل جهد . لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحروب وأسرها بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم أحياناً بأثمان باهظة .

ولما كانت هذه الفئة تنشأ نشأة حربية كان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من تفك رقبته بأمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة . وقد يثب أحدهم وثبة واحدة تجعله أمير ألف . وأخذ عددهم يتضاعف بشراء مماليك جُدد كانوا ينالون ما نال أمراؤهم من الحرية والثراء . وقد كان السلاطين بطبيعة الحال أكثر الناس انكباباً على شراء

المماليك . ولذلك استخدموا موارد الحكومة في إحاطة أنفسهم بجمع عظيم من هؤلاء المماليك . فقد علمنا أن أحد السلاطين اشترى منهم نحو ستة آلاف ، وبينما كان السواد الأعظم من الأمة يعيش عيشة الفقر غارقاً في حمأة الجهالة كان المماليك المقربون لدى الأمراء ولا سيما حاشية الملك يتعلمون علوم السلم والحرب ، وكان الواحد منهم ينهض من درجة حاجب ويتابع تدريجياً حتى يصل إلى مرتبة سيده ، فمملوك اليوم هو قائد الغد بل ليس بعزيز عليه أن يصبح سلطاناً» .

«وقد قصَّ المقريزي في كتابه عن تاريخ مصر رواية عن المماليك وهي وإن كانت من القصص التي لا يعتمد على روايتها المؤرخ ، إلا أنها تعطينا فكرة صادقة عن الآمال والأماني التي تدور في نفس المملوك وهو قادم في طريقه إلى مصر «روى الإسحاقي عن عبد الملك الأشرف قايتباي المحمودي ، أنه لما جلبه (الخواجا) ! محمود إلى مصر وكان معه رفيقه أحد المماليك الذي جلب معه مع الجمال الذي يحملهما إلى مصر في ليلة مقمرة فقالا لعلَّ هذه الليلة هي ليلة القدر التي يُستجاب فيها الدعاء ، فليدعُ كل منَّا بما يحبه . فأما قايتباي فقال أطلب من الله تعالى سلطنة مصر ، وقال الثاني وأنا أطلب من الله أن أكون أميراً كبيراً . أما الجمَّال فقال أما أنا فأطلب حُسن الخاتمة فصار قايتباي سلطاناً وصاحبه أميراً ، فكانا إذا اجتمعا يقولان فاز الجمَّال من بيننا» .

فانظر كيف كانت تطمع نفس المملوك إلى السلطنة وهو لا يزال في الطريق إلى مصر ! .

«وقد بيَّنا فيما سبق أن نهوض هذه الطائفة كان نتيجة لما اختطه العباسيون على أن القياس على حالة بغداد قياس لا أساس له ، لأن القبائل الهمجية التي نزلت هناك اختلطت بالسكان وأصبحت جزءاً منهم . أما الحالة في مصر فكانت على نقيض ذلك تماماً ، وهذا هو موضع العجب ، فمماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم

وعاداتهم ، فكانت حكومتهم على رأسها الأمير أو السلطان في حين أن باقي المماليك كان لهم سلطان نافذ لا ينازعهم فيه أحد .

إذا علمنا كل ذلك وعلمنا مبلغ السلطة الهائلة التي لا تُحد التي تمتع بها المماليك في مصر عرفنا السبب الذي من أجله أقدم كثيرون من الناس على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر ! . . لا بل علمنا السبب الذي كان يدعو كثيرين من الجراكسة والتركمان أن يفدوا زُمراً إلى أرض الآمال» .

أجمع المؤلفون الذين عُنوا بوضع تاريخ عن عصر المماليك على تقسيمهم إلى طبقتين أو قسمين «المماليك البحرية ١٢٥٠ ـ ١٣٨١ م» و «المماليك البرجية ١٣٨١ ـ ١٥١٧» وقد جرى أكثر المؤرخين على ذلك ضاربين صفحاً عن أعظم عصر قويت فيه شوكة المماليك وكثرت مظالمهم وعظم نفوذهم وأضحت فيه مصر حقلاً لمطامعهم وأغراضهم أي عصر الأتراك أو المدة المحصورة ما بين الفتح العثماني واستقلال محمد علي بمصر .

ونرى في كتاب فتح مصر الحديث أن حافظ بك عوض قد قسم المماليك إلى طبقتين كبيرتين :

الطبقة الأولى من ١٢٥٠ ـ إلى الفتح العثماني ١٥١٧.

الطبقة الثانية من ١٥١٧ إلى أن مذبحة القلعة الشهيرة أو إلى استقلال محمد علي بمصر وذلك لأنه يرى أنه لا عبرة لقولهم أن القسم الأول من المماليك البحرية كان من جنس غير جنس المماليك الشراكسة لأن المماليك في أول أمرهم وفي أواخر الدولة العباسية إلى مذبحة القلعة ، ثم في أيام محمد علي واسماعيل وتوفيق لم يكونوا من جنس خاص ، ولا من أمة معلومة ، بل كانوا دائماً خليطاً ممن يُباع ويُشترى من الفتيان الحسان الأقوياء ، سواء أكانوا من شواطىء بحر قزوين وأواسط آسيا من تتار ومغول

وشـركـس ، أم كـانـوا مـن بحـر إيجـة مـن الأروام وجـزر البحـر الأبيض المتوسط .

وهذا السلطان الظاهر «حوش قدم» من مماليك الطبقة الأولى ، يُلقب بالرومي لأنه يوناني الأصل ، ويُلقب بالناصري مع إسلامه ، وكان له ولع عظيم بالعلوم والآداب اليونانية القديمة . وربما كان فيهم من أجناس مختلفة من الشعوب القائمة حول الأدرياتيك أو من جزائر إيطاليا والبحر الأبيض على الإجمال .

ولأنه يرى أيضاً أن الفتح العثماني لم يقضِ على سلطة المماليك بل زادها عتواً وتجبراً وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن المماليك حكموا مصر من عام ١٢٥٠ م إلى حوالي ١٨١١ مع استثناء مدة الحملة الفرنسية وأول ظهور سلطة محمد علي الفعلي ، فأما أنا فأميل إلى تقسيمهم إلى أربعة أقسام .

١ ـ المماليك البحرية ١٢٥٠ ـ ١٣٨٧ م
٢ ـ المماليك البرجية ١٣٨١ ـ ١٥١٧ م
٣ ـ المماليك البكوات ١٥١٧ ـ ١٨١١ م
٤ ـ مماليك الأسرة العلوية .

ولست في هذا التقسيم أراعي اختلاف جنسيات المماليك بعد أن أوضحت أنهم جميعاً لم يكونوا في أي طبقة من وطن واحد ولا من أمة واحدة . ولست أراعي أيضاً في هذا التقسيم المناطق التي سكنوها . فأقول مماليك بحرية لأنهم سكنوا جزيرة الروضة وبرجية لأنهم سكنوا الأبراج ولا مماليك بكوات لأن هذا كان نعتهم أيام الاحتلال العثماني .

لست أراعي ذلك ولكن أراعي اعتبارات أخرى فإن أكثر ملوك الطبقة الأولى أتيح لهم الحكم باسم سلاطين من الأطفال ، فقد تولى قلاوون وصياً على ابن بيبرس (سيف الدين شلامس) فلم يلبث أن خلعه من المُلك ووثب مكانه على العرش ، وتولّى كتبغا الحكم بصفته وصياً على السلطان لاجين فلم يلبث أن استبد وحده بالملك .

أما ملوك الطبقة الثانية فقد صار إليهم الأمر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقاً على الرغم من أنه لم يكد ينال مصر من هذا التغيير نفع كبير .

«وعلى كل فإن مماليك هاتين الطبقتين كانا أرقى أخلاقاً وأفضل سياسة من مماليك الطبقة الثالثة ، وكان يظهر فيهم من وقت لآخر فحول سياسة ورجال عدل ونظام ورفق بالرعية وكان مما يصلح شأنهم ، أن الوراثة كانت توجد فيهم من وقت لآخر مما ثبت دعامة الملك ولم يدعها مطمعاً لكل سفاك للدماء طامح للسلطة والإمارة .

وقد امتاز مماليك هاتين الطبقتين بما تركوه في القاهرة وضواحيها من الآثار النفيسة والمساجد البديعة النادرة المثال وما أبقوه من العمائر التي تدل على ذوق رائق ورفاهية تُضرب بها الأمثال .

وقد وصفهم العلاَّمة «لاين بول» في كتابه المُسمى «القاهرة» فقال :

«لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات التي لم تجمع في طبقة من الأمراء في أي زمان أو مكان ، فبينما نعرف أنهم عُصبة من الأفاقين ابتيعوا بيع السلع ونشأوا أرقاء ، وربوا سفاكين للدماء ، ظالمين للعباد ، مخربين للبلاد ، نجد منهم ميلاً غريباً للفنون ، يحق لأي ذي عرش وصولجان أن يفخر به على الأنداد والأقران ، ولقد أظهر هؤلاء المماليك في لباسهم ، ومسكنهم وعمائرهم ذوقاً سليماً ، ورفاهية بالغة ، يصعب على أوربا الآن في عصرها «الأستاتيقي» المحب للجمال والتأنق ، أن تدانيهم فيه .

انظر إلى ما يوجد الآن في القاهرة من المساجد الكبيرة التي تناطح مآذنها السحاب تجد أنها بُنيت في عصر مماليك هاتين الطبقتين ، انظر إلى جوامع قلاوون ، والناصر ، والناصر بن قلاوون ، والسلطان حسن ، وبرقوق ، والمؤيد ، والأشرف ، وقايتباي .

ثم انظر إلى قباب قبور المماليك بالصحراء ، ترى من جلال البناء ،

وبديع العمارة ، ما لا يُداني وكل ما بُني بعد في العصر الأخير من القرن التاسع عشر ، إنما هو تقليد وتشبيه بهاتيك العمائر التي تفخر بها القاهرة على مدن العالم .

وأما مماليك الطبقة الثالثة أي المماليك البكوات فإن أغلب المؤرخين كانوا لا يعتبرون عصرهم من ضمن عصور حكم المماليك ولذا اضطررت أن ألتجىء إلى مصادر كثيرة وإلى تطويل قد يكون مملاً لأثبت أن الحكم الفعلي في عصر الأتراك كان لمماليك هذه الطبقة دون غيرهم . وإنهم لم ينقصهم في هذا العصر إلا لقب السلطنة الذي استبدلوا به لقب «شيخ البلد» ولم يأبه المملوك كثيراً لذلك واكتفوا بالجوهر ، والحكم الفعلي دون لقب السيادة» .

«ظل حكم المماليك على مصر طوال الحكم العثماني إذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالي من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته في مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك تبعاً لذلك . وبقي المماليك على عهد العثمانين - كما كانوا من أجيال عدة - يكثرون من عددهم بشراء مماليك جُدد كانوا يفدون على مصر من سيبريا وبلاد الجركس وما جاورها من البلدان ، وصار رؤساء المماليك يُسمون باسم «شيخ البلد» وكانوا كثيراً ما يتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذا اللقب فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعها وكان «الشيخ» إذ عاضده الأمراء يستفحل أمره فيتنزل الباب العالي وواليه في مصر على إرادته ، فكأنه هو الحاكم الفعلي للبلاد .

ولما كان الباب العالي مشتغلاً بحروبه مع الروس في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، نبه ذكر شيخ البلد ، على بك الكبير» واستطاع كسر شوكة الانكشارية الذين كانوا عدة العثمانين إذ ذاك في مصر ، وأخذ يزيد في عدد المماليك في بلاطه حتى بلغوا ستة آلاف ، وعندئذٍ اتخذ موقف المستقل وطرد الوالي العثماني إلى القسطنطينية ، ثم توجه بجيشه إلى سورية فأخضعها وأخضع البدو كلهم فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة ومنحه لقب سلطان . وقد حكم حكماً زاهراً ائتمرت به جماعة وذبحوه غيلة في سورية» .

يقول كلوت بك في كتابه (لمحة إلى مصر) ترجمة مسعود بك.

«صارت مصر في منة ١٥١٧ أي أيام السلطان سليم الأول إقليماً من الدولة العثمانية ولقد أيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليها أنه سيتعذر على حكومته لبعد مصر من مقر السلطنة إظهار سطوتها وتعزيز سلطتها فيها. وكان من جهة أخرى في حاجة إلى مداراة المماليك واستمالتهم إليها لياً من جانبهم فابتكر لإدارة شؤون البلاد أسلوباً أحكم تدبيره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق متمناه. من ذلك فإنه جزأ السلطة العامة أجزاء جعل كل جزء منها وقفاً على طائفة من طوائف المماليك وفرقهم وأتمَّ ذلك على وجه يقتضي مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختلَّ التوازن والتعادل من قوى تلك الأجزاء.

أما شؤون الحكومة ومناصبها فقد عهدت إلى ديوان أعضاؤه من كبار المماليك وزعمائهم وأما الإدارة المحلية فقد نيطت بأربعة وعشرين بيكاً منهم رؤساء تلك الفرقة والطوائف وزعمائها.

وكان لهؤلاء أن يجبوا المفروض والضرائب الجزئية فيأخذ الديوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التي يجب دفعها إلى الباب العالي، وكان للسلطان في البلاد والٍ برتبة الباشا يمثله فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته في إبلاغ الأوامر التي يتلقاها من السلطان إلى الديوان وإيصال مبلغ الجزية إلى خزينته وصيانة البلاد من الاعتداء الخارجي ومقاومة نمو الأحزاب وتفاقم خطرها.

وألفت فرق من مستحفظان الانكشارية والاسباهية بقيادة رؤساء يُسمون الوجاقية لتأييد الباب العالي والذود عن حقوقه واختصاصاته ولكنهم بالنظر لاعتيادهم في مصر خصب العيش وأخذهم بمذاهب أهل الحضر من الترف والنعيم ذهبت منهم البسالة فنشأوا على كراهية المغامرة التي جعلت الانكشارية من أولي البأس والشدة ونجم عن هذا وذاك أن احتفظ المماليك بعصبيتهم ولم يفقدوا شيئاً من صولتهم، وكان لأعضاء الديوان أن يرفضوا

أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان في قدرتهم العمل لإبعاده وعزله من منصبه .

ومن ثم تضاءلت على توالي الأيام سيادة الباب العالي على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت من النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة .

ثم كانت ثورة علي بك الكبير التي انتهت باعلان تنصيبه سلطاناً على مصر وقد انصدع من جراء هذه الثورة صرح السيادة العثمانية فأصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال حتى سهل على المماليك منذ هذا الحين إبعاد البشوات ونفيهم بلا معارض ولا مشاق وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وحرج مركزهم إلى حد أنهم كانوا إذا وصل إليهم بلاغ يدعون فيه إلى التنحي عن منصب الولاية ومغادرة المدينة بادروا من فورهم إلى الطاعة فغادروا قصورهم المشيدة بلا مخالفة ولا محاولة مقاومة وجاء من بعدهم خلف تفوقوا عليهم في الاحتياط وحُسن التدبير وصدق النظر فإنهم على الرغم من اتصافهم مثلهم بفضيلة الفتوة والبسالة والإقدام أبوا مزالق المناداة باستقلالهم ولم يطفروا إلى هذه الغاية التي كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها لا سيما وأنهم يعتقدون أن ما هم عليه من الاستقلال الفعلي يغنيهم عن إعلان استقلالهم الاسمي بل تظاهروا باحترام الدولة وإجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافي عن تنفيذها .

وكانوا فيما عدا ما تقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصونها من أطرافها متقدمين إلى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم أنهم أنفقوها في مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجرأة أحياناً بهم إلى الوقوف عن دفعها بالمرة متذرعين بباطل الأعذار وفاسد الدعايات . وما كان في سعة الباب العالي تجاه هذا العبث إلا أن يغمض الطرف ويجر ذيل الإغضاء عليه علماً منه بما يعقب التحفز لإصلاحه أو قمعه من النتائج الخطيرة بالنسبة له ومن ثم اتجهت سياسته إلى غاية واحدة هي إلقاء بذور التدابر والانقسام بين

المماليك مع اتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب حتى لا يتمكن الحزب القوي الغالب من تأييد شوكته وتوطيد سلطته على وجه تتم به الوحدة ويتوافر النظام . وكانت هذه السياسة سيئة العواقب على الأمة المصرية التي كانت تسوء على الدوام أحوالها ويضطرب حبل شؤونها كلما سادت الفوضى وعمَّ الاختلال وتحسن كلما ارتكزت السلطة على أساس وطيد من الهمة والهيبة والنظام» .

* * *

وقد تمكن الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م من الاستيلاء على مصر عنوة من الباب العالي ولكن أغراض هذه الحملة فشلت فترك نابليون مصر في ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ م ثم غادرها الفرنسيون نهائياً في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١ م وبعد أن ترك مصر الفرنسيون حاول الأتراك احتلالها مرة أخرى ولكن احتلالهم لم يطل إذ نزع الحكم منهم بعد حين محمد علي - يوليه سنة ١٨٠٥ م - وبدأ محمد علي لكي يكون صاحب النفوذ الحقيقي في البلاد أن يخلصها من المماليك وحكمهم ولما كان لا طاقة له على ذلك في ذلك الوقت اتفق معهم اتفاقاً وقتياً (سنة ١٨١٠ م) ولما لم يخلدوا للسكينة استأصل شأفة زعمائهم في مذبحة القلعة (فبراير سنة ١٨١١ م) ، «صفر سنة ١٢٢٦ هـ» ، وبذا انتهت الطبقة الثالثة منهم وأما الطبقة الرابعة فسيأتي عنها التفصيل فيما بعد واندمجت بقية شعبة المماليك في الشعب المصري وزالت هيبتهم من الحكومة بإقصائهم عنها نهائياً بيد عرابي .

ـ ٢ ـ

آخر عهد مصر بالمماليك[١]

جرى أكثر المؤرخين على اعتبار المماليك طبقتين «المماليك البحرية» و «المماليك البرجية» وزاد عليهم بعض الكُتَّاب طبقة أسموها «المماليك البكوات» والذي أراه أنهم طبقات أربع فأضيف إلى الطبقات المتقدمة طبقة أدعوها «مماليك الأسرة العلوية» وبذا أقيم الدليل القاطع على خطأ الرأي الشائع بأن محمد علي قضى على المماليك في مذبحة القلعة .

اتفق محمد علي والمماليك عام ١٨١٠ م على أن يخلدوا إلى السكينة ويعودوا إلى سُكنى دورهم في القاهرة . وكانت تلك خدعة من محمد علي الذي كان في شغل لإعداد الحملة على بلاد العرب لتخليصها من أيدي الوهابين . ولم يكن في مقدوره تسيير جندي واحد لهذه المهمة ما دامت في مصر هذه الطغمة الشريرة تناصبه العداء . وقد أكد له سؤ نيته محاولتهم اغتياله . وذلك أنه كان في السويس يدبر أمر السفن التي ستنقل حملته فأرسل إليه وكيله «محمد بك لاظ الكخية» يحذره من المماليك ويعلمه باكتشاف مؤامرة لاغتياله في الطريق في أثناء عودته إلى عاصمة ملكه . فتنبه محمد علي لذلك وبدلاً من مكثه في السويس إلى اليوم المحدد لعودته تركها في غلس الظلام على ظهر نجيب سريع العدو غير مخبر أحداً بوجهة سيره . فوصل القاهرة في فجر اليوم الثاني يصحبه أربعة من الخدم . ونجا من هذه

(١) نشرت في مجلة الهلال ١٩١٩ .

المؤامرة التي حققت ظنونه من جهتهم وعجلّت برغبته في الانتقام منهم وأبادتهم قبل وثوبهم على عرشه .

وكان لا بد لمحمد علي أن يلبي دعوة الباب العالي في استخلاص الحرمين من أيدي الوهابيين فاستعد لذلك في فبراير سنة ١٨١٠ م وجمع جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ مقاتل ووضع على رأس هذه التجريدة نجله «طوسون باشا» ثاني المماليك . ففي يوم سفر الحملة أعد احتفالاً فخماً في القلعة يوم الجمعة الأول من مارس . وكان عدد من حضر من المماليك أربعمائة وثمانين مملوكاً . واحتشد الناس في القلعة وكان محمد علي منتظراً هناك ، فاستقبل الجميع في قصره في داخل القلعة بكل ترحاب وقدمت لهم القهوة وغيرها . ولما تكامل الجمع وبينهم المماليك وجاءت الساعة أمر محمد علي باشا بمسير الموكب ، فابتدأ الموكب بالجنود الدلاة وتبعتهم العساكر الانكشارية فالجنود الألبانية بقيادة «صالح قوج» وكان هذا عالماً بتدبير محمد علي من قبل وجاء المماليك بعدهم ثم تلتهم فرقة من الجنود النظامية .

سار الموكب بهذا الترتيب حتى انتهى إلى باب الغرب وبعد أن تخطته الجنود الدلاة والانكشارية أمر «صالح قوج» رئيس الجنود الألبانية بإغلاق الباب وأمر جنده بالمطلوب منهم ، فأعملوا السيوف في رقاب المماليك ، وقد انحصروا جميعاً في مضيق ضيق جداً منحدر من القلعة إلى باب الغرب . وهذا الممر مقطوع في الحجر ما بين الباب الأسفل والباب الأعلى الذي يوصل إلى رحبة سوق القلعة ، ولم يكتفِ محمد علي بالجند الألبان بل أعدَّ لهم أيضاً عدداً من الجنود النظامية أوقفهم على الأسوار وفي نوافذ الحجر المطلة على الممر السالف الذكر لكي يضربوا من أعلى عندما يضرب الألبانيون من أسفل . وبهذه الطريقة تعذر على المماليك الفرار أو التقهقر أو الدفاع عن أنفسهم بوجود خيلهم في ممر ضيق جداً لا يسع جوادين جنباً إلى جنب . وبذا تمكن محمد علي من إفناء جميع المماليك الموجودين في القلعة إذ ذاك .

ولم ينجُ من هذه المذبحة الهائلة إلا مملوكان هما «أحمد بك» زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير و «أمين بك» الذي هرب من تلك المصيدة الجهنمية ، ولقصة هروبه روايتان : أحداهما إشاعة يتداولها الناس ويقصها عليك دليل القلعة وهي : ـ إن أمين بك هذا كان داخل القلعة عندما حصلت الموقعة فلما سمع قصف المدافع همز جواده فوثب به من فوق السور إلى جهة الميدان قتل جواده وسلم هو . وهذا لا يصدق والأصح أن أمين بك هذا تأخر لداع ما عن ميعاد الوليمة . فلما وصل إلى باب القلعة الخارجي وسمع صوت إطلاق النيران عاد أدراجه وفرَّ هارباً ، وأمين بك بطل لعددٍ كبير من الروايات الخيالية بالنسبة لحادثة هروبه هذه .

ولم يكن هؤلاء كل ضحايا محمد علي من المماليك بل نودي في المدينة وفي سائر المديريات والأقاليم بأن كل من يظفر بمملوك في أي جهة يجب عليه أن يقتله . وأُعطيت أوامر مشددة بهذه التعليمات إلى سناجق المديريات . ففي بضعة أيام بعد ذلك الحادث بلغ عدد المقتولين من الأمراء المماليك ما ينيف على الألف . وكان بعضهم أيضاً يأتي بمن يمسكه من المماليك إلى الكخيا فيقتله . ثم نهبت بيوت المماليك المقتولين وأبيحت أموالهم ونساءهم للعساكر الألبانية .

وهرب كثير من المماليك الذين نجوا من هذه المذابح إلى الجنوب . فسكن أكثرهم في مديرية أسيوط ومارسوا تجارة الرقيق مع السودان ومصر . وأقام غيرهم في جهات أخرى من الصعيد وامتلكوا وحولوا أكثر مبانيها إلى معاقل وحصون يأوي إليها اللصوص وقطاع الطرق . وقد أغاروا عام ١٨١٣ على دير الأبياب وحرقوا مكتبته وكان بها مائة رق عليها كتابات أثرية قديمة ، وبهذا ضاعت آثار هذه المكتبة التي كانت تعد بحق حتى ذلك الحين أثمن مكتبة قبطية ، وكان السائحون يفدون من أوروبا خصيصاً في ذلك العصر المظلم لمشاهدة محتوياتها .

ولما خضع لمحمد علي الصعيد هرب أكثر زعماء المماليك الباقين

إلى دنقلة من السودان وتحصنوا بها فأقاموا القلاع والحصون . وعندئذٍ حاول أن يوقع بهم واحتال لذلك كثيراً . ولكنه فشل فكان ذلك من دواعي حملته المشهورة على السودان حيث ذهبت جنوده وأزالت دولتهم من السودان إلى الأبد .

* * *

والآن نتساءل . هل كان قتل محمد علي للمماليك في مذبحة القلعة قضاءً نهائياً عليهم ؟. . . . فقد كان عدد جند المماليك في أوائل عهد محمد علي اثني عشر ألف مملوك مدرب ! . . . . فأين ذهب كل هذا العدد ؟ الراجح أن محمد علي لم يذبح أكثر من ألف مملوك ، كان نحو نصفهم في القلعة والواقع أن محمد علي لم يوجه همه إلا إلى استئصال شأفة الرؤساء من الجراكسة . وأما أتباعهم الذين لم يرتقوا بعد أن رتبه البكوية فقد التحق الجانب الأكبر منهم بخدمته . والباقون عاشوا أفاقين حتى وافاهم أجلهم في سن الشباب كما هي عادة الكثيرين منهم . إذ من النادر أن نجد مملوكاً قد تزوج وكوّن له أسرة . فقد كان ديدنهم الحروب والفروسية فلا يرضون عنها بديلاً . فلما لم يجدوا مصر بعد ذلك ساحة تصلح لغاراتهم وحروبهم هاجروا إلى حيث يجدون ميادين متسعة للحروب والمشاغبات في سورية والسودان وغيرها ومعظمهم كان يموت وسنه لا يتجاوز الخمسة والثلاثين . ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضي بالزواج ، وهو النذر اليسير ، فقد اندمج مع نسله على مدى الأيام في المصريين .

فالمماليك الذين استوطنوا الأقاليم لم يحل بهم ما حلَّ بإخوانهم سكان القاهرة . وكان عدد كبير منهم من مماليك القاهرة أعواناً لمحمد علي وجواسيس علي إخوانهم فنجوا بذلك من العاصفة . وقد خدم كثير من أحداثهم في جيوش محمد علي وجمع منهم حوالي ألفين لم تبلغ سنهم الثامنة عشر لكي يدربهم على الحرب النظامية . فانتظموا أولاً في حرسه الخاص ، ثم التحقوا بعدئذٍ بمدرسة القلعة ، وصاروا بعد ذلك ضباط الجيش النظامي الذي أنشأه محمد علي عام ١٨١٥ في قلعة القاهرة والذي

نقل إلى أسوان عام ١٨١٨ عندما ثار الجيش الألباني ضدهم ، وكان هؤلاء الأحداث أساس الفرق الأربع التي تمَّ تكوينها حتى عام ١٨٢٤ ومنهم كان ضباطها .

* * *

والآن نرى أنه يجدر بنا أن نورد خلاصة عن تاريخ هذه الطغمة في هذا العصر فنقول : كان عدد جند المماليك في أوائل الحملة الفرنسية أربعين ألفاً ثم نزل إلى أن بلغ في عهد محمد علي اثني عشر ألفاً . ومن ذلك الحين أخذ يقل عدد الوافدين على مصر من المماليك الجُدد لكثرة الحروب والثورات في مصر بين عامي ١٧٩٨ و ١٨١١ م ويجب أن نذكر هنا أن النخَّاسين لم يجدوا لهم فائدة في استجلاب هؤلاء المماليك لإفلاس البكوات من جهة . وعدم قدرتهم على توسيع نطاق نفوذهم من جهة أخرى ولهذا لم يكن في قدرة المماليك إذ ذاك أن يكونوا لهم جيشاً جديداً قبل أن يقضي محمد على رابطتهم قضاء مبرماً .

ومن عام ١٨٢٤ حتى ثورة عرابي باشا كان قواد الجيش المصري كلهم من الجركس أي بقايا المماليك الأحداث الذين رباهم محمد علي وخلفاؤه . وإنك لتجد ذكرهم في تاريخ مصر حتى عام ١٨١١ م عندما أراد عرابي باشا أن يطردهم جملة من الجيش ، وهناك جركس آخرون يرد ذكرهم كثيراً في عهد عرابي هم بقايا مماليك الخديوي اسماعيل فقد اشتراهم بعد قبض الحكومة الروسية على زعيم الجراكسة «شامل» إذ أنه بموت شامل هذا آخر رؤسائهم هاجر الجراكسة من موطنهم إلى تركيا وهناك باعوا أبناءهم فاشترى أكثرهم الخديوي اسماعيل وأرسلهم إلى مدارسه ثم بعثهم إلى أوروبا ورباهم أحسن تربية حتى صاروا ضباطاً مدربين .

وفي عام ١٨٨٠ م أبطلت تجارة الرقيق في مصر . ومنذ ذلك الحين لا نجد في مصر مماليك يباعون أو يقتنون . ولكن حتى عهد قريب جداً كنا نجد كثيرين منهم على قيد الحياة يشغلون مراكز في الحياة العامة . وهم على

العموم سلالة آرية[1] من الإغريق والجركس والأرمن والكرج وغيرهم وما تزال سلالة من نسلهم تعيش الآن في مصر ، وكثير من بقايا أسرهم موجودة في كثير من أرجاء البلاد .

* * *

فمماليك الأسرة العلوية هؤلاء الذين ورد ذكرهم في هذا المقال هم الطبقة الرابعة . وقد ذكر هذه الطبقة عرابي باشا في مذكراته ومما لا يخفى أن السبب المهم في ثورة عرابي باشا هو تظلم الضباط المصريين من تسيطر المماليك الجركس على الجيش وفي صفحة ٦٢٢ من مذكرات عرابي نرى ما يأتي :

ـ «شاع في ذلك الحين أن الأمراء الجراكسة أوعزوا إلى فرقة المماليك الجراكسة الموجودة في القلعة أن يتمردوا ويحدثوا هياجاً شديداً على الحكومة . وكان عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية قد جمع تلك الفرقة من مماليك الديوان الذين هم مماليك العائلة الخديوية ليتعلموا التعليمات العسكرية ويترقوا ضباطاً بحيث ينتفع بهم في التغلب على الحكومة عند الحاجة . . . ولما علم الخديوي توفيق باشا بانفضاح كيدهم أمر علي بك فهمي أميرآلاي الحرس بإنزال الفرقة المذكورة من القلعة وإقامتها في قشلاق قصر النيل تحت ملاحظته . وقد دفع بذلك ما كان يخشى حدوثه من فتنتهم .

فأنت ترى من ذلك أن مذبحة القلعة لم تقضِ على المماليك دفعة واحدة كما كان شائعاً وأنه يمكننا الآن أن نقول أنه هناك طبقة رابعة من المماليك عاشوا بعد مذبحة القلعة تحت نظر الحكومة ورعايتها . وقد جمعوا من بقايا الطبقة الثالثة ومن الجركس الذين اشتراهم الخديوي اسماعيل .

---

(١) هذا لا يمنع أنه هناك مماليك من سلالات أخرى .

ولم تكن الطبقة الرابعة خيراً في أخلاقها من سابقاتها ، فقد كانوا كغيرهم من المماليك أصحاب فتن وقلاقل ولكن الفرق الذي كان يميزهم عن أسلافهم هو زوال سلطة الحكم من أيديهم .

حقيقة أنهم كانوا هم أصحاب النفوذ الفعلي في الجيش . إلا أن نفوذهم ما كان ليتعدى معسكراتهم . وكانت الرياسة في الجيش بعيدة عن متناول أيديهم . ولذا يمكننا الآن أن نؤكد أن الذي قضى على المماليك القضاء النهائي هو الثورة العرابية وليست مذبحة القلعة كما كان شائعاً مشهوراً .

ـ ٣ ـ

علاقة المماليك بالحروب الصليبية

الحروب الصليبية هي عدة حروب شنتها الدول الأوروبية على الدول التي احتلت سوريا لاستخلاص بيت المقدس منهم ودُعيت بالصليبية لأن الجنود الأوربية كانت تتخذ الصليب شعاراً لها وكانت الأعلام الأوروبية تتميز بوجوده على رقعتها .

وقد نشأت أول فكرة لحرب صليبية من الرغبة في تأمين الحج للذاهبين لزيارة بيت المقدس وقد زاد هؤلاء الزوَّار في القرنين العاشر والحادي عشر زيادة دعت للتفكير في حمايتهم وكانت هذه الزيادة نتيجة لسببين مهمين :

١ ـ كانت هناك خرافة شائعة في ذلك العهد تنبىء عن ظهور المسيح في مبدأ القرن العاشر أو على رأس الألف من التاريخ الميلادي فكان المؤمنون يتسارعون أفراداً وجماعات لزيارة بيت المقدس لنوال البركة والغفران وانتظار ظهور المسيح !!

٢ ـ اعتناق الطوائف الهنغارية والبلغارية والمجرية الديانة المسيحية مما سهَّل الطريق أمام الزائرين (إذ أنه لم يكن هناك الا طريق واحد هو طريق البر إلى الأستانة ومن ثم إلى آسيا ففلسطين[1]) وقد كانت هذه الجموع تتدفق

(١) هناك أسباب أخرى ثانوية أهمها :

١ ـ رغبة البابا أو الكنيسة الغربية في السيطرة على جميع العالم المسيحي ، =

على زيارة بيت المقدس فكانت تلقى هناك من حاكمه أسوأ معاملة وأفظع مظالم ، ثم جاء السلاجقة بعد ذلك واستولوا على بيت المقدس سنة ١٠٧٠ م مستصحبين معهم الهول والفزع والظلم والاضطهاد فجرحت هذه المعاملة قلوب أهل العالم المسيحي وملأتها حفيظة أما السبب المباشر للحروب الصليبية فهو استنجاد امبراطور القسطيطينية بدول الغرب ، فإنه لما انتصر السلاجقة عليه وأصبح مركزه ومركز امبراطوريته مهدداً عمد الامبراطور إلى الاستنجاد بأقوى أمير في غرب أوربا وهو «البابا» وصادف أن أول طلب للأمبراطور وصل إلى البابا غريغوري السابع سنة ١٠٨٠ فكان وفق أمانية ، ولولا اشتغاله بنزاعه مع الامبراطور لبدأت حركة الحروب الصليبية في عهده .

ثم استنجد الامبراطور «الكسيوس» Alexirs مرة ثانية بالبابا أربان الثاني Urbanls سنة ١٠٩٥ وكان هذا البابا فرنسي الأصل تخرَّج من دير «كلوني Kluny» وبفضل ما أوتيه من العلم وما كانت عليه البابوية من القوة جمع سنة ١٠٩٥ مجلساً عاماً في كليرمنت Clermont تمثلت فيه كل الطوائف من جميع أنحاء غرب أوربا وحضره من الأساقفة مائتان وخمسة وعشرون أسقفاً . فخطب البابا هذا الجمع كما خطبهم سفراء الكسيوس وكان «أربان» خطيباً مؤثراً فشرح حالة بيت المقدس وأعلن حماية الكنيسة

= وكل من قرأ التاريخ يعلم نصوص البابوية في عهد غريغوري السابع وانسنت الثالث ، ويعلم أيضاً بعزم البابوية على توحيد العالم المسيحي تحت أمره حكومة دينية واحدة رئيسها البابا . فكان طبيعياً أن ترحب الكنيسة بفرصة تكون مهمتها إخراج المسلمين من بيت المقدس وإخضاع الكنيسة الشرقية لنفوذها .

٢ ـ ميل الفرسان والأشراف إلى المخاطرات والسياحة ورغبة بعضهم في تكوين إمارات وحكومات في الشرق ورغبة الرقيق في التخلص من قيود الاقطاع التي كانت تربطهم بأرضهم .

٣ ـ اعتقاد المسيحين في مغفرة الخطايا بواسطة الاستشهاد في استخلاص بيت المقدس .

لأملاك المحاربين وعائلاتهم وغفرانها ذنوب الخاطئين فأجاب الجميع بصوت واحد «هكذا أراد الرب Dieu le veut» عند ذلك وضع البابا الصلبان على أذرع الذين تطوعوا ولذا سُميت بالحروب الصليبية كما أسلفنا .

وخرجت في الحال الطبقة الدُنيا في جموع غفيرة متبعين بطرس الناسك وهو راهب ألهب أدمغة الناس بحماسته ويمكن أن نقول أن المسؤول عن هذه الحملة هو هذا الراهب وزميله الفارس الفرنسي الملقب «ولتر المفلس» .

وعدد هذه الحملات سبعة دامت من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر ولا يهمنا من أمر هذه الحملات إلا الحملة السابعة والأخيرة وهي التي وقع شطرها الأخير في عهد المماليك .

حدثت هذه الحملة الأخيرة في عام ١٢١٧ م إذ خرج جيش عظيم على رأسه أربعة ملوك اجتمعوا في عكا . وبعد أن خربوا الأرض المقدسة تقدموا نحو مصر وحاصروا دمياط وعند ذلك أرسل البابا الكردينال بيلاغيوس نائباً عنه فتولى الاشراف على الحملة بنفسه وتقدم في أرض مصر فاستولى الخوف والوجل على سلطان مصر فعرض عليهم مراراً أن يسلمهم بيت المقدس إذا هم جلوا عن بلاده . فرفضوا طلبه وزحفوا نحو القاهرة ولكنهم صُدوا واضطروا أن يهربوا إلى الشام . وهكذا انتهى مشروع البلاط البابوي العظيم .

وفي أثناء ذلك كانت الدعوة للحرب الصليبية قائمة على قدم وساق في أوربا غير أن البابا وجَّه هذه الجيوش الجديدة في العشر أو الخمس عشرة السنة التالية ، إلى محاربة طوائف الالبيجنز وهي طوائف مسيحية اجتمعت في مدينة إلبى في جنوب فرنسا على أن تعبد الله على طريقة اعتقدت صحتها ، وتخالف في كثير من أحوالها طريقة كنيسة روما ، وإلى غير ذلك من الأغراض التي أهمها محاربة وثنيّي الشمال Northmen.

والآن نصل إلى ما نسميه الحملة الصليبية الأخيرة على الأرض

المقدسة أي أول حملة للويس ، سار لويس إلى مصر وهاجم دمياط ، ونجح في ذلك كما نجح أولاً ، ولكنه لقي نفس الخاتمة المحزنة التي لقيها بيلاغيوس منذ ثلاثين عاماً ، إذ هُزم الجيش في تقدمه نحو القاهرة ودمر الأسطول ، وأسر لويس ، غير أن توران شاه عامله معاملة حسنة ، فكان جزاؤه على هذه المعاملة أن ذبحه بيبرس وبذبحه آلت السلطنة إليه ، فكان أول أسرة المماليك .

* * *

وقد قام بيبرس بأربعة غزوات مهمة قرب بها أجل القضاء على سلطان الصليبيين وذلك أنه لما رأى الكرك قد غُلبت على أمرها وأن برخ[١] واقف بالمرصاد للمغول علم أن هذه ظروف سعيدة تمكنه من أعدائه فاستجمع عدته للإغارة على الصليبيين سنة ١٢٦٣ الذين كانوا (كعادتهم في عداوة مستحكمة وتنافس على الرياسة) على اتفاق مع قواد أعدائه المغول ولذلك زحف بجميع جيشه على الصليبيين الذين كانوا قد رفضوا أن يبادلوه الأسرى ولذلك سخَّر أسراهم في تشييد حصون دمشق ، ولم يكن ذلك هو السبب المباشر لإغارته ، بل تشبثهم ببعض الحصون ورفضهم إخلائها إجابة لرغائبه فقام بيبرس إظهاراً لغضبه فأعمل التخريب في جميع المدن الصليبية التي كان قد استولى عليها ، وهدم كنيسة الناصرة .

وبدأت الغزوة الثانية في فبراير سنة ١٢٦٢ إذ قام بيبرس بحصار مدينة قيسارية التي لم تقوَ على الحصار أكثر من خمسة أيام ووقعت في أيدي المصريين رغم حصون لويس العظيمة التي شادها حول المدينة . وقد أثارت حماسة بيبرس ومساعدته للجنود حميتهم على الاستقتال في القتال فانقضوا على قلعة أرسون البحرية الواقعة جنوبي قيسارية ، وقد دافع الفرسان الهوسبتاليون دفاع المستميت عن القلعة أربعين يوماً ، ورغم حماسة المماليك ومهاجمتهم للقلعة بشدة لم تسقط في أيديهم فاضطر بيبرس

(١) سنبحث ذلك مفصلاً في علاقة المماليك مع المغول .

للمفاوضة مع الحامية فآمنهم على حياتهم فسلموا الحصن له ولكنه غدر بهم وأجبرهم على هدم حصنهم المنيع بأيديهم ثم أخذهم ليزين بهم موكب السلطان الظافر عند عودته لعاصمة ملكه وأعلامهم وصلبانهم مكسرة ومحمولة على أكتافهم .

وقبل أن يغادر بيبرس ميدان القتال أجزل العطاء لكبار الأمراء وكان عددهم حوالي ستين أميراً وقد قيدت هذه العطايا في سجل خاص . وهذا السجل يحتوي على بيان بديع لوصف عصر هذا السلطان وعظمة ملكه بألفاظ تنم على الأبهة والمجد ، وأنه (بيبرس) وطّد دعائم الدين الحق بهزيمة أعدائه من التتار والصليبيين وسجّل أعمال أمرائه الأبطال الذين نالوا قطاعات غنية في أرض فلسطين التي استحوذ عليها من الصليبيين وقد شبه أمراءه بالنجوم التي تتلألأ في القبة الزرقاء ، وقد أورد المقريزي صورة هذا السجل وفيه أسماء الأمراء والاقطاعات التي منحت لهم(١) .

والآن نذكر الحملة الثالثة ، ففي سنة ١٢٦٦ م هاجم ملك انطاكية (بومند السادس) مدينة حمص فأرسل بيبرس حملة لمساعدتها ، ثم قام بجميع قواته في غزوته الثالثة . وفي طريقه زار بيت المقدس وأغدق العطايا لحرّاس قبر ابراهيم ولكنه أمرهم بمنع الحجاج من زيارته ثم عبر نهر الأردن على قنطرة قد أمر بتشييدها قبل ذلك . ولا تزال هذه القنطرة باقية إلى يومنا هذا ، وقد كتب على العقد الأوسط منها اسم المهندس الذي بناها بأمر بيبرس وهي مؤرخة سنة ١٢٧٣ م (٦٧١ هـ)(٢) وعليها كتابة بخط عربي واضح في أربعة أسطر يكتنفها أسدان(٣) وقد نقل الكولونيل واتسن النويري

---

(١) راجع تاريخ المقريزي طبعة كاترمبر جزء ٢ من ص ١٠ ـ ص ١٥ .

(٢) راجع الصورة والمقال التي كتبها كليمونت جانو في المجلة الآسيوية سنة ١٨٨٨٠ ص ٣٠٥ Pont del ydda .

(٣) راجع تاريخ طبعة كاترمبر جزء ٢ ص ٢٦ وراجع أيضاً Palestine Exploration Fund عدد يوليو عام ١٨٩٥ ص ٢٥٣ وفيها مقال عنوانه سد الأردن في عام ١٢٦٢ .

عن كيفية قطع الأردن العبارة الآتية «ومؤداها أنه في شهر فبراير عام ١٢٦٦ أمر السلطان بيبرس بإقامة قنطرة ذات خمسة أقباء عبر نهر الأردن وقد حدث أثناء إقامتها أنه أثناء تشييدها انهار أحد الأرصفة فغضب السلطان لذلك أشد الغضب وأرسل العمال لإصلاحه ولكن تيار الماء الجارف عطَّل العمل، ولكنه حدث بعد مدة في ليل ٨ ديسمبر سنة ١٢٦٧ أن وقف جريان الماء فأشعل البناؤن المشاعل وعملوا بحمية حتى أتموا بناء الجزء المتصدع ولولا ذلك لما أمكن إتمامه وقد أرسل العلماء في اليوم الثاني لاستطلاع الخبر فوجدوا أن السبب هو انهيار تل في مجرى النهر منع تدفق الماء إلى حين حتى تمَّ ترميم الجزء المتهدم. ولما تدفق الماء في مساء ذلك اليوم بعد أن تغلب على التل كان العمل قد انتهى» وقد ختم النويري قصته هذه بهذه الجملة «إنه في الحقيقة شيء غريب، فإن القنطرة لا تزال قائمة حتى اليوم».

* * *

تقدم بيبرس بعد أن عبر سد الأردن إلى عين جالوت وبحيرة طبرية، وفي ذلك الحين وصلت البشائر أن النجدة التي سُيِّرت لتخليص حمص قد أنهت مهمتها على أحسن وجه وحاصرت صفد[1] وشددت عليها الحصار فذهب بيبرس بنفسه ولاحظ حركة الحصار واستعمل جنده النار الاغريقية في الاستيلاء على الحصن وبعد مدة من الحصار منح بيبرس الحامية أماناً على أن تلقى السلاح وتترك القلعة إلا أنه غدر بأهلها وأهلكهم عن بكرة أبيهم فقتل منهم نحو ألفين من الصليبيين وقد عزى بعضهم هذه الجناية إلى أن الجنود الصليبية كانت تحمل أسلحتها حين مغادرتها القلعة وينسبه بعضهم إلى أنه حين دخول الفاتحين وجد أن بعضاً من المصريين كانوا مسجونين داخل القلعة على أن هذه الأسباب كلها لم تكن تدعو لهذه القسوة التي لا مثيل لها وقد لخص (ويل) في تاريخه الأسباب التي دعت إلى هذه الشدة

(١) هي قلعة على جبل خلف بحيرة طبريا.

التي لا يصدقها العقل ، وقد كتبها فوقعت في نحو صحيفتين من كتابه (جزء ٤ ص ٤٥٠) وقد عفا بيبرس عن اثنين من رجال الحامية بتوسط أحد الأمراء . ويقول المقريزي أن أحدهما أسلم وأن الآخر استخدم لتلمس أخبار الجيوش الصليبية وبعد أن عاثت الجنود في صفد فساداً أصدر بيبرس أمراً بإعادة بنائها ونقش على جدرانها قصة تدل على الفخر والصلف منها أنه «اسكندر زمانه وعماد الدين الذي حوَّل الكنائس إلى مساجد ، ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين وقراءة الإنجيل إلى ترتيل القرآن» ، وفي آخر القصة «نصر الله المؤمنين إلى يوم القيامة». . .

وفي عام ١٢٦٨ قام بيبرس برحلته الرابعة والأخيرة ، فقد زحف بجنده على طرابلس وانطاكية بعد استيلائه على «شقيف» وانقضاضه على «يافا» بدون إنذار وقد لاقى صعاباً جمة في الاستيلاء عليها فأراد أن ينتقم من بومند صاحبها لمساعدته المغول في هجومه على سوريا فخرَّب كل البلاد التي حول طرابلس وذبح كل من وقع في يده من الأسرى وهاجم انطاكية وأسر حاكم المدينة وحاول بواسطته أن ينال صلحاً بإخلاء المدينة . ولكن الصليبيين رفضوا ذلك رفضاً باتاً فألح على أسوارها بالهجوم ثم تسلقها وأقفل أبواب المدينة على من فيها وذبح أكثرهم ومن بقي أخذه أسيراً وكان عدد هؤلاء حوالى مائة ألف نسمة أكثرهم من القسوس والرهبان ، وبعد ذلك سلَّم رجال الحامية وكان عددهم حوالي ثمانية آلاف عدا الأطفال والنساء الذين فرقوا على الجنود كأنهم سبايا حرب . أما القلعة فقد أشعلت فيها النيران فامتدت منها للمدينة فأبقتها هشيماً وعند ذلك أرسل بيبرس رسالة تهكم إلى بومند يشاطره فيها الحزن على عاصمة ملكه المفقود .

وبعد ذلك تقدمت جنود بيبرس حتى استولت على «عكّار» الواقعة بين طرابلس وحمص وعند ذلك أرسل بيبرس خطاباً آخراً كله سخرية إلى بومند أيضاً ، ذكر فيه : «إن رايتنا الصفراء قد سادت بدلاً من رايتكم الحمراء وإن «الله أكبر» قد أخرست نواقيس كنائسكم» .

ومما يجب ملاحظته أن مدينة تُدعى «قصير» كانت من ضمن أملاك أحد الأمراء الصليبيين المدعو ولهلم نالت نصيباً وافراً من تلك الاضطهادات ولكنها نجت منها بأن قدمت إلى الفاتح المغير وثيقة قديمة فيها أن عمر بن الخطاب أوصى بأن تبقى هذه المدينة تابعة للمسيحيين فاحترم بيبرس هذه الوصية ولكنه احتال بعد قليل في سلبها وأسر ولهلم وحمله مقيداً إلى دمشق .

وبعد ذلك عقد بيبرس هدنة لمدة عشرة سنوات بينه وبين مدينتي صور وعكا سنة ١٢٧٥ وبعد موت بومند دخلت طرابلس في مهادنة مع بيبرس أيضاً ولم يبقَ للصليبيين من البقاع بعد ذلك إلا شيء قليل .

بعد ذلك بقيت الأحوال مستقرة قليلاً حتى عام ١٢٨٥ م وذلك لأن إغارات المغول كانت مستمرة على المصريين فانشغلوا بها ولكن الجو لم يخلُ من مناوشات قليلة إلا أننا أهملناها لعدم أهميتها . ففي هذه السنة قام قلاوون بغارات شديدة على الصليبيين بقصد استخلاص ملك الشام منهم فاستولى على مدينة اللاذقية مع أنها كانت بموجب معاهدة طرابلس من أملاك الصليبيين .

وفي عام ١٢٨٩ م هاجم قلاوون طرابلس نفسها لسبب تافه وهو أنه على أثر موت بومند ادعت أخته حق الملك ، وكان برتران صاحب مدينة «جبليت» وعد بمساعدة قلاوون بشرط أن تكون له المدينة ويكون تابعاً له ، إلا أن أخت بومند لما رأت ذلك تنازلت عن حقها في العرش فظن برتران أنه أصبح حراً من عهوده لقلاوون ، فاتخذ هذه الفرصة ذريعة له لإعلان الحرب التي كان يرجوها منذ زمن طويل ، وكانت مدينة طرابلس في ذلك الحين مدينة عظيمة منيعة آهلة بالصليبيين ، ومع ما قدمته قبرص من المساعدة لها سقطت بعد حصار شهر ودمرت المدينة في مذبحة هائلة وسيق ألوف من النساء والأطفال سبايا ، ومع هذا فالفرسان والبارونات تلقوا هجمات على أمكنتهم الباقية على الساحل بشن غارات كثيرة وبخرق حرمة الهدنة حتى لم

يبقَ في أيديهم في آخر الأمر غير عكا وحدها فكانت المركز الذي احتمى فيه كل الصليبيين ، ثم حوصرت عندئذٍ ، ولقد كانت هذه المدينة من العظم كما وصفها ولكن[1] (في تاريخه الألماني الذي يقع في ثمانية مجلدات) وصفاً دقيقاً جميلاً ويُعلم منه أنها مدينة كبيرة فخمة مترفة هرع إليها الفرنجة من كل حدب وصوب إذ كانت آخر مأوى لهم ، ومع أنهم كلهم صليبيون ، لم يزالوا كما كانوا ، فريسة للإنقسام والتحاسد والشره والخلاعة حتى في النزع الأخير . ولما كان زعيم الهيكلين يحرص على إنقاذ هذه المدينة العظيمة ذهب إلى السلطان وحصل منه على شروط مسالمة ، ولكن صنيعه لم يرق القواد ، فخلعوه وردوه خائباً إلى قصر السلطان .

ولم يمضِ طويل وقت حتى ضج بعض تجار المسلمين من سلب المسيحيين ونهبهم لهم بالقرب من عكا . فاتخذ المسلمون ذلك ذريعة لإسعار نار الحرب على هذه المدينة التي هي آخر مأوى للصليبيين ، على أن مهاجمة المدينة لم ترق أمراء المماليك الذين كانوا يخشون منعة حصونها ولكن السلطان حصل على فتوى من القضاة تنص على أن ما لحق التجار من الإهانات مبرر كاف لإعلان الجهاد على الصليبيين ، فأعلنه وزحف بقوة عظيمة لحصار القلعة ولكن المنية عاجلت قلاوون في طريقه فترك ذلك العمل لخلفه .

وفي عام ١٢٩٠ تولى الخليل بن قلاوون عرش والده واقتدى به في إصرار ، على إخراج الصليبيين كافة من آسيا فاحتفل عام ١٢٩١ للعمل على تنفيذ هذا العزم بإقامة حفلة ذكر حول قبر والده وأمر فاستدعى جميع أمراء سوريا إلى دمشق حيث اجتمع الأمراء وطلب منهم أن يمدوه بجميع وسائل النقل اللازمة لنقل جيوشه إلى أسوار عكاء .

(١) Geschichte der Kreugziige nach Morgen Iandishen und Abendladischen Berichten. 1807 - 1832.

ويعتبر هذا الكتاب خير ما كتب في هذا الموضوع وهو دائرة معارف تاريخية جليلة الشأن وحبذا لو عُنيت الحكومة بترجمته .

ولما كملت معداته هاجم المدينة وحاصر أسوارها ونصب حولها اثنين وتسعين منجنيقاً ، فدافع جنودها دفاع المستميت ، وأرسلت قبرص نجدة بحرية لشد أزر الحامية ولكن نيران الحسد والضغينة والحقد التي كانت تغلي في قلوب الصليبيين فتت من عضد حماسة رجال الحامية وفرقت بين قلوبهم فهرب عدد كبير من سفن الأسطول تاركين المدينة المحاصرة وشأنها ، فسقطت في أيدي الخليل ورجاله بعد حصار دام ٤٣ يوماً .

وأعقب سقوط هذه المدينة في أيدي المصريين مذابح تقشعر لهولها الأبدان إذ أوقع الجنود برجال الحامية جميعهم فأفنوهم عن بكرة أبيهم . وأخذ الأطفال ليكونوا مادة لجيش المماليك وليكون منهم بعد مدة جنوداً وأمراء مصريين . وأما النساء فبيعوا بيع السلع والإماء في أسواق القاهرة .

وقد بالغ الخليل في الفتك بهم ، حتى الفرسان الذين وعدوا بأن يفسح لهم طريق النجاة أمر السلطان بشنقهم جميعاً بدون شفقة ويعزي ذلك إلى أن المصريين لما دخلوا الحصن أساؤا إلى النساء . فأوصد الصليبيون خلفهم الأبواب وذبحوا بعضاً من رجالهم المعتدين[١] .

وعلى أثر ذلك أحرقت المدينة بعد أن مكثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة[٢] وبعدئذٍ ترك الصليبيون كل ما بقي في أيديهم ، ولاقى أهل بيروت من العذاب أكثر ما لاقاه أهل عكا .

ومن ثم عاد الخليل بن قلاوون إلى عاصمة ملكه حيث استقبل خير استقبال وأقيم له مهرجان فخم سار فيه موكبه وخلفه الأسرى يحملون الأعلام الصليبية المنكسة وخلفهم جنود المماليك تحمل على الحراب رؤوس الأمراء الصليبيين .

---

(١) راجع تاريخ (ولكن) السالف الذكر جزء ٨ صفحة ٧٦٥ ـ وراجع أيضاً تاريخ ويل ملاحظة ٠٤ ص ١٨١ .

(٢) راجع تاريخ أبي الفداء .

وهكذا ختمت الحروب الصليبية سنة ١٢٩١ ، بعد أن مضى عليها قرنان من الزمان كانت تشتد فيها وطأتها وتخف ، وقد حدثت بعدئذٍ غارتان بسيطتان إحداها قام بها السلطان الناصر في مارس سنة ١٣٠٢ ضد الفرسان الهيكليين الذين كانوا يحتلون جزيرة أرواد فاستولى على الجزيرة وطردهم منها والأخرى ردَّ بها يلبغا سنة ١٣٦٨ جموع القياصرة التي حاولت الإغارة على مصر .

وهكذا انتهت هذه الحروب وقد ختم المؤرخ «جيون» المؤرخ الإنجليزي وصف الحروب الصليبية بقوله «ساد سكون محزن على امتداد ذلك الساحل الذي ظل أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقعة سيوف نضال العالم[(١)] .

* * *

بقي أن نقول كلمة عن نتيجة هذه الحروب الصليبية التي أيقظت العالم العربي من سباته العميق . وهي التي كان لها فضل السبق في جميع الممالك الأوربية المختلفة على عمل مشترك كان الغرض منه عظيماً ولكن أُسيء تنفيذه فعلمت شعوب أوربا وملوكها الاتحاد من أجل غرض واحد وقوت مركز البابا في نزاعه مع الامبراطور ونشطت التجارة بين الشرق والغرب وصارت مصر وسوريا سوقاً تجارية بين الغرب والشرق . فزادت ثروة الحكومة والأهالي زيادة عظيمة ظهر أثرها فيما شاده سلاطين المماليك من الآثار . وبقي الأمر كذلك إلى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة والنهضة من الشرق إلى الغرب .

وكان نتيجة لهذه الحروب ظهور المدن في أوربا وخصوصاً المدن التجارية وشراء حريتها من الأشراف بالمال والتقليل من نفوذ الأشراف . وظهور الطبقات الوسطى وتقوية مركز الملوك في أوربا ، ومعنى هذا القضاء

---

(١) راجع تعريب في تاريخ دولة المماليك صفحة ٦٣ ليف سبر وليم موير .

على نظام الاقطاع وإزالة بعض الفوارق التي كانت تفرق بين الطبقات في أوربا . ومن أهم المدن التي نشأت في ذلك الوقت مدن ايطاليا المستقلة وكانت هذه المدن واسطة الاتصال بين الشرق والغرب فأدخلت إلى أوربا كثيراً من نفائس المصنوعات والمحصولات الشرقية .

وبدأ اهتمام الناس بأخبار الرحلات والاستكشاف وذلك على أثر ما حمله الصليبيون إلى بلادهم من خيرات وأخبار البلاد التي زاروها وكانت نتيجة ذلك أن ظهر الرحّالة «مركو بولو Marco Polo» في القرن الثالث عشر . والحروب الصليبية هي التي أوجدت في أوربا الميل إلى الشرق الذي كان من آثاره زيادة في المعارف الجغرافية والتاريخية عن الشعوب والبلدان ووسعت الأقطار من جهة اللغة وعادات وطبائع العالم الآسيوي .

ولكنها مع ذلك زادت الاضطهاد الديني وساعدت على القسوة وإراقة الدماء وبينما كان من المنتظر أن تقل ثقة الناس برجال الكنيسة الذين لم تصدق واحدة من وعودهم نجد ، وهذا من الغريب العاطفة الصليبية أتت بنتائج مخالفة لما كان منتظراً تماماً إذ جاءت بفظائع وقسوة محاكم التفتيش وأحكامها التي لا تقبل النقض ، ومكنت الأقدام السيادة البابوية وملأت خزائنها بالأموال .

ـ ٤ ـ

علاقة المماليك بالمغول التتار

سُمي المغول بالتتار خطأ لأن لفظ «التتر» جمع مفرده «تاتا» اسم لطائفة مغولية صارت أمة على يد جنكيز خان وانتشرت في الغرب لأنها كانت تؤلف طلائع الجند المغولي فترتب على ذلك انتقالها بالتدريج إلى غربي بلاد المغول واسم هذه الجهة عندهم «تركي» وهي مقر الأتراك فكان ينبغي أن يُسمى هذا الفرع من الجنس المغولي «المغولي التركي» أو بالاضافة إلى منازلهم الجغرافية «الأورال الطائي Ural-altaic» بدلاً من اسمهم الحالي «المغول التتر Mongolo-tatars» .

والمغول ذوو رؤوس عريضة ووجنات مرتفعة وبارزة بروزاً جانبياً ، وفك بارز قليلاً ، وأنف قصير جداً ومنبسط ، وحواجب منخفضة ومقوسة قليلاً ، وعيون صغيرة سوداء منحرفة وزواياتها الخارجية مرتفعة قليلاً .

هذه الأمة الآسيوية كانت مثار الرعب والخوف في قلوب جميع الأمم في ذلك العصر الذي نتكلم عنه فقد دانت لهم في أوائل عصر بيبرس عام ١٢٦٢ م دولة امتدت من نهر جيحون إلى المحيط الهندي ولا يزال حتى اليوم في الشرق كله اسمهم «الهون» صفة للعذاب المهلك . وكان الظاهر بيبرس في خوف ووجل شديد من جيوشهم التي كانت تطمح في ملك مصر وسوريا فدعاه ذلك إلى عقد محالفتين هجوميتين دفاعيتين احداهما بينه وبين «برخ» صاحب «قبجاق» عدو «أبغا» رئيس المغول إذ ذاك ، والأخرى مع

قيصر الدولة الرومانية عدو الحروب الصليبية التي أضرت ببلاده ضرراً بليغاً ، خصوصاً الحملة السادسة منها .

«وقد استحكمت عُرى المودة بين الظاهر وقيصر حتى أن بيبرس قبل بطريركاً مكانياً موفداً لمصر لمن يدين بهذا المذهب فيها . وبنى القيصر في عاصمة ملكه جامعاً للمسلمين ولم يقنع الظاهر بهذا فقط بل أرسل سفرائه ليطلب ود اسبانيا ونابلي والسلاجقة ، لا بل أرسل وفوده إلى كل مكان يجد فيه مساعدة ضد أعدائه العنيدين ، ومع كل هذه الاستعدادات الهائلة لم تكن لدى المغول القوة الكافية لغزو مصر في ذلك الحين ، إذ كانت مشاغلهم الداخلية تشغلهم عن كل شيء عداها .

بقيت العلاقة هكذا علاقة رعب واحتياط حتى عام ١٢٧٣ م عندما تخلص بيبرس من جميع مخاوفه وضمن مساعدة جميع حلفائه ، فقام بجيوشه كلها وهو على رأسها إلى مهاجمة المغول الذين كانوا قد بدأوا يزحفون غرباً ، فسار خلفهم حتى لحقهم عند نهر الفرات وأصلاهم بسيوفه وبنادقه في واقعة هائلة ، شتت فيها شملهم وطردهم من البلاد تماماً .

وقضى بعد ذلك السنتين التاليتين ١٢٧٤ ـ ١٢٧٥ م في تعقب جيوشهم في آسيا الصغرى وقد كللت جميع أعماله في طول تلك المدة بالنجاح .

وفي العام التالي ١٢٧٦ م قام بيبرس بأهم غزواته وآخرها وسببها أنه أرسل جيشاً عظيماً لمعاضدة السلاجقة في أرمنيا ضد أحد نواب المغول الذين قهرهم ! فسارت تلك الحملة وقامت بما طلب منها إلا أنها لم تحقق آمال بيبرس في توطيد سلطان مصر في تلك الجهات ، فقام في عام ١٢٧٧ بجيش عرمرم قاصداً كليكيا فانقضَّ على حاميتها وبددها شر تبديد ، ودخل المدينة دخول الظافر القاهر وجموع الأهلين تحيط بموكبه . وبعد أن قضى أياماً سعيدة في المدينة رأى بنظره العسكري الثاقب أن مركزه بها مهدد ، فغادر المدينة بطريق النهر الأزرق إلى مدينة «حارم» وقضى بها مدة طويلة لعلمه بقوة مركزه الحربي فيها .

وفي تلك الأثناء كانت الأخبار قد وصلت إلى ابغا من هزيمة جنده فعاد بسرعة على رأس جيش قوي ليثأر لهزيمة جيشه ، ويعيد نفوذ المغول على تلك الأصقاع فوجد أن بيبرس قد غادر المدينة فانتقم من أهلها شر انتقام وأعمل فيهم السيف والنار حتى أن بعض المؤرخين يقرر عدد القتلى بمائتي ألف وبعضهم أبلغه إلى خمسمائة ألف . فلو سلّمنا فرضاً بهذه المبالغات لا يسعنا إلا القول بأن المذبحة كانت شنيعة وهائلة ، وعلى كل حال فإن جرم هذه المذبحة يقع على كاهلي بيبرس الذي خان المدينة ، وابغا الذي استباح دماء أهلها ، وقد سُرَّ بيبرس أن عدوه الذي كان يخاف منه على ملكه في سوريا قد حوّل أنظاره عنها إلى الشمال .

وفي عهد قلاوون في عام ١٢٨٠ م اجتاحت جنود المغول البلاد السورية مرة أخرى واقترفت من الآثام والجرائم ما جعل السوريين يضجون من هؤلاء ويتركون البلاد هاربين من أمام هذه القبائل البربرية ، وقد هاجر أكثر أهالي دمشق إلى حدود مصر نفسها ، أما قلاوون فإنه جهز جيشاً عظيماً وسار للقائهم من القاهرة فالتحم معهم في عدة ملاحم كانت نتيجتها سجالاً إذ لم يتمكن أحدهما من تشتيت شمل الجيش الآخر . وخشي قلاوون اتحاد المغول والصليبيين ضده ، فهادن الصليبيين لمدة عشرة أعوام ، وأبرم محالفة مع ملك طرابلس .

وفي العام التالي سنة ١٢٨١ زار قلاوون سوريا ليحتفل بجنازة السلطان السعيد الذي مات في الكرك ، وفي أثناء مكثه في سوريا ، هاجم المغول شمال سوريا مجتاحين كل البلاد التي أمامهم بقيادة «ابغا» وأخيه «منكوتمر» فبذل قلاوون كل ما يستطيع من قوة لجمع جيش قوى لمقابلة عدوه فجمع أكثره من المصريين والسوريين والقبائل التركمانية الخاضعة لحكم مصر ، فقابل المغول عند حمص في جيش ضخم ثلثه من أهل جورجيا والأرمن والإغريق ، ودارت بينهم المعركة فكان النصر في جانب المغول أولاً ، فاستقلّ قلاوون ومماليكه بربوة مجاورة وداوموا القتال رغم

الانخذال ، ولم يلبث المغول أن أضاعوا فوزهم بتسرعهم بترك الميدان نحو حمص لجمع الأسلاب فهاجم قلاوون بعد أن جمع شُتات جيشه مؤخرة جيشهم وأشبعهم تقتيلاً ، فكبا جواد منكوتمر به فسقط عنه وجُرح ، ثم لم يلبث أن مات كمداً ، وتبعه أبغا حزناً أيضاً على خيبته أما الجيش المغولي فقد باد أكثره .

«ويعتبر انتصار قلاوون هذا ، من أعظم الحوادث في تاريخ مصر والشرق إذ لو كان الانتصار في جانب المغول لكان تغير تاريخ مصر كله تغيراً كلياً ، وكانت ميول «أبغا» المسيحية أثرت في مصير مصر وسوريا ، إذ بينما كان المصريون يحمون الخلافة الإسلامية كان أبغا لا يتنازل عن اعتقاده المسيحي ولا يسمح لرعاياه باعتناق غيره . والواقع أن أبغا استمر على إرسال بعوثه إلى البابا وملوك العالم المسيحي . (١٢٦٧ م ـ ١٢٧٦ م) طول مدة حكمه ليستفزهم لمساعدته ، بإرسال حملات صليبية على مصر ، ليقضي بها على ملك المماليك .

«ولما مات «أبغا» استولى على عرشه أخوه واعتنق الإسلام وتسمَّى بأحمد ودارت المكاتبات بينه وبين قلاوون ، إلا أن ابن أخيه «أرغون» هجم عليه وقتله فتغيرت سياسة المغول تبعاً لذلك لأن هذا الملك الجديد كان مثل والده ينزع للدين المسيحي ، وقد حذا حذوه في إرسال البعوث إلى البابا عارضاً عليه أن يضع تحت تصرفه جميع أرزاق دولته وأن يمنحه ملك سوريا ومصر إذا تمَّ له فتحهما ، في مقابل أن يعضده بجنده لاكتساح المصريين من سوريا ، وبلغت به الرغبة في ترغيب البابا أن أعلن أنه على أثر سقوط بيت المقدس ، يتنصَّر هو وجميع جيشه ولكن البابا كان منهمكاً بمشاغله في أوربا فلم تسفر مفاوضات المغول عن نتيجة وحبطت كل المساعي التي بذلوها ، فلم يحاولوا أن يثأروا لأنفسهم من هزيمة حمص بل عادت العلائق الحُبية بين الدولتين ، وكان أرغون هذا يعطف على المسيحيين واليهود كثيراً ، وقد عيَّن يهوديا في وظيفة عالية في مدينة بغداد . وفي سجلات

الإرساليات المسيحية ثناء عاطر على حكم أرغون الذي استقبل المبشرين المسيحيين مقابلة حسنة في بلاد الفرس .

ومما يجب ذكره أن رسالتين بخط أرغون وايلجيتو محفوظتان إلى الآن وهما مرسلتان إلى فيليب الجميل . ومراسلات أمراء المغول هذه مع البابوات وحكومات أوربا لها أهمية عظيمة للرجوع إليها كمراجع لا تقبل النقض ، وكان أبغا هذا متزوجاً من زوج إغريقية وهي بنت غير شرعية للقيصر .

وبعد موت أرغون ، اعتنقت أسرة المغول الديانة الإسلامية فتحسنت العلائق بينهم وبين مصر ودارت بينهما مكاتبات المودة حيناً طويلاً .

«وفي عام ١٢٩٢ م في عهد السلطان خليل بن قلاوون ولم يبقَ ما يشغل هذا السلطان ، في داخلية بلاده ، فوجه كل قواه ليسحق قوة المغول الذين كانوا ولا يزالون شوكة في جنب مصر ، فأعدَّ الخليل عدته للقيام بحملة شديدة عليهم ، ولكنه قبل أن يبدأ السير ، صلَّى بالناس في قبة والده ليثير حميتهم الدينية للجهاد ، ويبدأ الزحف مع جنوده المماليك من حلب إلى قلعة الروم ففتحها ، ولما سقطت في يده أرسل منشوراً إلى جميع قواده بأنه قد غيَّر اسم قلعة الروم باسم «قلعة المسلمين» وكتب هذا المنشور بلهجة كلها فخر خاص بالمماليك قائلاً فيه أنه قد كتب له أن يخضع الشرق لسلطانه من مشرق الشمس إلى مغربها ، ولكنه مع ذلك لما ظهر له المغول ، تراجع بجنده تاركاً القلعة التي غيَّر اسمها .

توطدت دعائم السلام ما بين المماليك والمغول بانسحاب خليل من الميدان حتى عام ١٢٩٤ عندما خرجت قبيلة مغولية تُدعى «العويراتية» فَّارة من وجه المغول ملتجئة إلى أعدائهم المصريين ، ولما كان السلطان الجالس على العرش في مصر إذ ذاك هو «كتبغا» ينتسب نفسه إلى هذه القبيلة ، لسوء حظه ، إذ أنه بعد نزول هذه القبيلة وأقطاعها أرضاً في سوريا كرهها الناس

لطبائعها الوثنية رغم إسلام أكثرية أفرادهم ، وذلك لأكلهم لحوم الخيل[1] ، وكان عدد أفراد هذه القبيلة حوالي ١٨٠٠ نسمة ، ذكر المقريزي أن بعض هؤلاء التعسين قطعت أيديهم وأرجلهم وألسنتهم ، وعلق بعضهم على أبواب المدينة ، وقد جرى ذلك ، على نحو ثلثمائة نسمة لكراهية الناس لهم .

وبعد خمس سنوات في يناير سنة ١٢٩٩ م بعث السلطان أحد أمرائه المدعو «قبجاق» على رأس جيش قوي إلى حلب حين وصلت إلى مسامعه إشاعة زحف المغول على سوريا ، ولكنه في الواقع كان الغرض من هذه الحملة هو قتل «قبجاق» الذي أرسل لاجين أوامر سرية مع رسول يحتم فيها أن يدس له السُم ويقتله هو وأصحابه مهما كلفه الأمر ولما شعر قبجاق وبطانته بهذه النية ، تخطًى الحدود المصرية وسلَّم جيشه إلى أعداء مصر المغول فأكرم «غازان» ملكهم وفادته ، وأغروه بالمال والرجال للهجوم على سورية .

كان وجود «قبجاق» هذا في بلاد المغول ، داعية لاستعجال المغول في الهجوم على مصر ومعهم هذا الجاسوس المصري ، فإذا أضفنا رغبة قبجاق هذا للانتقام من مصر إلى العداوة القديمة العهد بين مصر والمغول والتي بدأت أن تستيقظ ، وإلى أيضاً إكرام مصر لمن فرَّ إليها من عُصاة المغول ، علمنا السبب في الحملة القديمة التي قام بها المغول مغيرين على الحدود المصرية في خريف عام ١٢٩٩ م ، فاجتاحت الجنود المغولية البلاد أمامها بينما المصريون كانوا لا يزالون لم يستعدوا للسير للحملة ، ومما زاد المماليك عطلة في الطريق تأخرهم حيناً للقضاء على المشاغبين من المماليك والعويراتية السالفي الذكر .

وبعد أن تخلص المماليك من المشاغبين ، جدوا للقاء المغول ، وكان «غازان» المغولي قد عبر نهر الفرات مع جيش مكوَّن من نحو مائة ألف مقاتل ، فالتقى الجيشان عند «سلمية» بجوار حمص ، وكان الجيش المصري

(١) راجع تاريخ أبي الفداء ص٢٣ ص٢٤ .

نحو ثلاثين ألف مقاتل فدحر وولت جنودة فارَّة ، تاركة ميدان القتال ، فانفتح الطريق بذلك إلى دمشق ، فهجرها أكثر أهلها ، وغادرتها الحامية المصرية ، في ٣٠ ديسمبر سنة ١٢٩٩ م ، غير أن غازان عند ما قارب دمشق خرج إليه وفد من أهالي وعلماء المدينة فأصدر أمره بتأمين السكان وعدم مساسهم بسوء ، وأصدر عهداً قُرِىء في الجامع الأموي يكفل حماية الأهالي والسكان من جميع الأديان ، ويعد بحكومة عادلة في جميع المملكة المصرية إذا سلَّم الآهالي البلاد بدون حرب ، وقد ذكر النويري في تاريخه هذا العهد كاملاً ، وفيه كثير من الآيات القرآنية ، وقذف في حكومة المماليك ، وفي تأمينه لأهل الذمة اقتبس من كلام الإمام ما معناه إذا دفع أهل الكتاب ما يُفرض عليهم من الضرائب كان لهم ما لغيرهم وعليهم ما على المسلمين ، وبالرغم من نجاة دمشق بهذه الطريقة كانت كل البلاد السورية ، قد اجتاحتها وضربتها الجنود المغولية إلا أن جميع القلاع بقيت بأيدي حاميتها المصرية إذ أنه كان من المتبع ألا تكون القلاع في سورية تحت حكام المدينة بل تحت قوَّاد مستقلين وقد نصب غازان على سوريا نائباً مغولياً ، وعيَّن «قبجاق» مكافأة له على خدماته للمغول وخيانته للمصريين حاكماً لدمشق ، غير أن غازان اكتفى بهذه الفتوح وعاد إلى مقر ملكه بعد أن وزع منشوراً على الأهالي والحكام في فبراير سنة ١٣٠٠ مهدداً فيه بالعودة إذا أبدت البلاد أي إشارة من إشارات العصيان .

وفرَّت الجنود المصرية في طريقها وهي عائدة إلى مصر من أمام الأعداء ، ومرت بدمشق في أثناء سيرها فعاثت فيها فساداً ، وسرعان ما وصل السلطان الطفل إلى عاصمة ملكه حتى بدأ يجمع الضرائب ويُثقل كاهل الأهالي بما فرضه عليهم ليجمع جيشاً جديداً يمحو به عار الهزيمة ، وفي مارس من السنة نفسها قام جيش ضخم من مصر ليُنقذ سوريا من أيدي المغول ولما كان هؤلاء قد جلوا عن البلاد فقد دخلها المصريون بدون قتال ، وعفا السلطان عن قبجاق وأنصاره وعادوا إلى مصر معه وأما السلطان فقد أذاق سوريا العلقم ، وانتقم من أهلها الذين والوا المغول وفرض عليهم

أثقل الضرائب ، فبقيت سوريا بين ويلين ويل المماليك وعبثهم بالبلاد وويل الخوف من عودة غازان وجنده .

وقد بدأ فعلاً غازان الهجوم على سوريا في شتاء سنة ١٣٠١ ، وهاجم انطاكية ولكنه جلا عنها لشدة البرد ، ولعدم مساعدة الدول الأوربية له التي كان يأمل في مساعدتها حتى تلك اللحظة ! فإن رسل المغول كانت تفد حتى عام سنة ١٣٠٢ م إلى بلاط انجلترا[١] وفرنسا . ولما سمع بذلك نساء جنوه أخذن في التأهب للاشتراك في الحرب لولا فشل المشروع ولا يزال رد الملك إدوارد المؤرخ ١٢ مارس سنة ١٣٠٢ م على هذه الرسالة محفوظاً حتى الآن .

ولما علم غازان أنه لا فائدة من انتظار مؤازرة الغربيين له رأى أن يهادن مصر فأرسل بعثاً معه رسالة إلى مصر يعيب فيها على السلطان مهاجمة أملاكه بدون سبب ويهدده فيها إن لم يكف عن قتاله فيعود إلى سوريا ليخربها فردَّ عليه الناصر رداً مماثلاً لرسالته وعاب فيها عليه كونه من سلالة وثنية وأنه يسعى للتحالف مع الصليبيين أعداء الخلافة الإسلامية وختم رده بأنه مستعد للتهادن معه إذا ترك كبرياءه وغطرسته . وقد أورد «ويل» في تاريخه نص هذه الرسالة وهي تقع في تسع صفحات وبها كثير من الآيات القرآنية ، ولما وصل الرد إلى أيدي غازان استشاط غضباً وعقد العزم على العودة لمهاجمة سوريا .

وقد برَّ غازان بعزمه فقام في عام ١٣٠٣ م بجموع هائلة من المغول وأهل جورجيا وبعض الأرمن يبلغ عددهم مائة ألف مقاتل لمقابلة الناصر وجيشه ، ولكن غازان عدل في آخر لحظة عن قيادة الحملة وعاد إلى بلاده تاركاً الرياسة «القطلو شاه» وقد تقدم الناصر أيضاً بجيشه نحو دمشق التي كان قد هجرها جميع أهلها خوفاً من هجوم المغول .

(١) راجع M. Remusat in Men. Laead Vol 7 Page 388 .

وقد التقى الجيشان في موقعة هائلة بجوار دمشق في سهل «مرج الصفر» كاد المماليك أن يُقضى عليهم فيها نهائياً لولا ثبات الناصر وفرسانه الذين اكتسحوا من أمامه جموع المغول ففروا تاركين الميدان وبذا أخلى الناصر سوريا نهائياً من جند المغول . ومما يجب ذكره إن اثنين من كبار المؤرخين الثقات الذين يُعتمد عليهم حضرا بنفسيهما هذه الوقعة واشتركا فيها وهما النويري وأبو الفداء .

بعد أن نال الناصر هذا النصر الباهر أرسل إلى غازان وهو ثمل بالفوز رسالة كلها تيه وإعجاب تشبه تلك التي ورد ذكرها والتي أرسلها بيبرس إلى بومند (راجع علاقة المماليك بالصليبيين) وتوعده باجتياح آسيا كلها إن لم يخلد للسكينة . ولما نوى الناصر العودة للقاهرة فرشت له الطريق من دمشق إلى عاصمة ملكه بالبسط حتى أن بعض المؤرخين يجزم أن حافري جواد الناصر لم تمسا الأرض في طريق عودته .

ودخل القاهرة في مشهد حافل لم يرَ القطر مثله ، ويقول المقريزي أن الأفراح دامت حتى أن الناس تمنوا لو يموتون في وسط تلك المسرات حتى لا يخرجوا منها أبداً .

وأما في بلاد فارس ، فقد دامت الأحزان واستمرت مدة طويلة حتى أن غازان أمضه الحزن فاعتزل العالم ثم خرج من عزلته متوعداً بإعداد حملة يوجهها إلى قلب مصر ولكنه مات قبل أن يبدأ بمشروعه فقُبر معه . ويجب هنا أن نقول أنه لولا مشاغله الداخلية التي كانت تستحوذ على أكثر جهوده لما تمكن الناصر أن يهزمه مرة واحدة ، فالاضطرابات الداخلية أنقذت مصر والغرب من هجمات المغول .

* * *

كان غازان هذا مسلماً سُنياً ، ولما مات خلفه على العرش «أويلجيتو» وكان هذا شيعياً متغلغلاً في مذهبهم متعصباً لهم جداً (وكانت أمه مسيحية وكان هو أيضاً يتظاهر بذلك) وكان كل همه موجهاً إلى نشر مذهبه في كل

مكان خصوصاً في سوريا وكان كاسلافه يطمع في الاستيلاء على مصر فأرسل الوفود إلى جميع أنحاء أوربا يطلب مساعدة ملوكها فلم تسفر جميع مفاوضاته عن فائدة وفي دار سجلات باريس رسالة منه إلى فيليب الجميل يرجع تاريخها إلى مايو سنة ١٣٠٥ م وسافر بعث آخر إلى انجلترا ولكن ادوارد الثاني تأخر في الاجابة على طلبهم حتى عام ١٣٠٧ م وأظهر استعداده لمعاضدته ضد المماليك ، وأما البعث الذي سافر إلى قصر البابا كليمنت الخامس فلم يلقَ نجاحاً ـ وقد كانت جميع خطاباته هذه مُحررة بكيفية تُثبت أنه مسيحي ويميل إلى نصرة هذا الدين ويطلب مساعدة أوربا للقضاء على مصر ولكن الحقيقة على خلاف ذلك فإن «أويلجيتو» ما كان قط مسيحياً بل كان يتظاهر بذلك أمام بلاط والدته المسيحية لأغراضه السياسية وبعد موت والدته أظهر تشيعه جهاراً . ومات أويلجيتو بدون أن يشتبك مع مصر وبدون أن يرى نتيجة لمفاوضاته الطويلة .

وخلفه على عرش المغول ابنه «أبو سعيد» وعاد إلى مذهب السنيين وكاد أن يفقد العرش قبل أن يثبت عليه لثورة قبائل الأزابكة عليه ومحاولتهم اجتياح مُلكه فاتحد مع أعدائه المصريين حتى يتفرغ لهؤلاء الأعداء الجُدد وقد قابل الناصر هذه الرغبة بالترحاب فعقد معه صلحاً واستمرت بينهما المودة زمناً طويلاً واعترف كل منهما براية الآخر في الحج ثم تزوج «أبي سعيد» بعد ذلك بابنة زعيم قبائل الأزابكة (وهم التتار الشماليون ومقر مُلكهم هرات) وكانت العلاقة بين الناصر وبينهم أيضاً علاقة ودية جداً .

ومات أبي سعيد سنة ١٣٣٦ فوجه الناصر أنظاره مرة أخرى إلى بلاد الفرس وكانت الفرصة سانحة له إذ أنه عقب وفاة أبي سعيد عمت الفوضى ربوع البلاد وانتشرت فيها انتشاراً مريعاً ، فأخذ الناصر بمناصرة «حسن الأكبر» على منافسه «حسن الأصغر» وأرسل أيضاً جيشاً لمعاضدته بشرط أن يعترف له بالسيادة على بغداد ، وعلى ذلك نقش اسم الناصر على السكة فيها وخطب له أيضاً في جوامعها إلا أن القدر شاء أن يصطلح الإخوان المتنافسان

ويتبوآ العرش سوياً فعادت جيوش الناصر قبيل وفاته بدون نتيجة وبذا قضى على تلك الآمال العظيمة .

وحدث في عام ١٣٦٤ م أن أساء الخان أويس امبراطور المغول معاملة حاكم بغداد فأراد هذا الانتقام منه فسلّم بغداد للسلطان شعبان حاكم مصر إذ ذاك واعترف به ملكاً عليها وضرب السكة باسمه وخطب له ، فأرسل أويس ، وفداً إلى مصر يشكو للسلطان من تعديه على أملاكه ويعاتبه على ذلك فأساء شعبان مقابلة الوفد ، فعاد الوفد إلى الخان وأخبره بذلك فثارت في نفسه النخوة وقام بجنده إلى بغداد وطرد منها جنود المصريين وصنيعتهم المغولي فرجعت بغداد إلى دولة المغول الشرقيين مرة أخرى ، وبقيت مصر مرتاحة من ذلك الحين من هجمات المغول حتى قيام تيمورلنك عام ١٣٩٨ م .

* * *

وفي نهاية عصر برقوق سلطان مصر قامت في بلاد المغول نهضة غريبة أدهشت العالم وذلك أن تيمورلنك[1] ابن وزير جنكيز خان ملك المغول ، قام بعد موت جنكيز هذا واستولى على العرش التتاري واكتسح دولتي المغول ووحدهما تحت حكمه واجتاح كل أواسط آسيا أمامه وزحف بجنوده من بلاد فارس حتى بغداد وطرد منها أحمد ابن أويس السالف الذكر وعرج شمالاً فخرب آسيا الصغرى إلى شواطىء بحر قزوين ، ولكنه لثوران المغول في فارس عاد إليها وقهر الثوار وأخضعهم لسلطانه وأقام في همذان هرماً من رؤوس قتلاه ، وعاد مرة أخرى إلى آسيا الصغرى لينتقم من بايزيد السلطان التركي لترحيبه بابن أويس الذي طرده من بغداد ، وإيذائه أمير «أرزبجان» فأرسل له تيمور إعلاناً بالحرب فيه كثير من الجمل الحماسية الشديدة اللهجة منها ما يأتي : «إن الحمامة قد تنازل النسر ، إن النحلة قد تهزأ بالفيل ،

(١) وُلد تيمورلنك عام ١٣٣٦ م .

وهذا تماماً مثل ما تعمله الآن بتصديك لفاتح الدنيا» وقد ذكر جبون جزءاً من هذا الانذار من الفصل الخامس والستين من كتابه ، فردَّ عليه «بايزيد» بمثل أسلوبه ولكن لما هاجم تيمور آسيا الصغرى وهدم أسوار سوارس ترك بايزيد الميدان إلى أوروبا وحاصر القسطنطينية ، فلم يتقابل الجيشان فعاد تيمور بدلاً من أن يزحف شمالاً ، وينزل عقابه بالأتراك ، نزل جنوباً إلى سوريا وصبَّ عليها جام غضبه ، ولو كان في هذه اللحظة اتحد برقوق مع بايزيد عليه لهزماه وأرجعاه إلى عقر داره ولكنهما أغفلا هذه الفرصة وكان تيمور يقول ، إن جيوش المماليك خير جنود ذلك العصر ولكن قيادتها كانت سيئة للغاية بعكس بايزيد الذي كان يحسن القيادة ولكن ينقصه الجند المدربون .

عاد بعد ذلك تيمور إلى الشرق فسلب بغداد وهدمها ، وأمضى الشتاء في تبريز وعاد في الصيف إلى آسيا الصغرى ، وطلب أن يعقد صلحاً مع بايزيد فرفض هذا شروطه فهاجمه بجيشه الضخم فاضطر بايزيد أن يقابله بجوار أنقره ولم تلبث جنده طويلاً أمام جند المغول فقد تركوا الميدان وفروا وأسر تيمور «بايزيداً» وبعض المؤرخين حين يذكرون أن تيموراً وضعه في قفص من الحديد[1] ولكنني أرى مع جبون وويل إن هذا القفص ما هو إلا محفة مُحاطة ببعض القبضان الحديدية محافظة عليه . وبذا فرغ من أمر الأتراك وبعد أن خلا له الجو من جهتهم وجَّه جميع قواه وأثار العاصفة نحو حكومة المماليك ولكنه عدل عن هذا الرأي لثورة شبت ضده في بلاد فارس فعاد لإطفائها ونجت بذلك سوريا وقتياً . ومع أن خسارة برقوق كانت طفيفة إلا أن أرمنيا التي كانت خاضعة لحكمه نهبت أكثر مدنها وقراها في عودة تيمور .

ذكرنا أن تيمور عاد إلى الشرق ، واستولى على بغداد ومن هناك أرسل رسالة شديدة إلى برقوق مع رسول خاص فخشي برقوق أن يكون هذا الرسول جاسوساً عليه فقتله ، واستقبل في مصر «أحمد ابن أويس» صاحب بغداد

---

(١) راجع جيون في صفحة ٩٦ من المجلد الخامس وتراجع ويل أيضاً .

بالترحاب الشديد واغدق عليه النعم وتزوج برقوق من ابنة أخيه ، ثم أخذ يعد العدة لحماية حدوده السورية من هجمات المغول وبينما هو منهمك فيها وصلت رسالة أخرى من تيمور مماثلة لتلك التي أرسلها هولاكو للناصر والتي سبق ذكرها ، وفي هذه الرسالة ، يتوعد تيمور «الذي أرسله الله لينتقم من الطغاة الذين على الأرض» برقوق القاتل الشرير الذي قتل رسوله بالهلاك العاجل .

فلما علم برقوق أن الحرب لا محالة واقعة استعد بجيش قوي قام به من القاهرة إلى سوريا طالباً بغداد ليجلس أحمد على عرشه ، وبينما هو في طريقه علم أن تيمور سار شمالاً قاصداً أوربا فوجد أنه خير له أن يفوز من الغنيمة بالإياب فعاد إلى مصر حيث قضى نحبه عام ١٣٩٨ م قبل أن يعود تيمور من الغرب .

تولّى ملك مصر بعد برقوق ابنة فرج ، وغاب تيمور في غزوته في الشمال عاماً كاملاً وعاد في خريف سنة ١٣٩٩ م بجيوشه المظفرة وحطّ على سوريا كالبازي الذي ينزل على فريسته . فتجمهرت جيوش الأمراء المماليك السوريين في حلب ليمنعوا تقدمه فانقضّ عليهم انقضاض العاصفة وأعمل فيهم سيف سخطه فقتل أكثرهم وهرب الباقون إلى دمشق واحتموا بها . وخلى الطريق أمام تيمور فأخذ يتنقل في سوريا مكتسحاً أمامه كل ما يقابله . وفي ذلك الحين وصل جيش مصري إلى دمشق ليحمي المدينة من انتقام تيمور فرابط الجيشان أمام بعضهما وبدأت بينهما المناوشات التي انتصر فيها فرج المصري بجيشه انتصاراً باهراً على تيمور وعند ذلك طلب تيمور صلحاً عادلاً بأن تُسلم له مطالبه وهي تنحصر في تسليم «اطلمش» زعيم قبائل «وان» الهارب من جوره والاعتراف له بسيادة الخان «إيل الخان» بدلاً منه فقبلت مطالبه فبدأ ينسحب بجيوشه ولكن المماليك تركوه ينسحب بغير انتظام ثم انقضوا على مؤخرة جيشه ولكن تيمور عاد بفرسانه وحصدهم وأفنى عدداً كبيراً منهم . وعند ذلك صممّ تيمور على البقاء بمعسكره حول المدينة للانتقام منها ومن المماليك ، وأما الجيش المصري فقد تفشت فيه عقب هذه

الموقعة روح الاستياء والخيانة فقامت طائفة كبيرة ضد فرج سلطانهم يطلبون عزله ، وعادوا للقاهرة خلسة ليستولوا على القلعة الخالية من الجند ، فلما سمع بذلك فرج عاد مسرعاً لعاصمة ملكه بمماليكه الخاصة تاركاً ميدان القتال ! فاستولى تيمور على دمشق وقلعتها وأسلمها إلى النار . ولما كانت المدينة (دمشق) تعتبر مركز الخلافة الأموية فقد وجد هذا الشيعي المتعصب سبباً قوياً لديه يبرر المصائب التي أنزلها على المدينة وأهلها .

وبعد أن وصل فرج إلى عاصمة مُلكه أرسل رسالة شديدة إلى تيمور يهدده فيها بالعودة إليه وطرده من سوريا ويخبره فيها أنه لم يترك له الميدان خوفاً منه وأنه ليهزأ به ويقواته فكانت هذه الرسالة مذكية لحب الانتقام الذي يملأ نفس تيمور فصبَّ على سوريا كلها من شمالها لجنوبها جام غضبه وحمل معه إلى عاصمة مُلكه (سمرقند) جميع صنّاع وعمّال دمشق وكان في طريق عودته في يوليه سنة ١٤٠١ م ينهب جميع البلاد التي يقابلها في خط سيره ، ومرَّ ببغداد وكانت قد عادت لأحمد بن أويس فنهبها وحرقها وذبح من أهلها عدداً وفيراً صنع من جثثهم عشرين برجاً ، ثم قام بغزوته الثانية على الأناضول عام سنة ١٤٠١ التي سبق ذكرها والتي أسر فيها بايزيد كما أسلفنا .

وفي عام سنة ١٤٠٢ م أرسل إنذاراً لفرج يطلب فيه طلباته السابقة وزاد عليها قتل «أحمد بن أويس» و «قره يوسف» عدويه الهاربين من أمام وجهه ولما كان فرج يخشى عودته مرة أخرى فقد قبل جميع طلباته وأجازها ولم يكتفِ بذلك فقط بل أرسل له أيضاً هدايا غالية تقبلها تيمور بسرور وأرسل بدلاً منها فيلا أبيض وأحجاراً كريمة وثياباً فاخرة ، ومات تيمورلنك عام ١٤٠٥ ويقيت العلاقة ودية بين مصر والمغول حتى عام ١٤٣١ م ، عندما قام على عرش المغول «الشاه روخ» وكان يكره سلطان مصر «برسباي» لتقدم راياته على راية المغول في الحج فطلب من السلطان أن يكون له وحده الحق في تقديم الكسوة للكعبة فرفض السلطان طلبه بسخرية ، فأراد الانتقام

منه ، فاتفق مع أحد أمراء الحدود المصرية المدعو «قره يلك» على برسباي وأمده بالذخيرة على أن يهاجم برجاله الحدود المصرية ، فقام برسباي بحملة تأديبية أدَّب بها رجال قره يلك وحاصر آخر معقل لهم مدينة «آمد» ثم صبَّ عليها جام غضبه ونهبها وعقد معاهدة مع أولاد قرة قرروا فيها خضوعهم لسلطان مصر . ولما علم الشاه بفساد تدبيره أرسل أحد الأمراء المصريين الهاربين من برسباي المدعو «جاني بلط» وأمده بالذخيرة والرجال ليقلق راحة برسباي ، ورغم معاضدة الشاه لهذا الخارج فقد قضى على ثورته وهي في المهد . وفي العام التالي كشف الشاه عن نقابه وأرسل لبرسباي خطاباً شديد اللهجة يطلب منه إسدال كسوته على الكعبة فأجابه برسباي على رسالته برد كله استهزاء ، ولم يكتفِ الشاه بذلك بل أرسل رسولاً آخر ومعه حلة ملكية مغولية وأمر منه يحتم فيه على برسباي أن يلبس الحلة كتابع للشاه ، فمزقها السلطان وأغرق الرسول في بركة ماء حتى كاد يغرق ثم أخرجه منها وأرسله لمولاه وطلب منه أن يبلغه أن موعدهم العام التالي لينتقم لإهانة سفيره وإذا لم يحرك ساكناً لما أصابه فسيعد من الآن جباناً رعديداً ومما يجب ذكره هنا أن هذا الرسول قبل مغادرته القاهرة حصل على نسخة من تاريخ المقريزي ونسخة أخرى من البخاري. . . . ولكي يتمكن برسباي من أن يحفظ حدوده من الإغارة التي أصبحت منتظرة أرسل جيشاً ضخماً استحوذ على نصف آسيا الصغرى الشرقي وكان النصف الآخر تحت حكم العثمانيين الذين كانوا هم الآخرين في عداوة مستمرة مع المغول والذين بادروا بعقد معاهدة صداقة مع المصريين ضدهم في عهد مراد الأول سنة ١٤٣٧ وفي يونيه سنة ١٤٣٨ م قامت الجيوش المصرية بقيادة حاكم دمشق وطهرت الحدود المصرية كلها من المشاغبين وأنصار الشاه وبعض القبائل التركمانية من أعداء مصر ومات برسباي قبل أن ينعم بأخبار هذا النصر العظيم .

بقيت الحالة غير مستقرة على قرار كما رأينا وبقيت المشاحنات على الحدود مستمرة حتى جاء عهد «جقمق» سلطان مصر وكان هذا يميل إلى المغول وتزوج من أميرة مغولية وأخرى تركية تُدعى (شاه زاده) ودارت بينه

وبين الشاه روخ مكاتبات المودة والإخاء ، واستقبل بكل حفاوة سفارة مغولية ، معها قافلة من الجمال محملة بالهدايا النفيسة والمسك والمواد الشرقية ـ فرد له بدلاً منها هدايا نفيسة تُناسب مقامه ، واستأذن الشاه مرة ثانية أن يُرسل كسوته للكعبة براً بقسمه الملكي الذي أقسمه فرضي بذلك جقمق وأرسلت الكسوة ، وفي عام ١٤٤٢ م زارت مصر أرملة «تيمورلنك» في طريقها للحج فاعتدى عليها برشق الأحجار فانتقم لها السلطان انتقاماً شديداً من جميع الذين اشتركوا في الاعتداء عليها وقدم لها تعويضات أرضتها وأعادت الثقة بين البلدين مرة أخرى . وكانت هذه هي آخر علاقة بين مصر والمغول إذ لم تلبث مصر طويلاً حتى سقطت تحت حكم الأتراك فتحها السلطان سليم الأول عام سنة ١٥١٢ م وقضى هذا السلطان أيضاً على حكم المغول في بلاد فارس عام سنة ١٥١٤ م في واقعة «جلديران» في عهد ملكهم الشاه اسماعيل الصفوي وبذا دانت جميع الدويلات والدول التي كانت تحت حكم مصر والمغول والتي كانت تحميها كلا من هاتين الدولتين لحكم الأتراك ؟

ـ ٥ ـ

علاقة المماليك ببلاد النوبة والسودان

كانت تمتد حدود بلاد النوبة أول عصر المماليك حتى مديرية أسوان ، وتمتد جنوباً حتى حدود الحبشة وبلاد بحر الغزال وكانت تدين هذه البلاد كلها لحكومة وطنية مسيحية . وأول علاقة نجدها لمصر مع هذه البلاد هي غزوات صلاح الدين الأيوبي لبلادهم عندما أراد أن يكون من السودانيين جيشاً يُقاوم به مماليكه الأتراك الذين كثر عصيانهم وتمردهم ـ وتوالت الغزوات بعد صلاح الدين من المماليك على بلادهم حتى أصبح في أوائل القرن الخامس عشر من المستحيل أن نجد مسيحياً واحداً وطنياً من كل تلك الديار .

وقد قامت جيوش صلاح الدين قاصدة غزو بلاد النوبة فلما سمع بذلك ملك النوبة تقدم هو أيضاً بجيوشه وسبق صلاح الدين قاصداً مصر ودخل أسوان عنوة وكانت آخر الحدود المصرية جنوباً ، وكان من المحتمل تقدمه من أسوان إلى الشمال قاصداً مصر العليا ومنها يدخل العاصمة ولكن لم يقعده عن عزمه إلا ما سمعه من انقراض الدولة الفاطمية الخاملة وقيام سلطان قاهر مثل (صلاح الدين) وعن قوة جيوش عدوه وكثرة عددها .

فلما تقابلت مقدمة الجيشان خاف ملك النوبة عاقبة هذه الحروب فانسحب بجيشه جنوباً قبل أن تدركه جيوش الأعداء ، ولكن أبت المقادير إلا أن تعاكسه إذ لحقته جيوش صلاح الدين قبل أن يفارق الحدود المصرية وضربت مؤخرة جيشه فاضطر ملك النوبة للمقاومة والتحم الفريقان في موقعة هائلة كانت

نتيجتها سجالاً فتقهقر ملك النوبة جنوباً وانسحبت جيوش صلاح الدين شمالاً .

ولما سمع صلاح الدين بنتيجة هذه الحملة غضب غضباً شديداً وأرسل أخاه شمس الدين بحملة قوية وأمر بالسير إلى بلاد النوبة والاقتصاص من ملكها وأهلها جزاء إقدامهم على غزو مصر . فقام شمس الدين بحملته حتى وصل إلى حصن دير ابراهيم «المعروف محله الآن ببلدة ابراهيم» وحاصره ثم فتحه بعد حصار دام ثلاثة أيام وكان في ذلك الحصن قلعة ذات طوابي منيعة جداً قائمة على سطح الجبل تجاه مدينة نوبية عظيمة وكان لهذه البلدة كنيسة عظيمة باسم العذراء .

فلما دخل شمس الدين إلى تلك البلدة برجاله أباح فيها السلب والنهب وأطلق سراح الأسرى المصريين ، وبعد أن انتهى شمس الدين من قتل ونهب أهالي تلك المدينة حمل الباقين من الأطفال إلى مصر ليُباعوا بيع الرقيق ثم نهب مقتنيات الكنيسة وخزينتها وكل ما فيها من الأشياء الثمينة وحوَّل الكنيسة إلى جامع وجعل بُرجها العالي مأذنة له .

أما الأسقف القبطي المصري لتلك الأبروشية فقد قبض عليه شمس الدين وسامه عذابات أليمة جداً وأخيراً باعه مع من بِيع من الأرقاء !!...

ولم يتوغل شمس الدين إلى أبعد من دير ابراهيم وعزم على العودة إلى مصر وأبقى فيها حامية تحت رياسة رجل يُدعى ابراهيم الكردي . أما جيش شمس الدين نفسه فقد عاد وعسكر في «قوص» أما إبراهيم الكردي فقد عاث في تلك الجهة فساداً حتى ضجت منه الأهالي فأرسل ملك النوبة سفيراً ومعه عبد وجارية بصفة هدية إلى شمس الدين في قوص طالباً عقد الصلح معه ، أما هذا فقد هزأ بالرسول وقبل الهدية وأعطاه بدلاً منها زوجين من نبال الحرب !!.

وكانت عاصمة ملك النوبة مدينة دنقلة ، ولما لم يكن ميل صلاح الدين ضم الممالك السودانية المسيحية إلى ملكه بل كان قصده

الانتقام والحصول على الرقيق ولما تمَّ له ما أراد عاد أدراجه وترك البلاد التي فتحها فعادت الجنود النوبية واحتلتها مرة أخرى .

* * *

انتهت هذه العلاقة كما رأينا بدون ظفر لأي كان من الفريقين ، إلا أن هذه العلاقة بدأت بشكل آخر في عصر المماليك . ففي عهد بيبرس الأول ، في أثناء انشغاله بالحروب في آسيا ، قام ملك النوبة سنة ١٢٧٤ م وغزا إقليم أسوان ، فقام أمير قوص المملوك المصري في الحال للانتقام والأخذ بالثأر وجرَّد حملة قوية وغزا بلاد النوبة وتوغل فيها حتى وصل لإقليم دنقلة ، وصار ينهب البلاد التي يفتحها ويمر عليها في طريقه وأسر عدة من أشراف النوبة من بينهم حاكم إقليم النوبة الشمالي ، وقد عامل بيبرس هؤلاء الأسرى معاملة قاسية بأن علّق كل منهم على جمل ودار به في المدينة حتى مات .

وهكذا جاء تصرف داود ملك النوبة وبالاً عليه وعلى رجاله ، ويظهر أن ذلك الملك كان غير محبوب من شعبه حتى أنه في سنة ١٢٧٥ م (٦٧٤ هـ) قام شيكندر (يحتمل أن هذا الإسم هو إسكندر) ابن أخيه الذي كان نائبه وولّي عهده ووارثه في المُلك والتجأ إلى حكومة بيبرس ، فأرسل بيبرس معه جيشاً عرمرماً بحجة تأييد حقوق الوراثة إلى شيكندر في الظاهر ولكن الحقيقة كان الغرض من الحملة ضم بلاد النوبة إلى المملكة المصرية ، فقابل النوبيون الجيوش المصرية الفاتحة وحاربوها بشجاعة عظيمة لكنهم هُزموا أخيراً وتقدم الأمراء المصريون بالجيش إلى داخل القطر النوبي وقتلوا وأسروا كل من قابلهم في طريقهم فخضع والي إقليم النوبة الجنوبي لشيكندر واعترف به ملكاً عليه بدل داوود الذي أُسِر ومات فخضعت بلاد النوبة كلها لشيكندر ونودي به ملكاً عليها بشرط خضوعه للشروط الآتية :

١ ـ أن يتنازل لسلطان مصر عن إقليم النوبة الشمالي (وهذا الإقليم هو الجزء الأهم والخصب في بلاد النوبة) .

٢ ـ أن يعيد الجزية القديمة وهي أربعمائة عبد وثلاثة أفيال وثلاث زرافات وخمسة نمور ومائة هجين ومائة ثور ونصف محصول الأراضي الزراعية .

٣ ـ أن يطلق كل الأسرى الذين أخذهم داوود عند حملته الأخيرة على إقليم أسوان .

٤ ـ أن يستولي سلطان مصر على ثروة وأملاك وذخائر وعبيد ملك النوبة وجميع الأمراء الذين ماتوا في أثناء القتال .

٥ ـ أن يقبل تأسيس وكالة سياسية في دنقلة عاصمة البلاد ويقيم فيها المندوب المصري الذي يراقب جمع الجزية المُستحقة للسلطان .

ومما يجب ملاحظته هنا أن هذه هي المرة الأولى التي خضعت فيها بلاد النوبة حقيقة للنفوذ الإسلامي منذ ظهوره رغم الهجمات التي كانت تتوالى عليهم من حين إلى حين . وقد أوجد جمع الرقيق للجزية الفوضى وفساد نظام الحكومة والحروب المستديمة بين الدويلات النوبية ولذا تعسر إيجاد حكومة قوية منظمة في السودان وابتدأت الممالك السودانية تسقط الواحدة بعد الأخرى .

ولما وضع المماليك يدهم على إقليم النوبة الشمالي عاملوا أهله كعادتهم مع كل بلاد يفتحونها وهو أنهم خيَّروهم بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية فاختار الأهالي دفع الجزية وصار كل ذكر يدفع ضريبة عن نفسه ديناراً واحداً عن كل سنة ولم يحتل الجيش المصري مدينة دنقلة إلا سبعة عشر يوماً فقط إذ بعد أن أتمَّ الأمراء عقد المعاهدة مع شيكندر ملك النوبة الجديد عادوا بجيوشه إلى مصر تحت قيادة الأمير اق سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ هـ .

* * *

ففي عام ١٢٨٧ م (٦٨٥ هـ) أرسل الملك عدود حاكم أقاصي جنوب السودان سفيراً إلى مصر يشكو للسلطان قلاوون من تابعه الملك شيكندر

لغزواته المتوالية لبلاده لجمع جزية العبيد ، فأرسل قلاوون مع السفير أميراً مصرياً ليحقق الشكوى في مكانها بنفسه ، فلما مرَّ الوفد في طريق عودته بالملك شيكندر قبض عليهم بأمره وأراد إعدامهم إلا أن أمراء دولته أرجعوه عن عزمه هذا وخلعوه عن عرشه وولّوا بدلاً منه «شمامون» ملكاً عليهم ، وسمحوا للوفد بالسير إلى غايته إلا أن قلاوون رغم هذه الترضية أرسل حملة قوية ليمحو الإهانة التي لحقت بسفيره وليعيد بالفتح بلاد النوبة .

فلما علم شمامون بغرض قلاوون ، أرسل لتابعه حاكم الإقليم الشمالي يأمره فيه بأن لا يحارب المماليك وجهاً لوجه بل يخلي لهم البلاد بعد تخريبها حتى دنقلة حيث تجري هناك الواقعة الفاصلة . إلا أن الملك شمامون هُزم أيضاً أمام دنقلة وفرَّ هارباً إلى الصحراء ، فاختار المماليك للعرش ابن أخت شمامون بشرط أن يخضع لسلطان مصر بنفس الشروط وعاد جيش قلاوون إلى مصر محملاً بالغنائم والأسرى والسبايا .

وما كادت الجيوش المصرية تفارق الأراضي السودانية حتى عاد شمامون إلى عرشه وطرد الملك الجديد الذي قبل الخضوع لسلطان مصر ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى البلاط المصري حتى سارع قلاوون بإرسال حملة قوية جداً إلى بلاد النوبة للقضاء عليها نهائياً فسارت الحملة إليها فأخلى شمامون الطريق أمامها حتى وصلت إلى دنقلة وأعادت إجلاس صنيعتها على العرش مرة أخرى ، وترك قلاوون ـ حامية في دنقلة . ولم يمضِ على خروج حملة قلاوون من السودان ثلاثة شهور حتى عاد شمامون وقضى على الحامية وذبح الملك الجديد وجلس على عرش النوبة حتى وافاه الموت . ولم يقوَ قلاوون على إرسال حملة ثالثة ضد هذا الملك العنيد .

أما في عهد الملك الناصر بن قلاوون ، فقد سارت إلى مصر عدة بعوث حربية لجمع الجزية وإظهار سلطان مصر على تلك الجهات ، ولتأديب السودانيين والعرب الذين اعتادوا تخريب الصعيد ونهبه ، وللسعي في إخضاع بلاد النوبة إخضاعاً نهائياً التي طالما حاول الناصر أن يضمها

لسلطان أمير مصري ، وبقيت الحالة مضطربة مدة من الزمن ، ثم رجعت فيما بعد إلى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة .

وبقيت الحالة كذلك حتى عام ١٧٦٦ م في عهد السلطان «شعبان» فأرسلت حملة بحرية هامة وبرية إلى سواكن جنوباً لحماية حدود الصعيد ، وبلاد النوبة من عبث قبائل البدو ، فكان رائد هذه الحملة الفلاح ، غير أن فظائع حاكم أسوان المصري الشنيعة أثارت حقد القبائل السودانية المجاورة فانقضوا على حامية المماليك في أسوان فأفنوها ذبحاً ، وتركوا المدينة فريسة للنيران .

استمرت الأحوال بين الاستقرار والهياج في عهدي دولة المماليك كما رأينا حتى سقطت مصر تحت الفتح العثماني ، أو في عصر البكوات المماليك ، ففي هذا العصر تلاشت الممالك السودانية المسيحية وأصبحت تئن تحت مظالم الأعراب تجار الرقيق ، الذين ما كانوا ليخضعوا لحكومة خاصة ولا ليستوطنوا مكاناً معلوماً ، وفي ذلك الحين ، اكتسحت مملكة نوبية سوداء الممالك النوبية الجنوبية الخاضعة لمصر ، وانتخب القوّاد السودانية من بينهم سلطاناً عليهم وجعلوا مدينة سنار عاصمة ملكهم .

وفي سنة ١٧٠٦ م اعتنق ملك سنار الديانة الإسلامية ، ولم يكن هذا الملك ذا نفوذ أو سيادة على ممالك السودان الجنوبية لأن الممالك السودانية الشمالية كانت قد خربت من مدة وتسلط عليها عدد كبير من زعماء القبائل العربية الذين نزحوا إليها عن طريق سواحل البحر الأحمر بقصد الاستيطان والاتجار بالرقيق وبالرغم من إسلام ملك سنار فقد بقيت جماعات كثيرة من المسيحيين منتشرة في كل أرجاء السودان ، ولها عدة كنائس أيضاً وكان نفوذها الأسمى يومئذٍ متصلاً تقريباً إلى حدود مصر الجنوبية كما يتضح لك ذلك من حادثة الدكتور رول وقد ذكرتها مدام بتشر في كتبها عن تاريخ الأمة القبطية في الفصل الثامن والستين من المجلد الرابع فليرجع إليها من يرغب في زيادة التوسع .

ويقيت أحوال النوبة المسيحية في تدهور وانحطاط حتى سادت القبائل العربية أكثر السودان وزالت جميع الممالك النوبية من الوجود إلى الأبد حتى أنه في أيام الحملة الفرنسية لم يوجد ولا مسيحي واحد في بلاد النوبة كلها .

وفي أواخر عهد المماليك البكوات زالت سلطة مصر عن السودان نهائياً إلى أن فتحه محمد علي باشا وضمه لمصر .

ـ ٦ ـ

علاقة المماليك بأرمنيا

أول ظهور للعلاقة بين المماليك وأرمنيا عام ١٢٦٢ م في عهد السلطان بيبرس إذ قام هيشوم ملك أرمنيا بتحريض التتار وبمعاضده سلطان دولة الروم السلجوقية ، بالإغارة على الحدود المصرية السورية وقامت جنوده بحصار مدينة عنتاب ، فسيَّر بيبرس حملة تأديبية للاقتصاص من هؤلاء المهاجمين ، فالتجأ الأرمن إلى طلب المساعدة من الصليبيين والمغول رداً لهجمات بيبرس عليهما فأمدهم بالمدد فحاصروا مدينة حارم ولكن قدوم الشتاء القارس أجلاهم عن المدينة ، وأما بيبرس فلم يكفه تراجع أعدائه عن حدود بلاده ، بل تقدم وضرب جميع الصليبيين الذين ساعدوا أعداءه وفي عام ١٢٦٦ أرسل حملة قوية اخترقت مضايق كليكيا وتقدمت حتى أرمنيا ولم يساعد المغول حليفهم القديم فقد هزم الملك هيشوم هزيمة منكرة وقتل أحد أولاده في المعركة وأسر الثاني وحمل إلى مصر ليُزين به موكب الأمير المنتصر ، وتقدم بيبرس في أرمنيا مجتاحاً إياها من شمالها إلى جنوبها كالعاصفة الهوجاء وأما عاصمتهم سيس فقد ضاعت كلها طعمة للنيران والسلب والسيف .

وكان فرسان الهيكليين يدافعون عن إحدى القلاع الأرمنية ، فاستولى عليها بيبرس عنوة بعد حصار طويل ، وذبح أكثر الفرسان وأُسرت أطفالهم وسُبيت نساؤهم ، وفي طريقه مرَّ بأحد المدن المدعوة «نارا» وكانت مدينة

عظيمة ومركزاً مهماً وكان أهلها أشداء أقوياء عملوا على مناوأة بيبرس ومهاجمة مؤخرة جنده فهاجم المدينة انتقاماً من أهلها وحوَّل كنيستها إلى جامع وحمل جميع أطفال المدينة إلى القاهرة وكان منهم بعدئذٍ كثير من عظماء المماليك وأمرائهم .

وفي عام ١٢٦٧ م خضع الملك هيشوم وقبل حماية المصريين ودفع الجزية لهم واستولى المصريون على عدة معاقل وحصون مهمة على الحدود الأرمنية لتأمين الحدود السورية ، وبقيت الحالة ساكنة هادئة إلى أن عاد الأرمن مرة أخرى إلى التحالف مع المغول ضده في عام ١٢٧٣ م فسكن لهم بيبرس حتى أمن مخاوفة الصليبيين والمغول بعد هزيمتهم في موقعة الفرات في نفس السنة وانقضَّ على بلادهم وترك الحرية لجنده ليعيثوا في أرمنيا فساداً كما يشاؤون من طرسوس حتى أضنة ، وأحرقت في هذه الغارة أهم مدينتين أرمنيتين «مسيس» و «المصيصة» وأصبحتا كوماً من التراب وعندما جمعت السلائب والغنائم بعد عودة الحملة كانت أعظم من أن يسعها فضاء مدينة انطاكية ؟!

واستمرت علاقة الخضوع الأرمني للمصريين حتى عصر قلاوون سنة ١٢٨٥ م فانتهز فرصة شكوى الأرمن من أحد الأمراء المماليك ، فهاجم قراهم وعاملهم معاملة صارمة جداً ، وفرض عليهم جزية كبيرة ، وأجبرهم على تسليم جميع الأسرى المماليك وأما أسراهم هم فأبقاهم للعمل في إقامة القلاع وتشييد الحصون وخدمة الأمراء وكانت هذه الحملة مذلة للأرمن حتى أنهم خضعوا خضوعاً تاماً حتى عام ١٢٩٨ م في عهد السلطان لاجين ، الذي ثار عليه المماليك فأراد أن يبعدهم عن العاصمة ويشغلهم بحرب جديدة تبعدهم عن التفكير في حبك المؤامرات فأرسلهم على رأس جيش قوي إلى أرمينيا التي كانت الظروف مساعدة على ضمها لمصر إذ أن أفراد الأسرة المالكة فيها كانوا في خلاف بين أنفسهم على اعتلاء العرش ، وكان غازان المغولي مشغولاً بالثورات الداخلية التي شبت في بلاده ، فرضي ملك الأرمن بجميع شروط السلطان ولكن هذا رفض قبول تسليمه لأن الغرض

الأصلي لم يكن فتح أرمينيا بل إبعاد زعماء المماليك عن مصر ، ولذا أرسل لاجين أوامر صارمة توجب زحف الجيش المصري على أرمينيا ولم يلقَ الجيش مقاومة تذكر في طريقه فقد استولى على جميع المدن والقلاع في مدة لا تتجاوز عدة شهور ، وعاد الجيش مثقلاً بالغنائم والإسلاب إلى سوريا وأما السلطان فقد أصدر أمره مرة أخرى بعودة الجيش لاقتحام معقل النجمة «رغم تسليم الأرمن» الذي كان يعتبر أقوى وأمنع حصن في كل بلاد أرمينية لموقعه الجغرافي ، وفعلاً سلِّم الحصن بعد حصار قوي دام أربعين يوماً ونهبت محتويات الحصن ثم ترك بعد ذلك هذا المعقل المنيع للنيران فأتت على محتوياته . وفي مارس عام ١٣٠٢ في عهد الملك الناصر ، سارت حملة أخرى لمعاقبة الأرمن لمساعدتهم المغول ضد جنود مصر ، فزحفت هذه الحملة حتى وصلت إلى عاصمة ملكهم «سيس» وعاثت في المدينة زماناً ثم تركتها عائدة إلى سوريا بعد أن قضت وترها من الانتقام .

ولم يتلقَ الأرمن من هذه المعاملة غير الرحيمة دروساً فيخلدوا للسكينة بل بالعكس قاموا في العام التالي سنة ١٣٠٤ بمساعدة المغول (في حربهم الأخيرة سنة ١٣٠٣ مع الناصر) وامتنعوا عن دفع الجزية لمصر ، فأرسل لهم الناصر حملة قوية اجتاحت البلاد دفعتين واستولت على معقل «تل حمدون» آخر معاقل وحصون الأرمن وكان بداخله جميع أمراء وعظماء الأرمن وأعملوا السيف في جميع قاطنية ولم يتركوا البلاد إلا بعد أن دفع أمير سيس جميع المتأخر عليه لمصر مضاعفة وفي طريق عودة جنود الناصر المظفرة حملت على الدروز في معقلهم الجبلي في كسروان (بين طرابلس ودمشق) انتقاماً منهم لمساعدتهم للأرمن ضد قواته .

وعاد الأرمن مرة ثالثة للعصيان عام ١٣١٤ م في عهد الناصر (للمرة الثالثة) أيضاً فأرسل لهم حملة قوية حاصرت مدينة ملطية ، ورغم أن المدينة سلمت للجند بدون قتال ، فإن جنود المماليك لم يرحموا كبيراً ولا صغيراً ولا عسكرياً ولا رجلاً مسالماً ، فإن جميع أهل المدينة ذبحوا عن بكرة أبيهم

وكان المؤرخ الشهير «أبو الفداء» ، حاضراً هذه الموقعة ، وحاول عدة مرات منع الجنود من عمل هذه الفظائع ولكنه كفَّ عن ذلك خوفاً من اتهامه بالتشيع لهم وكان يشتغل وظيفة نائب حماه وأخذ أطفال ملطية ليضموا الصغار المماليك ، والرجال والنساء ليُباعوا في أسواق النخَّاسة .

وكأنما كان حكم الناصر شؤماً على الأرمن فقد حدث أنه في عام ١٢٢٣ م تولَّى عرش أرمينيا «ليو الخامس» الطفل القاصر وكان حوله ألف من المطالبين بالعرش وكان كل منهم يعمل لحسابه الخاص فانتهز الناصر هذه الفرصة ليضم أرمينيا لمُلكه الخاص فأرسل حملة في عام ١٣٢٢ تحت ستار جمع الجزية ، لتحتل البلاد ، وليوسع حدوده نحو الشرق . وكان المغول منذ أن أسلموا تخلوا عن حماية الأرمن ، ولم يجد «ليو» حوله نصيراً واحداً يأخذ بيده فسلم بمطالب المصريين وهادنهم .

ولكنه حدث أن أعلن بعد ذلك بعام البابا جون الثاني عشر حملة صليبية على مصر يقودها فيليب السادس ، فظن «ليو» أن الخلاص قد آن مع هذه الحملة فامتنع عن دفع الجزية وأرسل جنده تهاجم الحدود المصرية السورية ، ولكن لم يلبث مشروع الحملة الصليبية أن قُبر بموت البابا واجتاحت الجنود المصرية البلاد مرة أخرى وضُربت مدينة «أياس» وهدمتها على أهلها ولم تسمح لفرد منهم بالخروج من المدينة ، فأذعن عندئذٍ ليو لمطالب الناصر ، فجلت الجنود المصرية عن بلاده بعد أن جمعت الضرائب المتأخرة مُضاعفة والأسلاب والغنائم ومصاريف الحملة .

وفي عام ١٣٦٩ م قام يليغا في عهد استبداده بالاقتصاص من الأرمن لمساعدتهم القبارصة في هجومهم على مصر عام ١٣٦٥ ، فسيَّر حملة قوية غزت أرمينيا واستولت على سيس حاضرتها ، وتقدمت الحملة نحو كليكية ، فاعتصم الملك «ليو» بحصنه الجبلي ولكنه اضطر بعد حين إلى التسليم فأخذ أسيراً إلى القاهرة حيث بقي فيها أسيراً حتى توسط له ملك قشتاله «يوحنا الأول» فأطلق سراحه عام ١٣٨٢ م ومنع من العودة لبلاده

فأخذ يتجول في أوربا حتى مات في باريس عام ١٣٩٣ م .

وبذا قضى نهائياً عام ١٣٧٥ م على أرمينيا المسيحية ، وضمت نهائياً إلى ملك مصر ومن بعدهم إلى ملك الأتراك حتى استقلت بعد الحرب العظمى سنة ١٩١٨ .

ـ ٧ ـ

علاقة المماليك برودس وقبرص

تبدأ أول علاقة للمماليك بقبرص عام ١٢٧٤ م عندما جهز بيبرس أسطولاً لغزو جزيرة قبرص لمساعدتها للصليبيين في عكاء ضده في أثناء حصاره لها (كما هو مبين في فصل علاقة المماليك بالصليبيين) ولكن هذا الأسطول لم يصل للجزيرة ولم يقم بمأموريته لأن عاصفة هبت عليه وهو في الطريق وحطمت أكثر سفنه فعادت السفن الباقية من منتصف الطريق .

وعادت قبرص سنة ١٢٨٩ مرة أخرى لمساعدة مدينة طرابلس ، ولكن رغم ذلك فقد سقطت المدينة بعد حصار دام شهراً ونصفاً قتل فيه عدد عظيم من رجال المدينة وسُبيت نساءهم وذراريهم ، وفي عام ١٢٩١ أيضاً في عهد الخليل بن قلاوون أرسلت قبرص حملة أخرى لمساعدة مدينة عكا ضد المماليك ولكن رغم كل ذلك أيضاً سقطت المدينة تحت أيدي المصريين الغزاة .

«ومع أن قوة قبرص كانت لا تساوي شيئاً أمام قوات المماليك الضخمة إلا أن قبرص أرادت أن يكون لها نصيب في فخر الجهاد مع الصليبيين ضد المصريين فأرسلت حملة صليبية عام ١٣٦٥ بالاشتراك مع البندقية وفرسان القديس يوحنا في رودس ، إلى مصر فرسا الأسطول أمام الاسكندرية وضرب المدينة ودانت لهم ثلاثة أيام نهبوا من المدينة كل ما طاب لهم أخذه بدون ممانع ، وعندما سمعوا بقدوم مدد من القاهرة تركوا

الميناء بسفنهم حاملين معهم خمسة آلآف أسير من أهالي الاسكندرية وضواحيها ، وحدثت هذه الواقعة في عهد يلبغا ، فأراد هذا الجاهل أن يثأر من الصليبيين بالاقتصاص من أبناء دينهم الأقباط في مصر فأثقل كاهلهم بالضرائب ليجمع منها المال اللازم لإعداد أسطول يقوم بحملة تأديبية ضد القبارصة والبنادقة . وفي هذا الوقت أرسل البابا سفارة سلمية عرضت على يلبغا دفع تعويض عما حدث وفي مقابل ذلك يسمح يلبغا بفتح كنيسة القيامة للحجاج الصليبيين ، ولكنه رغم كل ذلك قبض على السفير وزملائه وحجزهم في القاهرة وأخذ في مواصلة استعداداته للحرب . ولما لم يتلقَ البابا رداً على سفارته أذن لأهل قبرص بمهاجمة السواحل المصرية فقدم أسطول قبرص عاثثا في طول ساحل مصر وسوريا فساداً وألحق أضراراً كبيرة بالاسكندرية . ودامت هذه المناوشات طول عام ١٣٦٨ م ، ولم تُسفر عن نتيجة حاسمة إذ أن القتال كان بينها سجالاً فوجد يلبغا أنه خير له أن يستحوذ على مقدار التعويض وعلى المبلغ الذي يُعطى له سنوياً في مقابل سماحة بالزيارة والحج لكنيسة القيامة ، فبدأت المفاوضات بينه وبينهم وانتهت بالصلح وعودة الأمور إلى مجاريها ، وسمح يلبغا بفتح الكنيسة للزوار ودفع أهل رودس وقبرص قيمة الغرامة وثمن الرقيق الذي سرقوه من الاسكندرية .

انقطعت الصلة ما بين القبارصة والمماليك حتى عام ١٤٠٣ في عهد خليل ابن برقوق إذ هاجم أسطول قبرص الاسكندرية ونهبها ، وعاد أسطول آخر في السنة التالية ١٤٠٤ م إلى نهب الشواطىء السورية وخصوصاً مدينة طرابلس الذين لم يعثروا فيها على ذا قيمة إلا وأخذوه ، وبعد ذلك بشهرين نزل جيش ضخم يحمله أسطول قبرصي عظيم مكوَّن من أربعين سفينة إلى مدينة بيروت فأحرقوها وضربوا قلاعها والبلاد المجاورة لها من صيدا إلى طرابلس .

وكأنما استطاب لأهل قبرص مهاجمة سواحل مصر وسوريا فاتخذوا لها مهنة القرصنة ديدناً ، فأرسل «برسباي» حملة لمعاقبتهم على جرأتهم هذه الغريبة فوصلت سفن أسطوله إلى ليماسول سنة ١٤٢٤ م وأحرقوها وعادوا

بالأسرى من أهلها ، فشجع هذا الفوز السلطان على أن يرسل أسطولاً كاملاً لفتح الجزيرة وضمها إلى أملاكه . سنة ١٤٢٥ م سارت سفن الأسطول من الاسكندرية إلى فيما غوستا .

واستولت الحملة عليها بعد عناء واستولت أيضاً على «الارناقة» و «ليماسول» مرة أخرى وعادت غانمة إلى مصر وفي ركابها ألف أسير ، بيعوا في أسواق القاهرة ، ولكن السلطان أمر أمراً في بيع هؤلاء التعساء يدل على منتهى الرحمة وهو أن لا يُباع الأطفال أو القرابة القريبة بدون أن يُباع معهم أهلوهم أو من يعولهم .

وفي العام التالي أرسل حملة أقوى من سابقتها وأكدَّ لأمرائها وجوب فتح الجزيرة كلها ، فسارت الحملة وأسرت الملك «جانوس» ملك قبرص ، وعادت به إلى القاهرة . وفي اليوم التالي جلس السلطان على شرفة قصره ومعه سفراء الدول والأمراء والعظماء ومرَّ أمامه الملك الأسير وخلفه أبناء وطنه البائسون في الأغلال يحملون فوق أكتافهم تاج ملكهم الضائع وتقدم الملك وهو يرسف في الأغلال وقبّل الأرض عند قدمي السلطان ، وبعد إسبوع دفع قناصل الدول الأوربية مجتمعين فداء لإطلاق سراح «جانوس» ومن جهة أخرى قبل ملك قبرص مطالب السلطان ، فأفرج عنه وخلع عليه برسباي حُلة رسمية وجواداً وسمح له بالعودة إلى الجزيرة على أن يكون تابعاً لسلطان مصر وكان مقدار الدية حوالي ثلثمائة ألف دينار وكانت الجزية السنوية عشرين ألفاً . ومما يحسن ذكره هنا أن المؤرخ أبا المحاسن كان حاضراً تلك الحفلة وقد أثَّر فيه منظر ذلك الملك وذكر عنه أنه كان يحسن اللغة العربية .

ومنذ ذلك الحين سقطت قبرص تحت حكم المماليك وبقيت في أيديهم حتى عهد سقوط دولتهم الثانية . وإنَّا نجد في المدة التي تلت عهد برسباي أخباراً طويلة عن علاقة المصريين بتلك الجزيرة الثانية خصوصاً في عهد «اينال» سنة ١٤٥٩ م ، الذي عاضد «جيمس الثاني» رئيس أساقفة

نيقوسيا والإبن غير الشرعي للملك السابق ، ضد شارلوت الإبنة الشرعية وصاحبة العرش ولكنها قبلت أن تزيد الجزية فتخلّى السلطان عن صنيعته ولما أخلّت بوعدها أرسل لها حملة ليبعدها عن العرش وينصب عليه بدلاً منها أخاها جيمس إلا أن البابا ولاّه سافوري ساء شارلوت وتمَّ الصلح بينهما وبين المماليك على مقدار الجزية وحماية مصر . ومن ذلك الحين لا نسمع عن أية علاقة بين هؤلاء والمماليك إلا علاقة الجزية والحماية حتى سقوط دولة المماليك الثانية .

ـ ٨ ـ

علاقة المماليك
ببعض الدول الأجنبية الأخرى

كان للمماليك علاقات أخرى غير التي ذكرناها مع بعض دول أخرى أجنبية ولما كانت هذه العلاقات ليست بذات أهمية كبرى حتى نفرد لكل منها فصلاً قائماً بذاته رأينا أن نوردها كلها هنا في فصل واحد .

ففي عصر قلاوون عام ١٢٨١ م توجهت رسُله وسفراؤه إلى جميع الدول المحيطة به ولكي يحافظ على العلاقات الودية التي أحكم أواصرها سلفاؤه بينهم وبين جيرانهم ، فلما اعتنق أمير قبجاق الإسلام ، أرسل قلاوون وفداً يهنئه بذلك فعاد الوفد محملاً بالهدايا ومعه رسول موفد من قبل قبجاق يطلب باسم مولاه لقباً مصرياً وشارة من شارات الشرف .

وفي عهده أيضاً وفدت عليه الوفود من إمام اليمن تحمل الهدايا من العبيد والفيلة والتوابل وأنواع الطيور النادرة . وتبودلت بين قلاوون وبين أمير سيلان سفارات المودة ورسائل المصافاة ولم يقصد قلاوون من ذلك إلا غرضاً واحداً وهو ضمان استمرار وارتقاء التجارة والمواصلات مع بلاد الهند والشرق .

والتفت قلاوون إلى عقد المحالفات مع الدول الأوربية بعد أن وطّد دعائم الثقة به في الشرق ، فأبرم عهداً بينه وبين امبراطور دولة الروم الشرقية وكثير من دول أوربا وإقطاعاتها ، وفي عام ١٢٨٦ م وقع معاهدة تجارية حربية مع جنوه وقشتالة وصقلية .

وفي ملك بيبرس الجاشنكير للمرة الثانية تفككت أواصر المودة التي عقدها قلاوون بينه وبين جميع الدول الأوربية خاصة والشرقية عامة ، وإنَّا لنجد ذكراً طويلاً في الفصول السابقة لمحاربته لدول الشرق . إلا أنه حدث حادث في غضون حكمه في عام ١٣٠٧ جدير بأن يدَّون هنا لغرابته ، فقد حدث أن أرسلت حكومة أراجون وفداً إلى سلطان مصر تطلب إليه أن يسمح بفتح بعض كنائس خاصة في سوريا وبيت المقدس ومصر ويفك أسر قنصل دولتهم الذي كان سجيناً في مصر فأجاب بيبرس طلباتهم ولكنه حدث أنه في أثناء سير الوفد عائداً إلى الإسكندرية ليبحر منها إلى بلاده ، أرسل السلطان يطلب القبض عليهم لأنه نكث بعهوده لهم ولأنه لم يحصل منهم الفدية اللازمة لاسترضائه . فلما وصل رُسل السلطان إلى الوفد قبض عليهم الأسبان وحملوهم معهم وأبحروا بهم من الإسكندرية فأثار هذا العمل سخط بيبرس ومع ما قدمته الدول الأوربية بواسطة سفرائها من الترضية للسلطان فإن غضبه لم يخمد . وكانت هذه الحادثة سبباً في إضرام نار حقده على المسيحيين المصريين الذين لم يكن لهم ضلع في هذه الحادثة ، فأمر بإخراجهم من جميع وظائف الحكومة وشدد عليهم في تنفيذ ما كان مشروعاً لهم من ركوب الدواب ، وهدم صوامع اليهود وكنائس المسيحيين وختم أعماله بإصدار مرسوم شديد الوطأة عليهم ومع أن هذا المرسوم كغيره لم يلبث أن أهمل مفعوله تدريجياً ولكن فرص إعادة العمل به كان خطراً منتظراً لهؤلاء المساكين في كل حين .

وأجد أنه من الملائم أن أنشر خلاصة هذا المنشور لغرابته «كان من المحتم على الإسرائيلي أن يضع على رأسه عمامة صفراء والقبطي عمامة زرقاء ليمكن التمييز بينهما عن بعد ، وحتم على نسائهم ليس ثياب خاصة لتميزهم وحرَّم عليهم ركوب الخيل وسُمح لهم بامتطاء البغال بشرط أن يركبوا وأرجلهم في جنب واحد من أجنب السرج الذي حُرِّم عليهم تزيينه وعند مرورهم وهم ركوب على مسلم فيجب عليهم فسح الطريق لركابه وأن يتريثوا ليحيُّوه حتى يمر ، وحتم عليهم تحية المسلم وهم وقوف ثم يجب

عليهم ألاَّ يرفعوا أصواتهم على أصوات غيرهم من المسلمين وألاَّ يتصدروا المجالس دونهم ، وألاَّ يحتفلوا «بأحد الشعانين» جهاراً وألاَّ يقرعوا نواقيس في كنائسهم وألاَّ يقبلوا فيها نصرانية أي مسلم وألاَّ يمتلكوا عبيداً أو أسرى أو غنيمة من غنائم المسلمين وألاَّ يتعلموا القرآن ولا ينقشوا على خواتمهم أو على دورهم أي كتابات عربية وأن يلبسوا صلباناً أو جلاجل على صدورهم إذا أموا الحمَّامات العمومية وإذا اتصل رجل منهم بمسلمة كان جزاؤه القتل» انتهى .

انتهى عصر بيبرس الجاشنكير وعاد الناصر لمُلكه للمرة الثالثة كما أسلفنا في الفصول الأولى .

وفي هذه المرة اهتمَّ اهتماماً شديداً بنشر دعوته خارج بلاده وخصوصاً في الحرمين الشريفين ، فقد كان الخلاف مستحكماً بين أشراف مكة والمدينة لأن كلا منهما أراد نشر نفوذه على الحرمين فانتهز الناصر هذه الفرصة وأوقع بالفريقين وكان ذلك داعية لبسط نفوذه على تلك الأصقاع .

وفي ذلك الحين تمكن أويلجيتو الزعيم الشيعي المغولي من ضم الأشراف الغاضبين على الناصر لصفة ، وضمهم إلى مذهبه الشيعي فدعوا له في مكة واستبدلوا اسم السلطان باسمه ولكن بعد حين قصير تمكن الناصر من إعادة المياه إلى مجاريها وذلك أن ألَّب العرب على الأشراف والحامية المغولية فقاموا عليهم وطردوا الحامية وأعادوا اسم الناصر إلى الخطبة . وبذلك صار الناصر للمرة الثانية صاحب السلطان على تلك البلاد . ومن ذلك الحين إلى اليوم اتبعت سُنة إرسال الغلال السنوية إلى أهالي مكة والمدينة من الخزانة المصرية .

وفي عصر هذا السلطان أيضاً ثار الدروز في سوريا على حكمه وهاجموا مدينة «جبلة» وأوقعوا بأهلها الفزع والرعب وهم يصيحون ويهللون قائلين «لا إله إلا على !!» فأرسل الناصر إليهم حملة شتتت شملهم ونشر منشوراً يعاقب فيه عقاباً صارماً كل من يحاول أن يُذيع هذه العقيدة الفاسدة .

فقد كان في الدروز فئة تعتقد أن علياً هو خالق السمٰوات والأرض وأن كل نسله مقدس طاهر . وقد فسروا القرآن بحسب أهوائهم وأباحوا تعاطي الخمر والمسكرات ، واعتقدوا في تقمص الأرواح وهذه الفئة الدرزية هي التي قامت بتلك الفتنة التي أخمدها الناصر وهي في المهد .

وقد بسط الناصر نفوذه على جميع دويلات المغرب ، وكان أمير طرابلس لا يتولّى عرشه إلا بفرمان يصدر مصدقاً عليه من الناصر ، وقد تمكن أمراء طرابلس بمساعدة مصر لهم من الاستيلاء على أيالة تونس .

وكان الناصر لا يفتأ يتدخل في شؤون جزيرة العرب وفي منازعات أمرائها ليتمكن من تقوية نفوذه وكان سلاطين المماليك يهتمون جداً ببسط نفوذهم على الجزيرة العربية لأغراض شتى أهمها التجارة والدين لأنهما في طريق متاجرهم من الشرق ولأن نفوذ الخلافة الدينية كان لا بد من أن تزكيه بلاد العرب .

وقد دارت بين الناصر وجيرانه من الممالك رسائل المودة وسفارات السلام ، وفي عهده وصل إلى مصر وفدان من ابن طغلون امبراطور الهند يطلبان من الناصر مساعدته لهما ضد طاغية المغول ، وقد استمر تبادل السفراء بين القسطنطينية ومصر لأن الدولتين كانتا تخافان عدواً مشتركاً وهو القبائل التركمانية .

وكانت علاقات الناصر مع الدول الأوربية علاقات ودية جدية وخصوصاً مع البابا الذي أرسل للناصر خطاباً يطلب فيه معاملة المسيحيين النازلين في دولته بالإحسان والعدل مقابل معاملته هو (البابا) للمسلمين معاملة صالحة فردَّ عليه الناصر رداً لطيفاً واعداً بذلك ، وقد جاء إلى مصر في ذلك الحين وفدان أوربيان آخران لهذا الغرض نفسه فقوبلا مقابلة حسنة ، وكان من جراء ذلك أن سمح الناصر للأقباط بلبس عمامات بيضاء مثل غيرهم من الوطنين .

بقي نفوذ مصر على الدول الأجنبية قوياً كما تركه عندما مات ، وأعقبه

على المُلك أولاده الأطفال الذين أساءوا الحكم وتولّى كثير منهم العرش مدة لا تطول عن ثلاثة شهور لا بل أن أحدهم بقي على العرش أياماً قليلة ، ومع كل ذلك كان صيت مصر ذائعاً في الممالك الأخرى حتى أن ملك الهند أرسل للمرة الثانية (كما أسلفنا) بعثاً يحمل الهدايا والتحف لسلطان مصر ليعترف بملكه ولتولية الخليفة عرشه ، ومع أن الخليفة لم يكن ذا نفوذ يُذكر في مصر فانظر عظمة نفوذه خارج مصر وكان ذلك في عصر الملك الصالح علاء الدين من أبناء الناصر .

وفي عصره أيضاً تطلعت بلاد اليمن للإستيلاء على جزيرة العرب . إلا أن المماليك بمساعدة العرب أعادوا للسلطان جزيرة العرب لحكم مصر .

وبعد هذه الحوادث تضاءلت أهمية مصر ومركزها في عالم السياسة الخارجية وقضى على نفوذها القضاء الأخير .

ـ ٩ ـ

علاقة المماليك بالقبائل التركمانية

امتدت دولة المماليك شمالاً في آسيا حتى تخطت أرمنيا وجبال طرسوس إلى آسيا الصغرى ودولة السلاجقة التي بعد أن ضعف نفوذها بسط المماليك حكمهم على الدول التركمانية التي كانت خاضعة قبلاً لها ولم يكن نفوذ المماليك على تلك القبائل نفوذاً كلياً بل كانت هناك علاقة أكثر ما يُقال فيها أنها علاقة حماية وخراج ولم يكن المماليك يتدخلون في شؤون تلك الدول ما دامت تخضع لهم في مسائل الخراج والجزية وتنصيب الوالي .

فبعد أن سقطت دولة الأرمن كما بيّنّا في الفصل السابق عام ١٣٧٥ م ، أصبح الطريق إلى آسيا الصغرى مفتوحاً أمام المماليك . ففي عام ١٣٧٨ قام حاكم سوريا المصري بحملة قوية ليضم إلى سلطانه إحدى الدويلات الملاصقة لحدود أرمنيا فهاجم دويلة «أبناء ذي الغادر» وهي إحدى الدول التركمانية التي أُسست على أنقاض دول التتار ورأسها قاجا بن ذي الغادر وقد استولت على كردستان وديار بكر وعلى جزء من أرمنيا إلا أن هذه الحملة باءت بالفشل . وبهذه الحملة بدأت أولى العلاقات بين المماليك والقبائل التركمانية ، وبهذا وبعد أن كانت هذه القبائل أخلص أصدقاء مصر وحماة حدودها من الشمال أصبحت ألد أعدائها وأشدهم على الإطلاق وكان ذلك داعية بعد ذلك لفتح مصر على يد سليم الأول وضياع استقلالها إلى اليوم . وقد قال المقريزي في ذلك أن هذه الحملة كانت السبب الأهم في ضياع استقلال مصر .

وفي تلك الأثناء كانت دولة الأتراك العثمانيين ينمو سلطانها ويقوى . وبدأت القبائل التركمانية تنضوي تحت لوائها (سنفرد لعلاقتها مع المماليك فصلاً خاصاً) وبذا أصبحت خطراً كبيراً على حكم مصر في آسيا إلا أنه رغم ذلك فقد أخضع المماليك إمارة ذي الغادر مرة أخرى إخضاعاً تاماً لحكمهم «فوضعوا عليها جزية كبيرة وحتموا عدم تولية سلطان على عرشها إلا بإذن سلطان مصر ، ثم بعد ذلك في عام ١٤١٧ م خلعت المعاقل التي على حدود أرمنيا نير الطاعة المصرية ، فخرج لهم السلطان شيخ في ربيع عام ١٤١٨ م مستصحباً معه الخليفة وقاضي القضاة وزحف بجيش قوي استرد به طرسوس وأخضع المتمردين ومما ساعده على نصره هذا تشاغل الأتراك عنه بحروبهم مع التتار في آسيا لاسترداد مُلكهم الذي أضاعه تيمور .

وفي نفس السنة أيضاً أخضع زعيم كردي يُدعى «قره يوسف» (ورد ذكره في العلاقة مع التتار) قبيلة «قره قيون» وتولّى رياستها وقيادة جنودها وأخضع بهم بلاد كردستان كلها . ومن ثم عاد قاصداً غزو سوريا فعاد السلطان شيخ مرة أخرى إلى سوريا لإخضاع المتمرد ، إلا أن قره يوسف ترك سوريا وعاد إلى الشمال مبقياً في حوزته أرمنيا ، وتجرأ لذلك تركمان آسيا الصغرى فاستولوا أيضاً على طرسوس ، وعند ذلك أرسل شيخ أكبر أنجاله على رأس الجيش ليعيد إلى مصر ولايتها المفقودة فتوغل في آسيا الصغرى في غزوة موفقة مستولياً على كل ما في طريقه حتى وصل إلى «قيصرية» وبعد أن أدّب العُصاة وطرد قره يوسف وأعوانه وأجلى التركمان عن الحدود المصرية عاد في موكب حافل إلى مصر .

وفي مايو عام ١٤١٠ م عاد «قره يوسف» مرّة أخرى لتهديد الحدود المصرية ، طالباً إعادة المنهوبات التي أُخذت منه ومنها جواهره النفيسة الغالية الثمن وكان شيخ السلطان في حالة النزع الأخير فلم تتحرك الجنود لصده . وعقب وفاة شيخ أزمة طويلة استمرت في مصر لتولي العرش بين المماليك الذين بقوا يتنازعون الحكم بينما كان قره يوطد دعائم حكمه في

شمال سوريا وبقيت الحالة كذلك حتى عام ١٤٢٩ في حكم برسباي عندما أغار «قره يلك» زعيم القبائل التركمانية التي كافأه تيمور لمساعدته له في حروبه ضد مصر بإقطاعه إمارة «سيواس» على الحدود المصرية فأرسلت مصر حملة تأديبية لإعادة الأمن إلى نصابه فخربت هذه الحملة المدن والحصون وكل ما قابلته في طريقها وهدمت مدينة الرها وباعت أطفالها ونساءها في أسواق الرقيق ، وقد سلَّم ابن قره يلك إحدى الحصون إلى المصريين بشرط خروجه بنفسه إلا أنه رغم ذلك أسره المصريون . وحدثت ثورة بين الجنود كانت نتيجتها أن الجنود أبوا التقدم بل عادوا أدراجهم إلى سوريا فما كان من قره إلا أن عاد لينتقم لولده الأسير ، وأغار إغارة شعواء على الحدود السورية ولكن الطاعون والوباء فتكا بجنده فتكاً ذريعاً وانتهت بذلك الحرب التي لم يقدر على إتمامها .

وفي أثناء ذلك كانت الجنود المصرية تحتل بقية الولايات الآسيوية التركمانية لتحافظ على ولائها لسلطان مصر فكانت حامية في «كرمان» وأخرى في «ذي الغادر» وقد حدث في أثناء تلك الحروب أن أسر ابن حاكم ذي الغادر فأوفدت أمه إلى مصر هدايا نفيسة وجواري لتحصل من سلطان مصر على العفو عن ابنها .

وفي الأعوام التالية بدأ الشاه روخ يدفع حُكام الولايات التركمانية الخاضعة لمصر إلى الثورة ويمدهم بالجند والذخيرة ولكنه حدث في أثناء ذلك أن مات «قره يلك» في أغسطس سنة ١٤٣٥ بينما كان يقاتل بجانب الشاه مع زعماء الوبر في «أزرنجان» إلا أن أحد أولاده تولَّى زعامة القبائل بدلاً منه وثار على حكم مصر وقام معه أيضاً في ثورته هذه كثير من زعماء القبائل إلا أن برسباي أرسل حملة في يونيه ١٤٣٨ مظفرة بسطت نفوذ مصر على النصف الشرقي من آسيا الصغرى بينما كان النصف الغربي تحت حوزة الأتراك العثمانين .

ومنذ عهد برسباي تحسنت علاقة المماليك بالإمارات الآسيوية ففي

عهد جقمق عام ١٤٤٣ م ، توالى حضور الوفود من كل الإمارات الآسيوية التي طالما شقت عصا الطاعة حاملة الهدايا الغالية ، مؤكدين ولاءهم لحكم مصر وكانوا يستقبلون في مصر استقبالاً ملكياً ـ وقد حضرت مع إحدى هذه الوفود ابنة أحد أمراء ذي الغادر فعقد عليها السلطان وتزوج اثنتين من أميرات آسيا الصغرى غير هذه ، إحداهما عثمانية اسمها «شاه زاده» وفي هذا العصر نجد كثيراً من سفارات الولاء والإخلاص التي تبادلت بين البلاطين التركي والمصري .

وفي عام ١٤٥٧ م قام زعيم «الوبر الأسود» يُناوىء حكم مصر في آسيا ، فقام زعماء الوبر الأبيض لكي ينال نفوذاً في عيني مصر وهاجم زعماء الوبر الأسود وهزمهم هزيمة منكرة وأرسل رسالة إلى مصر ينبئها بذلك وكان ذلك في عهد إينال . وقد قام هذا السلطان بحملة ضد رئيس كرمان الذي اعتدى على حدود سوريا واستولى على أطنة وطرسوس وعلى هذا أرسل جيشاً إلى آسيا الصغرى فحاصر قونية وقيسارية وضرب أرضهما ، ولم يبقَ على قلعة أو مدينة فسلَّمت كرمان من غير قتال وأُعيد السلم إلى نصابه في ١٤٥٨ م .

وفي عام ١٤٦٢ م في عهد السلطان خشقدم كانت سلطة الولاة الأتراك في قبائلهم قد قويت جداً حتى أن هؤلاء أصبحوا لا يأبهون بحكم مصر ولا بنفوذها فأراد هذا السلطان أن يتبع طريقة تمكنه من أعدائه جميعاً وذلك بأن يتبع طريقة «فرِّق تسد» فأغرى «أوزون حسن» أحد أمراء القبائل بأن يستولي على خربوط التابعة إلى صاحب ابلستين أحد الأمراء التابعين لمصر . وفي نفس الوقت أوعز إلى هذا أن لا يسلم المدينة وأن يقابل القوة بمثلها ، إلا أن صاحب ابلستين «أصلان» فطن لحيلته فاغتاظ منه السلطان وأرسل وراءه فدائياً من المماليك قتله بطعنه خنجر . فشق أخوة أصلان الطاعة على حكم مصر وكان الأتراك يقصدون حاكم ذي الغادر والشاه سيوار في استيلائه على الولايات بينما كانت مصر ترجو أن تعين مملوكاً من مماليكها فكانت حملة

مصرية لمساعدة أنصارها ضد «سيوار» خليفة أصلان الذي يعضده الباب العالي وبهذه المساعدة تمكن من أن يطرد الجيوش المصرية وغزا أراضي الحدود حتى بلغ إنطاكية وطرسوس . ولما نال سيوار جميع أغراضه من الفتوح أراد الصلح مع المصريين على أن تبقى في يده فتوحاته كلها فأعاد إلى مصر جميع الأسرى المصريين مع بعث حبي ولكن السلطان رفض شروطه وأرسل جيشاً آخراً ليطمئن على شرفه العسكري إلا أن نصيب هذا الجيش كان مثل سابقه فقد استدرج جيش قايتباي إلى ممر عند عينتاب وهناك أوقع به سيوار هزيمة مخزية . وعندئذٍ دبَّ الرعب إلى قلب السلطان فأرسل له جيشاً ثالثاً هُزم أيضاً . وعندئذٍ سمى سيوار نفسه ملكاً على سورية إذ أن أكثرها كان تحت مطلق سلطانه وعند ذلك علم قايتباي أنه لا طاقة له بحرب سيوار ما دام يعضده الباب العالي فأرسل إلى تركيا وفداً وسلَّم بمطالب الأتراك كلها في إمارة ذي الغادر وغيرها . وعندئذٍ كف الباب العالي عن مساعدة سيوار فهزمته جند قايتباي واضطر أخيراً أن ينزوي في معقله في ابلستين ثم رضي أخيراً أن يسلِّم كتابع للسلطان فوعد بذلك . فسار مع حاشيته إلى معسكر المماليك ليتلقى الخلعة الملكية والفرمان بتوليته والياً على ابلستين ولكنه كان مخدوعاً إذ أنه حال وصوله للمعسكر قبضت عليه الجنود المصرية مع أتباعه ليُحلي بهم السلطان موكبه عند عودته لعاصمة ملكه وفي القاهرة أجبر هذا الزعيم التركماني على الوقوف في حضرة قايتباي ليهزأ به أمام حاشيته ثم سيقَ أخيراً مع أقاربه إلى القتل .

وفي ذلك الحين بعد أن تخلصت مصر من سيوار ظهر زعيم آخر تركماني انتصر انتصارات باهرة في ميادين الحروب حتى خشيت مصر نفوذه فقد قام «أوزون حسن» بقهر زعيم «قرة قيون» كما ذكرنا وأرسل رأسه لمصر ، وكان غرضه من ذلك أن يظهر ولاءه للجالس على العرش المصري ورغم كل ذلك ورغم الوفود التي كانت تقدم متتالية تحمل الهدايا والنفائس والخضوع من أوزون للعرش المصري إلا أن مصر كانت تخاف عبث جنوده بالحدود المصرية ، ولما عاد أوزون إلى آسيا الصغرى بعد أن أخضع أواسط

آسيا كلها لنفوذه ، أراد أن يُخضع الإمارات التركية لحكمه إلا أن مدفعية محمد الثاني أوقعت الرعب بصفوفه ١٤٧٢ م ومات أوزون بعد ذلك من الحزن عام ١٤٧٥ م ، ومع أن الأب كان موالياً لمصر ، إلا أن ابنه وقف موقف المناوىء لسلطانها وقاتل الجيش المصري وحاول أن يستولي على الرها عام ١٤٨٢ . وعندئذٍ استتب السلام بين ابن أوزون وقايتباي لأن هذا الزعيم التركماني أخلى ميدان الحرب لقوة أعظم منه حلّت مكانه ووحدت جميع القوى التركمانية والتركية تحت سلطانها إذ اتحدت أكثر القبائل والإمارات تحت سلطان «بايزيد الثاني» سلطان تركيا فتولّى سلطانها وقيادتها ووحّد جهوده كلها ضد مصر وسلطانها قايتباي . وموعد كلامنا عن هذه العلاقة الجديدة الفصل القادم .

— ١٠ —

علاقة المماليك بالأتراك العثمانيين

المشهور أن الأتراك منشأهم الأصلي جبال الطاي ثم جاءوا أوروبا زُمُراً في طلب الرزق أو الغزو قبل الميلاد المسيحي ، لأن اسمهم «تركي» ذكره بومبونيوس وميلاويليينيوس الرومانيان وكانوا يومئذٍ على ضفاف تنايس «دون» ثم جاء ذكرهم في سفارة حملها زيمار خوس من امبراطور القسطيطينية سنة ٥٦٩ م إلى الخان الأعظم في الألطاي . وقد وصف الأتراك هناك أنهم بدو يقيمون في خيام مضروبة على المركبات ويحرقون موتاهم وينصبون لهم التماثيل ويضعون فوق قبور الظافرين أحجاراً خاصة .

ثم ظهرت أمة الأنوغور وانقسمت إلى قسمين «الأونوغور»[1] في الجنوب و «الطقوز اوغور[2] » في الشمال ، ثم اندمج الأنوغور في الفينيين (Fens) عند الفولغا وظلَّ الطقوز أوغور بعيدين عن غيرهم من العناصر وعرفوا في التاريخ باسم أوغور فقط وكان بعضهم يقيمون في (طرفان) بأسفل جبال تيانشان وهو المكان الذي بلغ إليه الرحَّالة فون ليكوك سنة ١٩٠٦ ودرسه ونقَّب عن آثاره وحمل منه كتباً خطية في عشر لغات مختلفة واكتشفوا أيضاً جثثاً بوذية لا تزال بألبسة الرهبان وكان قد قتلهم الاوغور المسلمين في حرب نشبت بينهما . وكان يقيم بجوار الأوغور قبيلة

(١) معناها عشرة أو غور لأن الأون باللغة الطورانية تساوي عشرة .
(٢) معناها تسعة أو غور لأن الطقوز باللغة الطورانية تساوي تسعة .

تُسمى الأوغوز (الأولى بالراء والثانية بالزاي) ومنهم بقية في بخارا وما يجاورها وهم الأزابكة . ويُعرفون في غربي تركستان بالتركمان وفي آسيا الصغرى بالعثمانيين نسبة إلى جدهم عثمان ابن ارطغرل .

والسبب في قدوم هؤلاء الأتراك إلى آسيا الصغرى أنه في القرن الثاني عشر أو القرن الذي تلاه أن العباسيين أغروا كثيراً من التركمان والسلاجقة على القدوم لآسيا الصغرى ، وكان يأتي في أثر هؤلاء المهاجرين قبائل من بني جنسهم يساعدونهم ويشاركونهم في القبائل ومن ضمن هذه القبائل الصغرى والطفيلية كانت قبيلة الأوغوز الذين تبعوا السلاجقة في دورهم لآسيا الصغرى فاقتطعوا ولاية بجوار أنقرة مكافأة لهم على خدماتهم للسلاجقة ، ومن ذلك بدأ نجمهم في الارتفاع حتى تمكنوا في مدة قصيرة من وراثة الدولة السلجوقية ثم أخضعوا أكثر القبائل التركمانية خصوصاً التي في شرق آسيا لسلطانهم ، ولما تأيدت دولتهم في آسيا قطعوا البوسفور إلى أوربا وورثوا الدولة البيزنطية وأقاموا في البلقان وسُموا بالعثمانيين . وجاء يوم دانت لهم فيه شمال أفريقيا كلها وشرق أوربا وغرب آسيا وامتدت فتوحهم من بلاد الهند والصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن خط الاستواء جنوباً حتى حدود روسيا شمالاً .

وكانت العلاقة بين مصر والأتراك كما بينّا في الفصل السابق علاقة مودة حيناً وعلاقة عداء حيناً آخراً تبعاً لمطامع الفريقين في الولايات التركمانية إلا أن الغالب أنها كانت علاقة صفاء ومودة في غالب الأحيان حتى أنه في عهد اينال لما استولى العثمانيون على القسطنطينية في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م كان وقع هذا الخبر مفرحاً جداً في مصر وكان الناس في مصر يترقبون أخبار فوز العثمانيين وتوغلهم في أوربا بالسرور والحبور ، وسارت الوفود بين الدولتين حاملة البشائر والتهاني ورفع السلطان اينال إلى محمد الفاتح لاستيلائه على الأستانة ، التهاني مع قصيدة ملكية ومعها رسالة تهنئة بالنصر .

ولم تستمر طويلاً هذه العلاقات الودية إذ لم تلبث الظروف أن ساقت عوامل التوتر بين الفريقين ، فقد حدث أن وصل إلى مصر رسول من قِبَل الفاتح «محمد الثاني» حاملاً رسالة إلى السلطان المصري «خشقدم» وقد اعتبر السلطان هذه الرسالة غير ودية . وزاد الأمر شذوذاً أن الرسول رفض أن يركع في حضرة السلطان وكانت العادة إذ ذاك أن يقبّل الرسول الأرض بين يدي السلطان ، معتذراً أنه مسلم يصلي لله وأنه يصعب عليه أن يركع لمخلوق بعد أن ركع للخالق . ورغم كل ذلك كان السلطان المصري بدأ أن يخشى ازدياد نفوذ هذه الدولة الفتية فأظهر للرسول استعداده أن يبعثه ومعه هدايا نفيسة إرضاء للباب العالي فرفض الرسول قبول الهدايا بحُجة أن مقام السلطنة العثمانية يدعوه إلى إرسال الهدايا مع سفارة مصرية خاصة تليق بمقام الباب العالي .

والسبب الحقيقي في توتر العلاقات بين هذين القطرين أن كلاً من البلاطين المصري والعثماني كان يعضد مطالب خاصة في ولاية كرمان وكان يجد البلاط الآخر فيها مساساً به . ومن هذه المطالب أن محمد الفاتح كان يرشح ابن أميرة تركية لعرش ولاية كرمان بينما كان خشقدم يعضد ابن الوالي السابق الذي هو أحد مماليكه وقد تمكن هذا بمساعدة «أوزون حسن» (الوارد ذكره في الفصل الخاص بعلاقة المماليك بالدول التركمانية) من التغلب على منافسه والاستيلاء على العرش ولكن ابن الأميرة التركية عاد إلى العرش مثبتاً عليه بواسطة الجنود العثمانية . وكان الرسول الذي قدِم مصر قدمها لهذا الغرض خصيصاً ليُوطد عرش صاحبه وقد قبل خشقدم مكرها هذه المطالب بينما كان يدس له الدسائس ورغم عدم قيام حرب بين الدولتين فقد كان كلا البلاطين يمقتا بعضهما .

بقيت هكذا العلاقات بين البلدين متواترة وزادها النزاع على الإمارات التركمانية (تجده مفصلاً في غير هذا الفصل) توتراً وأصبح كلا البلاطين يطلب الحرب ويدعو لها . وقد أصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى عام ١٤٨١ ، فقد حدث أنه عندما اعتلى العرش العثماني السلطان

«بايزيد الثاني» نازعه العرش أخوه جم واستعرت بينهما حرب داخلية انهزم فيها جم في آسيا الصغرى وفرَّ إلى الحدود المصرية محتمياً في طريقه بصديقه أمير أمارة كرمان وعندما دخل الأمير جم الأراضي المصرية استُقبل استقبالاً ملكياً ورحَّب به السلطان المصري «قايتباي» ترحيباً ملكياً وسيَّره إلى مكة حاجا بعد أن أعطى له ولأسرته الأمان الملكي .

وكان هذا الأمير نحساً وبائساً في جميع أعماله . فإنه عاد بعد الحج إلى مناوأة الباب العالي وبمساعدة الجنود الكرمانية غزا آسيا الصغرى ولكنه فشل فشلاً مريعاً فالتجأ إلى رئيس فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس «المولى الأعظم» وقد حاول بايزيد وقايتباي كل منهم لغرض في نفسه أن يقبل الأمير في بلاطه ولكن فضَّل أن يلتجيء إلى البابا محتمياً به وقد رحَّب البابا بهذا الأمير ترحيباً عظيماً لأنه كان على وشك تسفير حملة صليبية جديدة مؤملاً في استصحابها للأمير معها آمالاً عظيمة . ولهذا الغرض أبقى البابا هذا الأمير اليائس في رومية حتى مات بها مسموماً بعد أن عدل البابا عن حملته الصليبية وقبل موت هذا الأمير عرض قايتباي عروضاً جمة في مقابل حصوله على هذا الأمير المنكود حتى أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن قايتباي عرض مقابل الأمير بيت المقدس ولكن البابا علم أنه وإن استولى على بيت المقدس لا يمكنه الاحتفاظ به فقبل ثمن الأمير جم من الباب العالي ثم تركه يموت بالسم كما ذكرنا .

كانت هذه الأسباب السالفة الذكر سبباً في ازدياد كراهية بايزيد للمصريين ، وإذا أضفنا إلى الأسباب المتقدمة استحواذ المصريين على هدايا مُرسلة من الهند إلى بايزيد منها خنجر نفيس مُرصع بالمَّاس والياقوت ، ورفض قايتباي إصلاح مجاري الماء في دروب مكة ، ورغم أن قايتباي شعر بخطئه فأعاد الخنجر وبقية النفائس إلى تركيا مع رسول خاص إلا أن رسوله قُتل وهجمت الجنود التركية بدون سابق إنذار عام ١٤٨٥ م على الحدود السورية وهدموا طرسوس واستولوا على اطنة . واستمرت الحرب إلى العام

التالي حيث أحرزت مصر نصراً مبيناً في موقعة بجوار اطنة .

لم يخضع الأتراك لهذه الهزيمة إلا ترقباً للظروف ففي عام ١٤٩٠ م وقع خلاف على عرش ولاية أبناء «ذي الغادر» المشمولة بحماية المصريين ، إذ نازع أخ أصغر أخاه الأكبر المستحق للعرش شرعاً فعاضد المصريون صاحب الحق الشرعي بينما انحاز العثمانيون لجانب مزاحمه . وعندئذٍ أرسل قايتباي جيشاً ضخماً قوياً إلى آسيا الصغرى أخضع الولاية إلى النفوذ المصري وثبت عرش حاكمها الشرعي وتقدم إلى آسيا الصغرى فأوقع بأهلها وهزم الأتراك في «قيسارية» هزيمة منكرة وعاد قايتباي إلى مصر ومعه آلاف من الأسرى ومئات من الأسلاب والنفائس ودخل القاهرة في موكب حافل ومرَّ تحت أقواس النصر إلى مقره الملكي بين أصوات الفرح والتهليل . ولكن قايتباي كان يعلم معنى سكوت الأتراك إذ لا بد أن يكيدوا له من حيث لا يدري وأن يعودوا يوماً للإقتصاص منه . ولكن مما هدأ مخاوفه أنه وصله في ذلك الحين رسول من الباب العالي سنة ١٤٩١ م ومعه الأسرى المصريون وهدايا ملكية لقايتباي من الباب العالي مع شروط للصلح من صالح مصر فقبلها المماليك فضاً للحرب التي كان الأتراك في شاغل عنها لاهتمامهم بالتوغل في أوربا وحصار بلغراد .

انتهت هذه الحروب وعاد السلم إلى نصابه بين الدولتين ، واستؤنف إرسال الوفود والهدايا الغالية ومع ذلك كانت أسباب النفور متوفرة ، إذ أخذ العثمانيون من جهة يحرضون القبائل والإمارات التابعة لمصر على التخلص من سيادتها ، ويضعون العراقيل في سبيل تجارتها مع غربي آسيا وأواسطها مما جعل ورود الصوف ومنسوجاته وأنواع الفراء الفاخرة والمماليك الجراكسة إلى البلاد المصرية نادراً جداً بل ممتنعاً في أواخر أيام الغوري ، وكان أشدها على المصريين امتناع ورود الرقيق من المماليك ، إذ هم مادة الجيش ورجال الحكومة . ومن جهة أخذ سلاطين مصر يجيرون كل من التجأ إليهم من أبناء السلاطين العثمانين والأمراء الفَّارين من وجه الدولة

العلية ثم استرسلوا في الأمر وهبوا يوادون من عادى العثمانين من سلاطين الدول المجاورة لهم مثل «أوزون حسن» سلطان العراق ومن بعده الشاه اسماعيل الصفوي(١) وكانت علاقة الدولتين التركية والمصرية بهذا الأمير سبباً للحروب الهائلة التي انتهت بعدئذٍ بضياع استقلال مصر وانضوائها تحت حكم الأتراك والمماليك البكوات .

ولما كانت العداوة مستحكمة بين السُنيين الأتراك والشيعة من أتباع الصفوى ، فقد حاول الصفويون التقرب إلى المصريين نكاية بالأتراك وحاول الشاه اسماعيل أن يعقد مع الغوري سلطان المماليك محالفة دفاع وهجوم فلم يفلح لبعد ما بين الأمتين في المذهب وذلك من أغلاط الغوري ، وحدث أن مرَّ إذ ذاك بتركيا بعث من أتباع الشاه يطلبون السماح لهم بعبور

---

(١) الشاه اسماعيل الصفوي هو المؤسس الثاني لدولة إيران وهو من سلالة صفي الدين ، وإليه ينتسب ومنه أخذ اسمه وقد وُلد في قرية ـ أردبيل ـ وفيها نشر تعاليمه الصوفية أول الأمر ومنها انتشر صيته وتعاليمه إلى جميع الجهات المجاورة ، وخصوصاً في جهات أذربيجان في القرن الرابع عشر ، وقد نالت عائلته نفوذاً هائلاً بسرعة مدهشة في تلك الجهات ، ولما كانت تلك الأنحاء خاضعة لحكم ـ الوبر الأسود ـ فقد طارد هؤلاء الصفويين مطاردة هائلة فالتجأ الصوفيون إلى معونة ـ الوبر الأبيض ـ وارتبطوا معهم برابطة الزواج والمصاهرة خصوصاً بين عائلتي اسماعيل وأوزون حسن وفي موقعة عام ١٥٠٨ م بين الوبر الأبيض مع الصفويين ضد الوبر الأسود قتل والد اسماعيل وحمل اسماعيل بنفسه أسيراً وكان لا يزال طفلاً إلى ـ اصطخر ـ ومنها هرب إلى لي ـ لجيجان ـ حيث اختفى عند أقربائه من الوبر الأبيض وهناك تعلَّم أصول المذهب الصوفي وأتقنها وأشرب بها دمه وأعتنقها بحماسة شديدة ثم تولَّى رئاسة الطائفة الصوفية وصممَّ على الانتقام من قتلة والده فهاجم الوبر الأسود وهزمهم هزيمة منكرة ومن ثم أصبح ذا سطوة عظيمة ففتح فارس وخراسان والجزيرة . ومن ثم عاد إلى أذربيجان وبذا أصبح خطراً هائلاً على الأتراك لتغالي شيعته في معتقدهم وأعمالهم الوحشية في سبيل نصرة مبادئهم وليزيد اسماعيل في العداوة القائمة بينه وبين الباب العالي ، ربَّى خنزيراً سماه بايزيد ونحن نعلم طبعاً مقدار الإهانة التي تلحق مسلم يُسمى باسم هذا الحيوان .

البوسفور إلى أوربا ليسافروا إلى البندقية ، فقبض عليهم السلطان بايزيد وسجنهم نكاية في الشاه الذي التمس من الباب العالي أن يسمح لبعوثه بالمرور إلى أوربا فرفض الأتراك ذلك الملتمس بشكل مزر ، فأرسل الشاه بعثاً آخراً إلى البنادقة عن طريق مصر سوريا يدعوهم إلى مساعدته في حربه ضد الدولة العلية ، وسمح الغوري لهذا الوفد بالمرور فغضب بايزيد من الغوري واشتكى إليه مر الشكوى في خطاب أرسله إليه مع سفير لسماحه لهذا الوفد بالسفر من سورية ، وأراد الغوري أن يترضاه فحجز البنادقة الذين كانوا داخل حدود مملكته ، ولكن في العام التالي حضر لمصر أسطول بندقي فخشي قانصوه عاقبة ذلك فأطلق سراح المحجوزين وكانت هذه الترضية كافية وحسنت العلاقات بين الدولتين حيناً قصيراً .

وعندما تولى العرش السلطان سليم هرب ابن أخيه «قاسم» من تركيا إلى مصر والتجأ أخوه مراد أيضاً إلى الشاه اسماعيل وكان السلطان سليم يريد قتلهما ، فطلبهما منهما فلم يجيباه وكان ذلك إذا أضفناه إلى طبيعة سليم الحربية وإلى خوفه من استفحال دعوة الشاه اسماعيل الذي اتحد مع مصر في محالفة صداقة سياسية وتناصر حربي ، وكان أحمد أخ السلطان سليم قد انحاز إلى الشاه مستصرخاً إياه لحمايته فضمه إلى جيشه الذي أعده لمناوأة سليم .

وكان سليم يخشى الرعايا الأتراك الشيعيين الذين كانوا يميلون إلى متعصبي الصوفيين فقبض على عدد كبير منهم وخصوصاً من زعمائهم وعائلاتهم وقتلهم ، فانتهز اسماعيل هذه الفرصة واتخذها حُجة لشن الغارة على سليم ولكن سليم سبقه وهاجم مدنه وقراه . وتقابل الجيشان في موقعة فاصلة بقرب تبريز انهزم فيها اسماعيل وشيعته رغم ما أبدوه من البسالة الهائلة ورغم اشتراك نسائهم معهم في المعركة والقتال . فقد تتبعت فرسان الأتراك بمدافعهم فلول جيش اسماعيل حتى أفنوا أهم جزء فيه أما سليم وجيشه فقد أعوزته الميرة أثناء هذه المطاردة فعاد ليقضي الشتاء في أماسية

وفي الربيع الذي تلاه عاد واستأنف القتال وأراد أولاً أن يشق له طريقاً مأموناً إلى بلاده فهاجم صاحب «ذي الغادر» الذي كان حائلاً بينه وبين بلاده والذي لازم الحياد طول مدة الحرب لتبعيته لمصر حليفة اسماعيل ، وقبض عليه وقتله وأرسل رأسه في درج مع رسالة تُنبيء بفوزه إلى الغوري . وعندما اطمأن من هذه الوجهة هاجم الشاه مرة أخرى واستولى على عدة قلاع وحصون ومدن أهمها «ديار بكر» و «الرها» و «نصبين» وأخضع «الجزيرة» و «الموصل» .

وعندئذٍ أصبح سليم في مأمن من مخاوفه من الشاه والشيعة فتفرغ للإيقاع بالمصريين وليعد له امبراطورية هائلة بالإستيلاء على مصر وأملاكها . فاستعدَّ لذلك بأنه جنَّد جنداً كثيفاً وجهزه بجميع المعدات في ربيع عام ١٥١٦ ، ولم يعلن غرضه من تجهيز هذا الجيش حتى لا تلتفت مصر لهذه الاستعدادات الهائلة بل أعلن السفير المصري أن هذا الجيش أُعِد للقضاء على بقية جيش الشاه . وكان ذلك غفلة من الغوري أن ينتظر حتى ذلك الوقت بدون أن يدخل الحرب ضد سليم لأن بوادر العداء كانت متوفرة وكانت العلاقات بينهما مقطوعة ذلك لأن أخاً آخر لسليم ثار عليه والتجأ إلى مصر فأجاره الغوري واستقبله استقبالاً فخماً ، ثم بعد وفاة الأمير أحمد المتقدم الذكر أمدَّ المماليك ابنه الصغير وحاشيته بالجند والميرة لقتال سليم ، والأنكى من ذلك امتناع الأمراء التابعين لحكم مصر من إمداد جيش سليم بالميرة أو المؤونة أثناء قتاله مع الشاه ، بل فعلوا أكثر من ذلك إذ استولوا على الوارد منها من تركيا إلى الجيش المحارب قبل وصولها إلى يدي سليم أضف ذلك إلى المعاهدة التي أُبرمت بين الغوري واسماعيل التي تقتضي كلا منهما أن يعاون الآخر في حروبه وغزواته ، ولكن الغوري أضاع الفرصة لأنه لو ساعد الشاه بجنده وجيشه لكان خيراً له ولمصر ولجاءت النتيجة على غير ما انتهت عليه . ولكن الغوري السُني المذهب رفض أن يحارب سُنياً آخر ضد شيعي يكرة العالم الإسلامي كله مذهبه ويمقته. . . وبذا أضاع الغوري ، الذي أصبح غير قادر على القتال لتفرق المماليك من

حوله ولكبر سنه ، استقلال مصر .

* * *

علم الغوري بمقدار الخطر المحدِّق بعرشه بعد أن أضاع الفرصة بتأخره فأخذ في الاستعداد لملاقاة عدوه اللدود فاهتمَّ في شتاء عام ١٥١٥ في إعداد جيش مصري قوي قصد أن يسير به إلى آسيا الصغرى وعندما وصلت إلى مسامع سليم الأنباء عن قوة وعظمة الجيش الذي أعده الغوري له أراد أن يخدعه وأن يفوز عليه بالحيلة فأرسل له وفداً وصل إلى مصر عندما كان الجيش على وشك مبارحتها ، يعد الغوري بإعادة أواصر المودة والمصافاة بين البلدين وأن يتنازل عن مطالبه في إمارة «ذي الغادر» وأن يترك التجارة حرة وأن يسمح بمرورها من حدوده كما كانت من قبل .

وقد قبل الغوري هذه المطالب ولكنه رغم ذلك أراد أن يكون على استعداد للطوارىء فخرج بجيشه إلى الشام في صيف عام ١٥١٦ وقد جمع هذا الجيش أكثر من في مصر من رجال القوة الحربية والأدبية نخص بالذكر منهم الخليفة العباسي وقُضاة المذاهب الأربعة . ورؤساء مشايخ الطرق الصوفية ، والعلماء وكبار الأعيان والمهرجين والمغنين والمضحكين والعمال والصُنَّاع وغير ذلك ، واستعدَّ الغوري بأن جهز الإسكندرية بحامية قوية خوف مهاجمة الأسطول العثماني لها ، وحصَّن قلاع مدن السواحل كلها ووضع في الإسكندرية وحدها ٢٠٠ مدفع ، وخرج من القاهرة بعد أن أخلف على عرشه في مصر ابن أخيه الدوادار الكبير «طومان باي» في موكب حافل تتقدمه الطبول والزمور وتدق أمامه الكؤوس وترقص على أصواتها الراقصات ومرَّ الجيش حتى خارج المدينة على البُسط المفروشة والورد المنثور بين تهليل العامة وأفراحهم .

أما الجيش العثماني فقد خرج من القسطنطينية يتقدمه سليم على رأس جيش عدده ١٥٠ ألف مقاتل أشداء مدربين على القتال وخصوصاً الفرسان الذين اشتهر أمرهم في ذلك العصر مجهزين بالبنادق والمكاحل أي المدافع

وكان جيش الغوري[١] خمسة عشر أميراً وكل أمير يتبعه ألف رجل عدا كثير من أمراء الفئات الصغيرة . وخمسة آلاف مملوك من مماليك السلطان الخاصة وقد انضم إلى الجيش في سوريا عدد كبير من البدو والسوريين ، وأما حامية مصر التي تركها الغوري فيها فكانت مكوَّنة من ألفين من مماليكه الخاصة .

وقد استصحب الغوري في حملته هذه ابن أحمد السالف الذكر المُطالب بالعرش التركي ليستميل بواسطته مريديه في الجيش العثماني ، وبهذا الموكب الفخم ، دخل الغوري جميع المدن السورية بأبهة زائدة فاقت الحد في دمشق التي دخلها على مهر أصيل ماراً على بسط مفروشة طول الطريق حتى وصل إلى القلعة التي نزل فيها ، وفي أثناء سيره نثر التجَّار الأجانب العملة الفضية على موكبه . كما يقرر ذلك السير وليم موير .

ومكث السلطان أياماً في دمشق وغادرها إلى حلب وفي أثناء سيره وصل إلى معسكره وفد تركي آخر غير ذلك الذي توجه إلى مصر وعلى رأسه قاضي «عسكر النورم ايلي» ولم تكن مقاصد سليم من جميع هذه الوفود إلا التغرير بالغوري حتى يبطش به فجأة ، وكان هذا الوفد محملاً بالهدايا الفاخرة ، والهبات الغالية للسلطان وللخليفة ولكبير الوزراء ولقاضي القُضاة وغيرهم من كبار رجال المماليك . ولما أراد الوفد العودة أشار إلى أنه يطلب شيئاً من السكر المصري والحلوى الدمشقية وصرَّح الوفد بأن خروج سليم بجيشه لا يُقصد منه بأي حال من الأحوال مهاجمة مصر ولكن لتأديب اسماعيل الذي أصدر علماء الأستانة فتاوى شرعية توجب قتله وتبديد جيوشه . فاغترَّ الغوري بهذه الأقوال وأرسل وزيره «مقلة بك» على رأس

---

(١) وكان الجيش المصري يتكوَّن في الأحوال العادية من ٢٦ أميراً يتبعه ألف مملوك ، عدا مماليك أمراء المائة وأمراء العشرة ، وقد اشترى الغوري ثلاثة عشر ألفاً من المماليك أخذ منهم إلى القتال خمسة آلاف .

وفد مصري ومعه الهدايا المطلوبة إلى معسكر سليم وقد عرض هذا الوفد المصري على سليم توسطه في الصلح بينه وبين الشاه فغضب سليم وهمَّ بقتل الرسول وذلك لأن استعداداته كانت قد كملت فأراد أن يميط اللثام عن أغراضه السلمية التي يتظاهر بعكسها فتشفع أحد أمراء الأتراك في مقلة بك فأطلقه مهاناً مشعثاً مقصوص الشعر ، محلوق اللحية ، راكباً حيواناً أعرج بشعاً ، وبقية الوفد يتبعوه مشاة وقال له : «قل لأستاذك أن اسماعيل الصفوي خارجي وأنت مثله ، وأنا سأبدأ بك قبله ، وموعدنا «مرج دابق» وادٍ على بعد يوم شمالي حلب .

ولم يكتفِ الأتراك في محاولة خدعة الغوري بذلك فقط بل حاولوا ذلك عن طريق آخر بإغراء «خير بك» «وجان بردي الغزالي» والأول حاكم حلب ، على خيانة الغوري ورغم أن أخبار خيانتهما قد وصلت آذان الغوري فإنه رفض أن يقتص منهما قبل أن يثق بصحة هذه الإشاعات ، وقد استقبل «خير بك» في حلب السلطان استقبالاً فخماً ليخفي تحت وجاهة هذا الاستقبال خيانته المُزمعة لولي نعمته . وعندما وصل مقلة بك إلى المعسكر المصري وأنبأهم بموقف سليم وسرعة تقدم جنده ثار الأهالي السوريون على حكم المماليك لما أتاه الجند من الفظائع في جميع القرى والبلاد التي نزلوا فيها فأصبح موقف الغوري إذ ذاك سيئاً للغاية ولكنه رغم ذلك أقدم على الحرب فاستحلف الأمراء وكبار العلماء والقُضاة والمماليك الخاصة على الطاعة من جديد ووزع عليهم الهدايا ، فانقسم إذ ذاك المماليك فريقين فريق راضٍ وهو المماليك السلطانية الذين نالوا فضلاً عن مرتباتهم الهبات وفريق ساخط وهم المماليك الذين لم تصل إليهم هبات الغوري وصلاته . ولكنهم رغم ذلك لم يقدموا على خيانته ثم أسر له حاكم دمشق مرة أخرى عن خيانة «خير بك» ووافق مماليك البلدة على قتله وعندئذٍ صممَّ الغوري على قتله قبل الموقعة ولكن «جان بردي الغزالي» الخائن الثاني تدخل لمصلحة زميله ودافع عنه وأظهر أن قتله في هذا الموقف العصيب يشعل فتنة في ميدان القتال فرجع الغوري عن عزمه وكان ذلك من أكبر غلطاته مع أنه قتل بعض

الأمراء الذين اضطروا إلى خدمة السلطان سليم أثناء وجودهم أسرى في حوزته . ولما سنحت لهم الفرصة فروا إلى حظيرته مرة أخرى ولم تشفع لهم هذه الظروف فقُتلوا .

انتهت الاستعدادات الحربية يوم ١٩ أغسطس وتقدم الجيش في ٢٠ منه إلى «مرج دابق» وعسكر فيه وكان الجيش المصري مكوناً من ٣٠ ألف مقاتل ، وخلف الغوري بقية جيشه مع أمواله وذخائره في قلعة حلب الحصينة . انتظر الجيش المصري في السهل وصول العدو ، وهناك كان سيقرر مصير الامبراطورية المصرية . وفي يوم (الأحد ٢٤ أغسطس ١٥١٦) أو (٢٥ رجب سنة ٢٢٩ هـ) دهم العثمانيون المماليك بجيش يربي على الجيش المصري بأضعاف فعبأ الغوري كتائبه وكان من غلطاته الكبرى أنه آثر مماليكه الخواص فأراد أن ينجيهم من هول ذلك اليوم بتأخيرهم عن الصفوف الأولى ، وقصَّر في استجلاب مودة المماليك القدماء من عتقاء السلاطين والأمراء ففسدت نياتهم وانضمَّ ذلك إلى خيانة «خير بك» «وجان بردي الغزالي» فعندما التحم الجيشان حملت الميمنة والقلب حملة موفقة أزالت بها الأتراك عن موقفهم وأوقعت بهم خسائر جمة . واستولت على مواقعهم وذخائرهم ويئس سليم من النصر وكاد يهرب لولا أن انهزم خير بك بالجزء الذي يقوده من الجيش وفسحوا الطريق أمام فرسان الأتراك لينقضوا على الجيش المصري من ظهره وكان خير بك يقود «الميسرة» وتبعه في الخيانة زميله جان بردي الغزالي بجزء آخر من الجيش وبذا اختلَّ نظام الجيش المصري واستعمل الأتراك إذ ذاك مدفعية جيشهم التي لم يكونوا قد بدأوا باستعمالها قبل ذلك فحصدت أفواجاً جمة .

وعند ذلك اعتصم الغوري بربوة ومعه مماليكه الخاصة الذين لم يكونوا قد اشتركوا في المعركة ففقد المماليك القدماء همتهم وضاعت قوتهم المعنوية وتخاذلوا عندما رأوا الموت يحصدهم بينما غيرهم في نهاية الصفوف بعيداً عن القتال فركنوا إلى الفرار تاركين الحرب للغوري

ومماليكه . وعندئذٍ تقدم بجنده الخاص وأرسل يستسمح المماليك ويدعوهم لاستئناف القتال فلم يلتفتوا له ففلج لساعته وسقط عن جواده وتابع الهاربون سيرهم إلى دمشق لأن أبواب حامية حلب أُغلقت في وجههم ، أغلقها أهل المدينة . وانحاز الخليفة وكبار العلماء إلى سليم ، وقُتل الغوري في هذه المعركة وحمل رأسه إلى الفاتح ، وتختلف الروايات في مقتل الغوري فيقول بعض المؤرخين أنه هلك تحت أرجل وسنابك الخيل أثناء الموقعة ويدعي غيرهم أنه وُجد حياً في الميدان فقطع رأسه أحد مماليكه منعاً لوقوعه في يد العدو ، ورواية أخرى تركية تقول أن الذي قطع رأسه تركي فأراد سليم أن يقتله ولكنه عاد فعفا عنه ، وقد قرأت لكثير من المؤرخين الذين ينكرون بتاتاً إشاعة العثور على جثة الغوري بل يؤكدون ضياعها في غيرها من جثث القتلى . وانتظر أهل حلب قدوم السلطان سليم فسلموه المدينة واستولى على قلعتها بدون قتال وغنم منها الألوف من الأموال والذخائر التي تركها الغوري فيها وخطب باسمه في مسجدها وانضمَّ إليه خير بك وغيره من خونة المماليك وحلقوا لحاهم وتزيُّوا بزي الأتراك . ثم ذهب سليم إلى دمشق في ١٦ أُكتوبر فاستولى عليها ودانت له جميع مدن الشام بلا منازع ومكث بها مدة ثلاثة أشهر يرتب نظامها ويحكم أمورها .

وقد أكرم سليم مثوى الخليفة العباسي واحتفى به حفاوة هائلة وأجلسه على يمينه في مجلسه ولكنه وبَّخ القُضاة (لم يفر منهم إلا القُضاة الحنفية) لعدم إمكانهم وقف فوضى المماليك التي ضجَّ منها السوريون حتى أنهم انتظروا قدوم الأتراك بفرح لإنقاذهم من مظالم المماليك ، وكان سليم فخوراً بنفسه جداً متعجرفاً فأراد في قلعة حلب التي لم يبقَ أحد بداخلها يحميها ففتحت له الأبواب في الحال وقد وُجد في هذه القلعة من النفائس ما يقدِّره بعض المؤرخين بمبلغ (مائة مليون قطعة ذهبية) وفي أواسط شهر ديسمبر من تلك السنة عادت فلول الجيش المنهزم من المصريين إلى البلاد وهم في حالة يُرثى لها واستمرَّ قدومهم طول الشهر الذي تلاه . وبذا تمَّ اجتماع أكثر زعماء

المماليك مرة أخرى في الديار المصرية ومن هؤلاء الذين عادوا جان بردي الغزالي الخائن الذي مرَّ ذكره والذي عاد لمصر ليكون جاسوساً للأتراك وصنيعة لهم في مصر فقد سقطت في أيدي الأتراك «طرابلس» و «صفد» وغيرها من المعاقل السورية ، وفي أول ديسمبر خرجت حملة من مصر بقيادة «جان بردى» لتنقذ غزة من العثمانيين ، ولكن هذا المجرم عمل على إضعاف قوته ليسهل سقوطه أمام الغُزاة ، ففرّق جنده في طول البلاد وقابل الأتراك بقوة صغيرة ردته على أعقابه قبل وصوله لغزة .

أجمع الأمراء الذين وصلوا مصر كما أسلفنا من الشام مع غيرهم من الزعماء المصريين على تنصيب طومان باي سلطاناً على الديار المصرية خلفاً للغوري في ١٧ اكتوبر سنة ١٥١٦ م وفي عهده خرجت حملة الغزالي لإنقاذ غزة وتلك كانت أولى محاولاته في الدفاع وكانت خيانة الغزالي له وانهزامه المريع وتشتت جيشه ضربة قاضية على محاولاته الخائبة ، فبعد سقوط هذه المدينة التي تُعتبر مفتاح مصر من الشمال ، وصل لمصر وفد عثماني ، يطلب من طومان باي أن يعترف بأن تكون السكة المضروبة باسم سليم ، وأن يذكر اسمه بالدعاء في الخطبة ، وأرسل مع وفده خطاباً يقول فيه مخاطباً طومان باي «افعل هذا تسلم مصر ، فإن رفضت فسأغزو بلادك وأُزيلك أنت ومماليكك للأبد من الأرض» وكان طومان يعلم بتخاذل وضعف قواهم وكان يميل جداً إلى قبول هذه المطالب إلا أن المماليك ثاروا فاضطر لمجاراتهم فذبح رجال الوفد عن بكرة أبيهم .

وقد لاقى طومان صعوبات جمة في تأليف جيش جديد يقابل به الأتراك الزاحفين وتخاذل عنه المماليك وكان من رأيه هو أن يخرج الجيش ليقابل الأتراك في الصالحية على حدود مديرية الشرقية بعد أن يكون قد أنهكهم قطع الصحراء الشاسعة فرفض أمراء المماليك ذلك . بل اضطروه للانتظار في الريدانية (وهي خارج مدينة القاهرة من الشرق والمعروفة الآن بجهة العباسية) ولم يكد المصريون يُتمون استعداداتهم الدفاعية في هذه

الجهة حتى دهمهم الأتراك في ٢٢ يناير ١٥١٦ (٢٩ ذي الحجة سنة ٢٢٩ هـ) وقد ظن طومان أن الجيش التركي يقابله وجهاً لوجه فعبأ جنده كله في القلب ، ولكن الأتراك كانوا أكثر فطنة ومعرفة لشؤون الحرب فما كادت الموقعة أن تنشب حتى انقسم الجيش إلى أقسام ثلاثة ، فاستمر قلب الجيش في مقاتلة طومان باي وشيعته وسارت فرقة ثانية تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بالمحاربين من اليمين والخلف ، وسارت الفرقة الثالثة إلى بولاق وأحاطت بالجيش من الشمال ، وقد قاتل المماليك وطومان باي قتال المستميت في هذه الموقعة ، فقد قذف بنفسه مع مماليكه الخواص إلى وسط المعمعة ، وكاد أن يبلغ خيمة السلطان سليم ، ولكن المصريين في تلك الساعة بوغتوا من الخلف كما أوضحنا ذلك ، فتقهقر سليم وجيشه تاركين أماكنهم للعدو وفرَّ طومان وجماعته إلى الجيزة . وعندئذٍ دخل الأتراك القاهرة بدون مقاومة تذكر ونزل السلطان سليم بمعسكره الخاص على ساحل بولاق والجزيرة الوسطى (هي الجزيرة التي أمام قصر النيل) وأما هو فلم يدخل المدينة في ذلك اليوم ولا الذي تلاه ، بل دخلها وزيره ، محاولاً أن يمنع الجنود من تخريب المدينة ، وأما الخليفة العباسي الذي جاء في بطانة سليم (هو الذي كان مع الغوري في غزوته) فقد أقام الصلاة في القاهرة ودعا في خطبته للسلطان سليم الذي لقبه بملك البحرين والبرين ، وهازم الجيشين ، وملك العراقين ، وحامي حمى الحرمين المولى الأعظم «سليم شاه» وطلب له العز فقال : «وآته اللهمَّ معونتك ونصرك يا إله الدنيا والآخرة يا من له ملكوت السماء والأرض» (كما أورده بنصه ابن اياس) واستولى الأتراك في ذلك اليوم على القلعة ، وذبحوا حاميتها من المماليك الجركس .

بقيت الحالة هادئة حتى كانت ليلة الأربعاء ١٥ محرم سنة ٩٢٣ هـ إذ تسلل المماليك بقيادة طومان باي إلى الجيزة وهناك جمعوا جموعهم بعد أن أثاروا أهالي بولاق وكثير من دهماء المدينة وغوغائها وهاجموا معسكر سليم مهاجمة عنيفة كادت أن تقضي على جيشه قضاءً نهائياً فما كان الفجر حتى

كان نصف جيش سليم قد هلك نهائياً وجاء للمماليك مدد بقيادة الأمير علان من جهة الناصرية وبذا تمكن المماليك من الاستيلاء على أكثر المدينة مرة أخرى بعد أن قتلوا جمعاً غفيراً من الأتراك في شوارع وأزقة القاهرة . وتنبه حينئذٍ سليم لحرج مركزه وجمع جموعه المتفرقة وهجم على المصريين هجمة موفقة أجلاهم بها عن حي بولاق حتى السيدة زينب وتحصن المماليك بحي الصليبة وأقاموا حوله المتاريس والخنادق استعداداً للمقاومة وفي يوم الجمعة التالي خطب للسلطان طومان ولسلطان المماليك لآخر مرة في التاريخ في جامع شيخون وغيره (٧ محرم سنة ٩٢٣ هـ) .

وحاصر الأتراك حي الصليبة محاصرة مميتة ، واشتد الأمر على المماليك فتخاذلوا مرة أخرى وتسللوا عن السلطان وتركوه يقاتل وحده مع عبيده ومماليكه الخواص . ولما علم أن القتال لا يجدي نفعاً ، فرَّ إلى بركة الجيش[١] ومن هناك عبر النيل إلى الجيزة . وبذا استولى الأتراك مرة أخرى على المدينة ، وزار سليم القلعة بعد ذلك بعشرة أيام واستحوذ على ما فيها من النفائس والذخائر ..

ولما طابت نفس سليم إلى هذا النصر ، رفع راية بيضاء حمراء إشارة إلى العفو عن المصريين دون المماليك . الذين أمر باقتفاء آثارهم وإبادتهم عن بُكرة أبيهم وبهذه الطريقة قتل خلق كبير منهم وعفى عن كثير من أعيان المصريين بعد أن تشفَّع فيهم الخليفة . ثم أصدر أمراً بالعفو أيضاً عن المماليك الذين يستسلمون في بحر أسبوع فظهر كثير منهم وسلموا أنفسهم فوزعوا على غرف القلعة ولم يستقبل أحداً منهم بالإكرام غير «جان بردي الغزالي» الذي أكرم استقباله لشجاعته ولما أبداه من البسالة في مقاتلة الأتراك في واقعة «الريدانية»[٢] ؟ وعيَّنه أميراً على فرقة لمقاتلة البدو ، وانتقل سليم

(١) حل القبلي لمصر القديمة بينها وبين معادي الخبيري .

(٢) السبب الحقيقي لإكرام السلطان سليم «لجان بردي» هو حمايته للمصريين ومساعدته للأتراك مرتين في القتال .

بعد ذلك إلى سكنى القلعة بعد أن رممها وحصنها وجعل فيها طائفة من الجند لرد الهجوم عنها .

وأثناء اشتغال السلطان سليم بإصلاح حال ملكه الجديد تقوى طومان باي بانضمام العربان والبدو له وقدوم المماليك من كل فوج واتحادهم لمهاجمة سليم وقد تمكن هؤلاء من محاصرة الأتراك في العاصمة ومنعوا ورود المدد والميرة إليهم من جميع أنحاء القطر وفي ذلك الوقت شعر سليم بخطورة مركزه في مصر وملَّ هذا النزاع والحروب المستمرة فأرسل وفداً مكوناً من الخليفة[١] وأربعة من القُضاة مع مندوب تركي للاتفاق مع المماليك على شروط الصلح ، وقد فرح طومان فرحاً لا يُوصف بهذه الفرصة المناسبة لإنهاء الحرب وكاد أن يوافق على شروط الأتراك التي أهمها الاعتراف بسيادة الباب العالي ، ودفع خراج سنوي والدعاء للسلطان التركي في الخطبة وسك العملة باسمه وقبل سليم في مقابل ذلك أن يجلو بجنوده عن الديار المصرية .

وقد أظهر زعماء المماليك مرة أخرى غباوة متناهية في رفض هذه الشروط وأقدموا على عمل جنوني بقتل جميع أعضاء الوفد لعدم ثقتهم بوعود سليم الذي اقتصَّ منهم قصاصاً هائلاً فذبح جميع أمراء المماليك الذين استسلموا له وعددهم سبعة وخمسون أميراً .

لم يبقَ أمام طومان باي بعد هذه الحوادث إلا أن يتقدم لنزال الأتراك . فجمع جموعه في البهنا وتقدم بهم حتى وصل الجيزة وأراد سليم أيضاً أن ينهي هذه الحرب القائمة التي سئم نزاعها فأرسل ثانية أحد الأمراء الأتراك إلى طومان في الجيزة لعله يوفق إلى شروط لإنهاء الحرب . ولكن ذلك الأمير لم يصل إلى مقابلة طومان باي بل ردَّ من الطريق مثقلاً بالجراح هو

---

(١) خاف في الحقيقة من ذهابه للمماليك فأرسل نائباً عنه .

ورجاله[1] وعندئذٍ صممَّ سليم على مهاجمته فاضطر لبناء قنطرة من السفن في عرض النيل ليصل بها إلى الجيزة وكانت جنود الأتراك مرابطين بقرب الهرم في جهة «وردان» وهناك التقى الجيشان واقتتلا قتال اليأس فهزم الأتراك أولاً إلا أن نيران مدافعهم مزقت فرسان المماليك الذين كانوا عماد الجيش ، وبذا كانت هذه الموقعة الخامسة التي انتصر فيها الأتراك هي ختام المواقع الحربية التي دافع بها المماليك المصريون عن امبراطوريتهم ، التي ضاعت وقضى عليها إلى الأبد منذ ذلك اليوم (الخميس ١٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ ـ ١٥ ابريل سنة ١٥١٧ م) فرَّ طومان بعد هذا الفشل إلى أحد مشايخ بدو الشرقية (حسن بن مرعي)[2] الذي كانت له عليه أياد بيضاء ولكن ذلك العربي الخائن أسلم ولي نعمته لأعدائه فقبض عليه السلطان سليم ، فحملوه في الأصفاد إلى المعسكر وبقي السلطان البائس في معسكر سليم أياماً علم منها في خلالها جميع ما يريد معرفته من شؤون البلاد وكانت نية سليم ترمي إلى عدم قتل طومان إعجاباً بما أبداه من الشجاعة ولكن خونة المماليك أمثال «خير بك» «وجان بردي» ألحّا على سليم في قتله فاستمع لكلامهما وأصدر أمره يوم الاثنين (٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ ـ ١٥ إبريل سنة ١٥١٧ م) بأن يُعاد طومان باي إلى القاهرة فدخلوا به وهو بزي أعرابي من جهة شارع أمير الجيوش إلى البرقوقية ، حتى إذا صار تحت باب زويلة أنزل من على فرسه وشنق[3] وبقي معلقاً على باب المدينة ثلاثة أيام أما السلطان

---

(١) هذه الحادثة مشكوك في صحتها التاريخية لأن ابن أياس وهو مؤرخ هذه الفترة لم يذكرها في تاريخه .

(٢) شنق طومان وله من العمر ٤٤ سنة ودُفن خلف مدرسة الغوري ولم يُشنق ممن حكم مصر من الخلفاء والسلاطين سلطان غيره .

(٣) كافأ الأتراك حسن بن مرعي لخيانته ولكنه قُتل بعد ذلك بيد المماليك الذين ذبحوه وشربوا دمه .

سليم[1] فقد بقي في مصر بعد الفتح ثمانية شهور نظم فيها شؤون مصر كما أراد ثم عاد إلى القسطنطينية وهناك بايعه الخليفة وبذا انتقلت الخلافة نهائياً من مصر إلى القسطنطينية وبقيت مع الأتراك حتى أزالها مصطفى كمال بإنهاء دولة العثمانيين من تركيا سنة ١٩٢١ م .

---

(١) ولّد مقتل طومان باي المحزن شعوراً غريباً عند المماليك حتى حاول أحد الأمراء وطائفة من أتباعه المخلصين ذبح سليم غيلة في الليل ، غير أن المؤامرة اكتُشفت في نهاية الأمر ولولا ذلك لعاد الأمر إلى المماليك مرة أخرى .

ـ ١١ ـ

علاقة المماليك بالبندقية والبرتغال

إن علاقة مصر بالبندقية والبرتغال لم تكن إلا علاقة اقتصادية صرفة ونحن يمكننا أن نقول أن هذا الفصل هو بيان لحالة مصر الاقتصادية في عصر المماليك ولمصدر تلك الأموال التي تمكن المماليك بها من حفظ دولتهم ، وإقامة مبانيهم الهائلة الفخمة ، ونشر نفوذهم في الشرق كله وتمكنوا بها من القيام بحروبهم الطويلة .

معروف لدينا أن المماليك كانوا أصحاب النفوذ المطلق في مصر وسوريا ولذا وقعت في قبضتهم ، جميع الموانىء وطرق القوافل التي توصل إلى أوربا متاجر البلاد الهندية ، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، وبذلك تمكنوا من فرض الضرائب التي يريدونها على كل كمية من البضاعة الهندية التي تمر من طريق البحر الأحمر إلى القاهرة ، ثم إلى الاسكندرية وكذلك من طريق الخليج الفارسي إلى البصرة ، وطريق القوافل منها فميناء اسكندرونة . وقد كان لمرور التجارة الهندية من هذين الطريقين أكبر أثر في ترويج تجارة البحر الأبيض المتوسط ، وعظُمت بسببها ثروة الدولتين اللتين اشتهرتا بالملاحة فيه وهما «جنوة» و «البندقية» ولا سيما الأخيرة ، فإن تجارها نالوا لدى المماليك حظوة عظيمة وصلت بهم في آخر الأمر إلى احتكار نقل هذه التجارة الكبيرة .

وقد ذكر المستر كامرون في كتابه عن تاريخ مصر أمثلة عدة على عظم

مقدار المكوس التي كان يجنيها المماليك على التجارة الهندية التي درَّت عليهم الخير والمال الوفير وكان للبنادقة حظ هائل من هذه الأرباح لتحكمهم في هذه التجارة . فقد كان التاجر البندقي يشتري البضاعة من مصر بمقدار ٣٥,٠٠٠ جنيه فيبيعها في أوربا بما لا يقل عن ٧٠,٠٠٠ جنيه فاشتعل الحسد في الممالك الأوربية الأخرى من هذه الأرباح العظيمة التي لا ينقطع تدفقها في جيوب البنادقة والمصريين بسبب احتكار التجارة الهندية ، فدفعهم ذلك إلى التفكير في الاهتداء إلى طريق أخرى توصل إلى الهند حتى ينالهم شطر من أرباح تلك التجارة الضخمة ، وساعد على إثارة هذه الهمة قيام النهضة العلمية التي بدأت في أوربا بعد فتح القسطنطينية وولدت في تلك البلاد روح الاستطلاع والاستكشاف .

وأول من فكَّر من الأوربيين في البحث عن طريق آخر إلى الهند هم «البرتغال» وهم أمة تسكن الجزء الغربي من شبه جزيرة الأندلس : كانوا إحدى الإمارات التي استولى عليها العرب ، وانسلخوا عن حكمهم قبل جلائهم عن تلك البلاد بقرنين تقريباً ، ومن ذلك الحين أخذوا يدافعون عن استقلالهم من غارات مملكة (قشتالة) كستيل المجاورة لهم ، حتى أمنوا شرها بانتصارهم عليها في موقعة «الجبروثا» سنة ١٣٨٥ م (٧٨٧ هـ) (راجع تاريخ مصر جزء ٢ صفحة ٧٥) .

وقد قام هؤلاء البرتغاليون بفتح باب الاستكشاف بواسطة الأمير هنري الملاَّح الذي عاضد الملاحة بما له من النفوذ وشرع في إرسال بعوثه عام (١٤١٨ م) «٨٢١ هـ» «ومات الأمير هنري ولم يصل ملاَّحوه بعد إلى الهند وتابع خلفاؤه إرسال البعوث حتى إذا كانت سنة (١٤٩٦ م) «٩٠١ هـ» أرسل الملك أمانويل بعثاً لهذا الغرض برياسة الملاَّح العظيم «فاسكو دي جاما» الذي تمكن من عبور رأس الرجاء الصالح ووصل ببعثه إلى شواطىء أفريقية الشرقية وكانت كلها مسكونة بالعرب الذين علموا مقدار الخطر المحيق بتجارتهم من هذا المنافس فرفضوا إعطاءه أي معلومات أو مؤن . وبذا

خابت مساعيه في «مزمبيق وكلوة ومنبسة» ولكنه فاز خيراً في «منلندة» حيث أخذ معه أحد البحَّارة الهنود وأخذ ما يلزمه من المؤن والذخائر وأقلع فوصل قاليقوطا على الشاطىء الغربي للهند وتمكن بدهائه من استمالة الزامرين أو سامري «ملك البحار» أمير قاليقوطا ورغبة في تبادل التجارة مع البرتغاليين عقد معه محالفة تجارية كانت بعد ذلك سبباً في زوال مُلكه وبحَّارة مصر .

وبذلك تمَّ للبرتغاليين كشف طريق جديد للهند فكانت فاتحة لانقلاب عظيم في تجارة العالم بأسره إذ نقل البضائع صار ينفق عليه الآن ثلث ما كان يُنفق بالطريقة القديمة ، فوق متاعبها وطولها فكانت النتيجة أن تحوَّل مجرى هذه التجارة العظيمة من الشام ومصر والبحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلنطي حول شواطىء أفريقيا .

وفي تلك الأثناء كان الأتراك يتقدمون في أوربا فاستولوا على أملاك دولة البندقية وأضروا بها أضراراً بليغة ، وتلك كانت من أكبر غلطاتهم فإنه كان خيراً لهم لو أبقوا على دولة البنادقة وبدلاً من توسعهم في الفتح في أوربا تلك البلاد التي كلفتهم كثيراً ولم تبقَ في يدهم طويلاً ، كان أفضل لهم استيلائهم على البلاد الهندية والشواطىء الأفريقية لمنع التجارة من التسرب إلى أوربا إلا عن طريقهم ويرى الباحث من هذا أن سوء سياسة الدولة العثمانية كانت سبباً في مصلحة مصر وثروتها .

ولم يكتفِ البرتغاليون بهذه المعاهدة التجارية ، بل إن فاسكو نفسه حصل على ملاَّحين من ساحل «زنجبار» وهاجم الأساطيل التي كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند إلى البحر الأحمر ، وأوقع الرعب في قلوب حكَّام تلك الجهات ، وهنا طلب أمراء «جوزيرات» واليمن المساعدة من مصر فجهز السلطان أسطولاً عدد وحداته خمسون ، بقيادة أمير البحر «حسين الكردي» وقد سخر الناس في تحصين جدة لتكون ملجأ من البرتغاليين ولكن بقيت الأساطيل التي كانت في المحيط تحت رحمة العدو ، وقد وقعت معارك مختلفة ، سنتي ١٥٠٣ م ١٥٠٤ م أخذت في إحداها

سفينة مصرية تخص قانصوه سلطان مصر كما أخذوا في العام التالي أسطولاً مكوناً من سبع عشرة سفينة مصرية بعد معركة هائلة واستولوا على حمولتها وذبحوا التجّار والحجاج وأحرقوا السفن ، وقد استاء السلطان وغضب لمهاجمتهم البحر الأحمر وضياع المتاجر والضرائب ولتعرض مكة للمهاجمة وفوق كل ذلك لما أصاب سفينته الخاصة فعزم عزماً أكيداً على الانتقام ولكنه في بداية الأمر هدّد البابا بواسطة رئيس كنيسة بيت المقدس بأنه إذا لم يقف ملك البرتغال عن اعتدائه على البحّار الهندية فإنه يدمر كل الأماكن المقدسة في فلسطين . وأما البرتغاليون فلم يهتموا لذلك بل أخذوا في توسيع نفوذهم في بلاد الهند ، غير مكتفين بالعلائق التجارية بل استولوا بالسيف والمدفع على إمارة قاليقوطا وجعلوها في عداد مستعمراتهم .

وبذا أصبح الغوري أمام خطر داهم ، وكذلك أصبح سامري أمير قاليقوطا الذي اتحد مع الغوري لصد هؤلاء الغُزاة عن بلادهم ولم يعرف الخطر على حقيقته إلا البندقية التي كان معنى ذلك قضاءاً نهائياً على كيانها واستقلالها فساعدت الغوري وحرضته على إرسال حملة إلى المياه الهندية ، وأرسلت للغوري الأخشاب اللازمة لبناء السفن في البحر الأحمر ، وكانت هذه الأخشاب تنقل على ظهور الجمال من الاسكندرية إلى السويس ويتولّى عمّال مهرة من الفنيين إنشاء السفن وقد نشر المستر كمرون في كتابه المشار إليه سابقاً فصلاً نقله عن كتاب اسمه «تقرير عن المحفوظات القديمة لوزارة الهند» بقلم السر جورج بردوود وقد ذكر في هذا التقرير أن الفنيين اشتركوا بجيوش في الحملة المصرية البحرية وذكر أيضاً أن ذلك الأسطول المصري سافر إلى السويس والتقى بالأسطول البرتغالي على شواطىء بومباي وأن الأسطول المصري قهر البرتغالي وحطّم سفنه ومات قائده واسمه «لورانزو المبدا» وهو ابن حاكم الولايات البرتغالية في الهند الغربية وأخذ الهنود يُقاومون البرتغاليين مقاومة شديدة فخاف البرتغاليون العاقبة وجمعوا أسطولاً جديداً قهروا به الأسطول المصري الفينيسي في شهر فبراير سنة ١٥٠٩ على مقربة من جزيرة (ديو ـ Dio) ولاشك أن هذه المعركة البحرية كانت من

المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ لو أُتيح للمصريين الفوز الأخير ، لقُضي على الاستعمار الأوربي في الهند إلى زمن طويل ، ولبقيت مصر ، وتركيا تنعمان بثمار التجارة الهندية .

وكانت نتيجة تحويل التجارة الآسيوية عن طريق مصر عظيمة في إدارة البلاد ونظاماتها وثروتها ، إلى درجة أدّت إلى خراب مصر ، إذ بقي المماليك ، وبقي بذخهم ، وبقي تعودهم الترف والنعيم ، وقلّ الوارد من الخارج ، فتحولوا إلى امتصاص دماء المصريين حتى أوصلوهم إلى ما يقرب من الفناء .

وعظُم نفوذ البرتغال في الشرق ، ففي عام ١٥١٣ م أخذ «الفونسو البوكرك» عدن ، وحاقت المصائب بالجيوش المصرية في اليمن ، وعند ذلك أعدَّ قانصوه الغوري أسطولاً جديداً لمعاقبة الأعداء ولحماية التجارة الهندية ، ولكن قبل أن تعلم نتيجة هذا الاستعداد فقدت مصر سيادتها سنة ١٥١٦ وصارت الحجاز والبحر الأحمر وبلاد العرب كلها إلى أيدي العثمانيين ، وحوالي ذلك الوقت أيضاً استولى الأتراك على أهم مقاطعات البندقية ففقدت أهميتها التجارية ومنذ ذلك الحين كثُر التلصص في البحر الأبيض ، فقضى على البقية الباقية من التجارة التي كانت تمر في هذا البحر .

ـ ١٢ ـ

المماليك في حكم الأتراك
أو طبقة المماليك الثالثة

انتهى أمر المماليك الشراكسة بذبح الأمير طومان باي فاهتمّ السلطان سليم بتنظيم ملكه الجديد في الديار المصرية والسورية ، فبقي في القاهرة ثمانية شهور يُدبر تلك الأمور وكان معسكره أول الفتح ببولاق والجزيرة الوسطى ، ثم أقام بالقلعة نحو شهر ثم بمدينة الجيزة وامبابة قريباً من شهر ثم أقام بجزيرة الروضة والمقياس مدة ، ثم توجه بجنده إلى مدينة الاسكندرية فكانت مدة غيابه وإيابه ١٥ يوماً ثم رجع وأقام بجزيرة الروضة وبنى له بها بجانب المقياس في طرف الجزيرة الجنوبي جوسقا من الخشب أقام فيه بقية المدة إلا زمناً يسيراً ببيت الأشرف قايتباي المُطل على بركة الفيل .

وفي أثناء إقامته بمصر سنَّ لها بعض الأنظمة الإدارية ونقل إلى القسطنطينية أكثر ما في القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومركباته .

وحمل من مصر إلى القسطنطينية كل أبناء السلاطين وأكثر المقدمين والأمراء والخليفة العباسي بعدما نزل له عن الخلافة وأكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وأمر بمصر .

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف فجمعوا منهم نحو ألف صانع ونقلوهم إلى الأستانة ليُذيعوا

الصناعات الدقيقة فيها فرجع بعضهم إلى مصر بعد عهده وبقي آخرون . وقيل أنه بطل في مصر من جراء ذلك نحو خمسين صناعة فكان ذلك سبباً في القضاء على الصناعة في مصر .

وباستيلاء السلطان سليم على مصر صارت البلاد جزءاً من الدولة العثمانية فتوالى إرسال الولاة الباشوات عليها من قِبَل الباب العالي . وكما أسلفنا وضع لها السلطان نظاماً لحكومة مكونة من ثلاث سلطات . وأما النفوذ الحقيقي فقد بقي للمماليك لأن السلطان سليم لم يقضِ عليهم ولو أراد ذلك لكان خيراً له وللبلاد ولكنه أبقاهم على حكم الاقطاعات ليحفظ بهم التوازن بين قوى الوُلاة والشعب ثم سمح لهم بالبقاء على نظامهم القديم أي بالاستمرار على جلب المماليك وتدريبهم على فنون الحرب والقتال فظلّوا واضعين أيديهم على مصر طوال الحكم العثماني إذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالي من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته في مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك تبعاً لذلك . وبقي المماليك على عهد العثمانيين ، كما كانوا من أجيال عدة طائفة منفصلة لا تختلط مع من يساكنونهم الديار[1] .

ولم يزالوا يُكثرون من عددهم بشراء مماليك جُدد كانوا يفِدون على مصر من الكرج وبلاد الجركس وما جاورها من البلدان ، وصار رؤساء المماليك يُسمون باسم «شيخ البلد» وكانوا كثيراً ما يتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذا اللقب فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعاً ، وكان «الشيخ» إذ عاضده الأمراء يستعمل أمره فينزل الباب العالي وواليه في مصر على إرادته ، فكأنه هو الحاكم الفعلي للبلاد .

وأما النظام الذي وضعه السلطان سليم ليحفظ به مصر من أن يستأثر

(١) راجع تاريخ دولة المماليك في مصر صفحة ١٩٤ ويجب أن أذكر هنا أني أكثرت في عدة مواضع من الاستعانة بهذا المؤلف النفيس .

بها الوالي فقد أثبتت الأيام الحكمة في وضعه فقد حاول الوالي الثالث أن يستقل بمصر عن الدولة العلية ولكنه فشل . وأما هذا النظام فيقول عنه علي باشا مبارك في «خططه التوفيقية[1]» ما خلاصته : «. . .لما أخذ السلطان سليم مصر ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن سادتهم رأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حكمها عن الطاعة ، وتطلبه الاستقلال . فجعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام وجعل في كل قسم رئيساً ، وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة وهي كلمة وزير الديوان الكبير ، وجعله مركباً من الباشا الوالي من قبله ، ومن بكوات السبع وجاقات وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان إلى المجلس وحفظ البلاد ، وتوصيل الخراج إلى القسطنطينية ، ومنع كل عضو من الأعضاء من العلو على صاحبه ، وجعل لأعضاء المجلس مزية نقض أوامر الباشا لأسباب تبدو لهم وعزله أن رأوا ذلك وجعل حكام المديريات الأربع والعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج . . . إلى أن قال . . . وبهذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من إبقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتي سنة ثم أهملت تلك القوانين ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك من الأمور المُخلة بالنظام فضعفت شوكة الدولة وهيبتها التي كان لها على مصر وأخذت البكوات تكثُر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية في الديار المصرية فآل الأمر والنهي إليها في الحكومة ، وصارت سلطة الدولة في مصر صورية غير حقيقية .

ولو كانت الدولة العلية تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ما وضعها السلطان ، ولكنها غفلت عن هذا الأمر كما غفلت عن أمور كثيرة ، ومن ذلك لحق الأهالي الذل والإهانة وهاجر كثيراً منهم إلى الديار الشامية والحجازية ، وغيرها وخربت البلاد، وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان التي

---

(١) راجع الجزء السابع .

عليها مدار الخصب وصار للبكوات الكلمة النافذة وانفردوا بالتصرف . . . أ هـ .

كانت قوة العثمانيين في الحقيقة مكوَّنة من الوالي والمماليك والجيش وأما الجيش فكان مكوَّناً من ست وجاقات[1] نصب عليهم قائد يقيم بالقلعة كان فيها أشبه بأسير من أسرى الحكومة مسلوباً من حريته الشخصية لأن السلطان حرَّم عليه الخروج من القلعة مهما كانت الأسباب .

ولخوف الحكومة العثمانية من وُلاتها ولرغبتها دائماً في استرضاء المماليك ، لكيلا يمنعوا عنها الخراج ـ كانت لا تكاد تبعث بوالٍ من عندها حتى تعزله وتعيِّن بدله ، وحتى لقد بلغ عدد ولاتها من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنساوي ـ أي من ١٥١٧ ـ إلى ١٧٩٨ ـ نحو ٢٨٠ سنة ـ أكثر من مائة والٍ ، قلَّ من أقام منهم أكثر من عامين وكثر من بدل كل عام ولقد كان بعض أولئك الوُلاة ، كما أثبت المؤرخون من أهل الكفاءة والإخلاص ، وذوي الرغبة في إصلاح ما اختلَّ من شؤون هذه البلاد ، فلا يكاد يشعر المماليك برغبته في الضرب على أيديهم ، وكف مظالمهم حتى يُقرروا عزله ، كما ترك لهم هذا الحق في النظام الذي وضعته الدولة لهم كما تقدم ، فكان الوالي بمقتضى هذه الظروف . يوجه همته إلى إرضاء المماليك والتقرب منهم وأخذ ما يستطيع أخذه من الأموال والطرف ليعود إلى الأستاية مملوء الوفاض بادي الثراء .

---

(١) الوقاجات الستة هم :

أ ـ الآلايات المتفرقة وهم نخبة الحرس السلطاني .

ب ـ الالايات الجاويشية وهم من صف ضباط جيش السلطان وقد عهد إليهم جباية الخراج .

ج ـ الالايات الهجانة ـ الالايات التفقجية وهم حاملو البنادق .

هـ ـ الالايات الإنكشارية وهم نخبة القبائل الخاصة للعثمانيين .

و ـ الالايات : العزب على كل الاي ضابط يُسمى (آغا) ومعه لكخيا ولباس اختيار والدفتر والخزيدار والروزنانجى .

وبالرغم من حيطة الدولة ورغبتها في أن لا يستبد أحد من المماليك بالسلطة في الديار المصرية ومع ما كانت تبذله من الوسائل للتفريق بينهم وغرس بذور الأحقاد في صدورهم ، فإنهم كانوا في الواقع ونفس الأمر مستبدين بحكومة البلاد وطالما ماطلوا الدولة في إرسال الخراج ، بدعوى الحاجة إليه في إقامة الجسور أو حفر الترع وهم لم يفعلوا شيئاً من هذا أو بحجة قلة الفيضان وعجز المحصول وتأخر الأهالي عن دفع الضرائب ، كما أن ذلك لم يمنع من اغتصاب الملك مراراً من الباشا الوالي وطرده من الديار المصرية .

ونحن قد ضربنا صفحاً عن تتبع أسماء سلسلة الولاة العثمانيين لعدم أهمية أعمالهم وحكمهم ولأننا نعتقد أن السلطة الحقيقية كانت في تلك الفترة بيد المماليك الذين أدَّت كثرة تنقل وُلاة العثمانيين إلى عدم تأييد نفوذهم في مصر ، وإلى استرجاع المماليك الراسخة قدمهم بالبلاد لكثير من قوتهم الأولى ، وساعد على نمو هذه القوة طول أمد النزاع بين الوُلاة والجُند ، حتى اشتغلت الطائفتان بمشاحناتهما عن كل ما سواها .

ومما ساعد المماليك على القبض على السلطة تمهيدهم لاتحادهم ، باختيارهم زعيماً من بينهم وهو حاكم القاهرة ، المُسمى إذ ذاك ، «بشيخ البلد» وكان المماليك قد تعودَّوا من قديم الزمان جلب مماليك أحداث وتدريبهم ليكونوا لهم حاشية وأنصاراً . فسمحت لهم الدولة بالسير على هذا النظام ، فأصبح لزعمائهم من ذلك قوة لم يعد للوُلاة قبل بدفعها . وذلك أن المماليك الأحداث الذين يشرون بالمال كانوا يُحررون عادة بعد بضعة أعوام . فيبقون الحرمة لأسيادهم . حتى إذا ولجوا أبواب الرقي ، وصاروا أنفسهم بكوات ، لا يألون جهداً في تلبية مواليهم الأولين متى استمدوا منهم المعونة ، فلشيخ البلد دائماً عُصبة من مواليه وعتقاء البكوات يعظم بها شأنه . وصار للمماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها في عزل من أرادوا عزله من الوُلاة بل أخذوا يطمحون إلى التخلص من السيادة العثمانية جملة ،

وبخاصة عندما دخلت الدولة في طور التقهقر وشغلت بحروبها مع النمسا وروسيا .

وتنبه بعض الوُلاة إلى ما يرمي إليه المماليك ، فعملوا على دس الدسائس بينهم وتفريق كلمتهم ، وكان المماليك منقسمين إلى أحزاب أعظمها «القاسمية» و «الفقارية» نسبة إلى زعيمين لهما «قاسم وذي الفقار» . ولم تسلم الطائفتان من عداوة بينهما فلما عهد بالولاية في مصر إلى «حسين باشا كتخدا» سعى في تفريقهما وتفاقمت العداوة بينهما حتى وصلت سنة ١٧٠٧ م إلى حد أثار بين الفريقين حرباً استمرت نيرانها ثمانين يوماً ، وقيل أن المتخاصمين كانوا في أثناء هذه المدة يخرجون من القاهرة نهاراً للمحاربة ، ثم يعودون إليها بالليل فيبيتون فيها كغيرهم من السكان .

وأسفرت هذه الفتنة الطويلة عن قتل شيخ البلد «قاسم بك ايواظ» زعيم القاسمية ، فخلفه ابنه اسماعيل بك فأصلح ما بين المماليك ووحَّد كلمتهم وصارت لشيخ البلد الكلمة العُليا على الوالي ، فعمل الوالي سراً على تحريض الفقاريين عليه إلى أن قتله أحدهم «ذي الفقار» فوهب له الوالي ثروة اسماعيل بك وأسند منصب شيخ البلد إلى «جركس بك» بعد أن فتك باتباع اسماعيل بك ويعرف اسماعيل بك هذا باسماعيل بك الكبير . ومن آثاره بمصر سبيل ومكتب بجهة سوق العصر القديم بمدخل الداودية وحوش الشرقاوي كانا من أجمل مباني ذلك العصر وبقي منها الآن جزء خرب .

ثم استعان ذو الفقار بما آل إليه من الثروة في شراء المماليك وتدريبهم حتى صارت له قوة كبيرة ، فانتزع السلطة من جركس بك ووضع نفسه في منصب شيخ البلد . ولكنه لم يلبث أن ثار عليه المماليك وقتلوه . فقبض أحد قواده «عثمان بك» على السلطة فصار شيخاً للبلد بعد أن انتقم لسيده شر انتقام .

وكان عثمان بك ذا مقدرة وبأس فعمل على توطيد السكينة وسهر على حفظ الأمن وإقامة العدل ، فحسنت سيرته وأحبه الأهلون ، وبقي ذكره بعده

زمناً طويلاً حتى أنه لما ثار عليه أعداؤه واضطروه إلى الهروب من مصر صارت الناس تؤرخ حوادثهم بسنة خروجه فكانوا يقولون «هذا الأمر حدث بعد خروج عثمان بك بكذا من السنين ، وولد فلان في سنة كذا من خروج عثمان بك» .

وسبب فراره من مصر أن قوي في عهده شأن حزبين من المماليك وهما «الكردغلية» و «الجفلية» فاتفق ابراهيم بك زعيم الحزب الأول ورضوان بك زعيم الحزب الثاني على توحيد كلمة حزبيهما ونزع السلطة من عثمان بك ، وجعلها في أيديهما معاً ، وبعد نزاع طويل بينهما وبين عثمان بك ، تغلباً عليه ، ففرَّ خوفاً منهما إلى الشام ثم اقتسما السلطة بينهما واتفقا على أن يشغلا منصبي شيخ البلد وأمير الحج بالتناوب سنة بعد أخرى ، ولما رأى الوُلاة أن السلطة قد سُلبت من أيديهم عملوا على النكاية بابراهيم بك ورضُوان بك ، ودبَّروا لقتلهما مكايد لم يفلحوا فيها ، إلا أن البلاد لم تهدأ من الفتن بعد ، وبقي أمراء المماليك في هياج على أنفسهم .

هكذا كانت حالة البلاد في هذا العصر الأخير ، لا يكاد يفارقها الخلل والفوضى تارة بثوران الجند ومكافحتهم للوُلاة ، وطوراً بتنازع المماليك مع الوُلاة مرة ومع أنفسهم أخرى . وما زالت الحال كذلك حتى قبض على أزِمة الأمور أحد المماليك الأقوياء وهو علي بك الكبير . فكان ذلك ابتداء حوادث جديدة ذات شأن آخر . فإن علي بك هذا لما استتب له الأمر سهر على إصلاح البلاد وتوطيد السكينة بها ورأى أن يكثر من أتباعه كي يأمن غوائل المستقبل فرقَّى ثمانية عشر مملوكاً إلى رتبة البيكوية ليكونوا له عدة وأنصاراً إذا احتاج لهم .

ثم منَّى نفسه بالاستقلال بمصر فعمل على تنفير المماليك من الدولة فقرَّ قرارهم على خلع الباشا الوالي وإخراجه من مصر في الحال والدفاع عن استقلال البلاد ثم أعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية للباب العالي سنة ١٧٦٩ .

ثم أرسل حملة فتح بها بلاد العرب واستولى على الحرمين الشريفين ، ثم أنفذ جيشاً به ٣٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة عميله محمد أبي الذهب فاستولى على كثير من مدن الشام . وعند ذلك استكبر محمد أبو الذهب على سيده هذا الملك فاتفق مع الدولة عليه وعاد إليه بجيوشه ليهزمه ففرَّ علي إلى عكا واحتمى بها واستنجد بروسيا وخرج إلى مصر بقوة صغيرة فانتصر أولاً ثم هزم وقبض عليه وسير به إلى القاهرة أسيراً فلم يلبث أن مات من جراحه . وكافأ الباب العالي محمد أبا الذهب بتعيينه والياً على مصر ولقبَّه بلقب الباشويه وسبب تسميته بهذا اللقب أنه كان أينما سار ينثر الذهب حوله . . ولم يتمتع بملك مصر طويلاً إذ وافاه الأجل بعد سنتين من ولايته (١٧٧٤) . ومن أعماله تشييده جامعه الكبير أمام الأزهر .

عند ذلك قبض على أزمة الأمور اثنان من المماليك وهما ابراهيم بك ومراد بك واتفقا على أن يتوليا شياخة البلد وإمارة الحج بالتناوب كما حدث بين رضوان بك وابراهيم بك من قبل فبقيا قابضين على مقاليد الأمور من ذلك الحين إلى أن أغار الفرنسيون على البلاد سنة ١٧٩٨ ما عدا فترة من (١٧٨٦ ـ ١٧٩٠ م) عاد فيها النفوذ إلى العثمانيين لأن الدولة أرسلت حملة لم يقوَ على مواجهتها المماليك ففرَّ مراد وابراهيم إلى الصعيد . وولَّى العثمانيون شياخة البلد إلى خليل بك ولكن هذا مات بعد قليل بالطاعون فعاد ابراهيم ومراد واستوليا على الحكم مرة أخرى .

ولما وصل نابليون بحملته المشهورة إلى مصر ١٧٩٨ م واستولى على الاسكندرية وتقدم إلى القاهرة اجتمع المماليك وقرَّ قرارهم على أن يسير مراد بك إلى الاسكندرية لصد الاعتداء وأن يبقى ابراهيم بك في القاهرة للدفاع عنها . أما حملة مراد بك فقد قضى عليها نابليون في واقعة شبرا الخيمة قضاءاً مبرماً فعاد أكثرها إلى القاهرة واجتمعوا مع الباقين من المماليك في مصر وخندقوا في أمبابه فهجم عليهم نابليون وقال لجنده تلك الجملة المشهورة «أن أربعين قرناً تنظر إليكم من فوق قمة هذا الهرم» فكانت

هذه الكلمة من أشهر كلماته المأثورة وهناك قضى عليهم في تلك الموقعة القضاء النهائي . فهرب مراد بك إلى الصعيد أما ابراهيم بك وأكثر المماليك فقد هربوا إلى بلبيس ثم إلى السويس ثم عمل نابليون على استئصال شأن المماليك فطارد مراد بك إلى الصعيد وابراهيم بك في الشرقية واضطره للفرار إلى الشام .

ثم عاد نابليون إلى القاهرة واستولت رجاله على أملاك البكوات وأموالهم وتشددوا مع نسائهم حتى اضطروهنَّ إلى أن يفدين أنفسهنَّ بالمال فمن ذلك أن زوجة مراد بك فدت نفسها بمبلغ ١٢٥,٠٠٠ ريال .

ولما سلَّم «مينو» بالخروج من مصر في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١ وتمَّ الجلاء الفرنسي عن مصر بعد أن قضوا بها نحو ثلاثة أعوام عاد المماليك والأتراك إلى الديار المصرية وبدأ بينهم النزاع من جديد فحاول الأتراك الفتك بهم في مذبحة دبرها الوالي الجديد . ولولا حماية الانجليز لهم لقضي عليهم نهائياً .

ثم حدثت بعدئذٍ الحوادث التي أدَّت إلى توطيد مُلك محمد علي في مصر ولما استتب له الأمر وأراد الخروج لفتح بلاد العرب خشي نفوذ المماليك فدبَّر مكيدة لهلاكهم فدعاهم للقلعة وهناك أبادهم في المذبحة المشهورة كما أسلفنا الشرح .

ـ ١٣ ـ

ثورة علي بك الكبير
القضاء على سلطة الدولة العثمانية
استقلال علي بك وفشله

كان علي بك الكبير (وسُمي بهذا الاسم لكثرة انتصاراته) في أول نشأته مملوكاً لابراهيم بك زعيم حزب الكردغلية الذي اتفق على تولي شياخة البلد مع رضوان بك زعيم حزب الجلفية . فما زال يتقدم عنده لذكائه ومقدرته ، حتى رقَّاه إلى رتبة بك ، ومن ذلك الحين أخذ علي بك يعقد الآمال على أن يتقوّى شيئاً فشيئاً حتى يصير يوماً ما شيخاً للبلد ، وكان قد جمع ثروة طائلة فقضى ثمانية أعوام في شراء المماليك وتدريبهم ، ولم يدخر في أثنائها وسعاً في استجلاب مودة البكوات الآخرين .

وأخيراً تنبه شيخ البلد «خليل بك» إلى أفعاله ورأى أن يقضي عليه قبل أن يستفحل أمره ، فهجم عليه بجيوشه ، فلم يقوَ عليه علي بك فاضطر إلى الفرار إلى الصعيد ، وهنالك التقى بكثير من الساخطين على خليل بك وأتباعه في عدة مواقع أظهر فيها علي بك مقدرة كبيرة . وبذلك تمَّ له أمر شياخة البلد عام ١٧٦٣ م .

تمكن علي بك هذا من أن يكون كبير المماليك ، ولكنه لم يصل إلى هذه الدرجة إلا بعد منازعات وحروب مع أقرانه ، ومنافسيه من المماليك أنداده ، أدَّت إلى تخريب البلاد ، والإخلال بالأمن ، إلى درجة أخرجت الشيخ الحفناوي أحد علماء الجامع الأزهر (على ما كان بهم من خوف وفزع من المماليك) فقال لهم كما روى الجبرتي ، «لقد خربتم الأقاليم والبلاد ،

وكل ساعة خصام وحروب مع علي بك» .

ومع ذلك بقي النزاع بين علي بك وأقرانه البكوات ، حتى أجبروه على الفرار إلى بلاد اليمن ، ولكنه عاد بدعوة من أنصاره في عام ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) وحين استقرت قدمه في القاهرة ، قتل أربعة من البكوات في ليلة واحدة ، ونفى أربعة آخرين ، وكان من مماليكه ابراهيم بك ، الذي بقي حتى الحملة الفرنسية ، وعاش حتى بعد مذبحة القلعة ، ومن مماليكه أيضاً أحمد بك الجزار المشهور الذي حارب نابليون في عكا وصده عنها ، ومن مماليكه كذلك محمد بك أبو الذهب الذي غدر به وكان سبب القضاء على آماله ومطامعه ، ومنهم مراد بك المشهور في الحملة الفرنسية .

وكان سيده ابراهيم بك قد مات قتلاً ، فلما تولّى علي بك شياخة البلد أمر بإعدام قاتله ، فلم يرقَ ذلك بكوات المماليك ، وتألبوا عليه والجأوه إلى الفرار إلى بيت المقدس ، ثم وشوا به إلى السلطان ، فأمر بطلبه إلى الأستانة . فاحتمى بأمير عكا ، فسعى هذا له لدى الباب العالي وأظهر براءته ، فثبته السلطان في منصب شيخ البلد ، فرجع إلى القاهرة ، وتسلم زمام الأمور بها مرة أخرى .

ولما خلى له الجو ، أخذ في مناهضة نفوذ الدولة العثمانية ، فشرع في عزل وإبعاد جميع مستخدمي الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات ، وإبدالهم بمن هم على دعوته ، وسعى في تقليل العسكر العثمانية ، وإكثار المماليك من دعاته ، وعمل ما لم تعمله الدولة حين استيلائها على مصر ، بأن منع البكوات الذين كان يخشى من تغييرهم عليه ، من أن يقتني أحدهم أكثر من مملوك واحد أو مملوكين . ورقى ثمانية عشر من المماليك إلى رتبة البكوية . ليكونوا هم وحاشيتهم عدة له عند الحاجة إليهم .

ثم طمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر ، فشرع يعمل على ذلك سراً وينتهز له كل فرصة . ولما نشبت الحرب بين الدولة وروسيا في سنة ١١٩٢ هـ (١٧٦٨) م طلب الباب العالي من مصر أن تمده باثني عشر ألف

مقاتل ، فأذعن علي بك لمطلب الدولة . وشرع في جمع الجيش . ولكن الدولة شكَّت في إخلاصه . واعتقدت أنه يجمع هذا الجيش لمساعدة روسيا عليها لتساعده على الاستقلال بمصر ، فأرسلت كتاباً إلى الوالي بمصر ، تأمره فيه بقتل علي بك .

وكان لعلي بك عيون بالأستانة ، فبادروا بتبليغه الخبر قبل وصول الكتاب إلى مصر فتربص لحامل الكتاب وقتله قبل أن يصل إلى الوالي ، ثم أعلن للمماليك أن الدولة أرسلت في هذا الكتاب أمراً إلى الوالي بذبح المماليك ـ وكان «علي بك» خطيباً مفوها ، فأثار حمية المماليك . ونفَّرهم من الباب العالي وذكَّرهم بمجد سلاطين المماليك الأقدمين ، وأن الدولة تريد القضاء على هذا المجد ، وعليهم أنفسهم فأوقد النار في قلوبهم ، وقرَّ قرارهم على خلع الوالي وإخراجه من مصر في الحال والدفاع عن استقلال البلاد ، ثم أعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية للباب العالي سنة (١٧٥٩ م) ١١٨٣ هـ ولقِّب «بسلطان مصر وخاقان البحرين» .

ولاشتغال الدولة بمحاربة روسيا لم تقدر على الالتفات إليه ، فانتهز علي بك هذه الفرصة لتوطيد مُلكه بمصر ، ثم أرسل جيشاً لفتح بلاد العرب ، فاستولى على «جدة» وعيَّن عليها والياً من مماليكه اسمه حسن بك ولقبه بالجداوي نسبة إلى جدة ، وكان غرضه من ذلك أن يجعل منها مركزاً للتجارة الهندية وموضعاً يراقب منه ملاحة البحر الأحمر ولم يلبث أن أخضع باقي جزيرة العرب ، والحرمين الشريفين .

ثم وجَّه همه لفتح الشام ، فأنفذ لذلك جيشاً به ٣٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة «محمد بك أبي الذهب» فكان النصر حليفه واستولى على كثير من مدن الشام .

وقد قابل «فولني» في سياحته بالشام ، جيوش علي بك الكبير وهي ذاهبة لفتح سوريا ، فقال إن الجيش المشار إليه كان مؤلفاً من

٤٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكن لم يكن فيه من المماليك الخيَّالة غير خمسة آلاف ، ونحو ألف وخمسمائة من المُشاة وهم من المغاربة والباقي خدم وأتباع . . . ويعد أن وصف هذا الجيش بالفوضى والاضطراب والسلب والنهب . أخذ يصف ملابس المماليك وصفاً بديعاً فقال أن ملابسهم لم تكن تصلح لامتطاء صهوات الجياد . وأنها تتكوَّن من أربعة أو خمسة أردية وطيلسانات تتدلَّى على أرجلهم . وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض ، والثوب المتدلي فوق القميص من القماش الهندي الخفيف ، وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش يمتد من أطراف الأصابع ، ثم «الكرك» بأكمام قصيرة ، ويطوف حول الرقبة فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه في الحفلات يلف به جسمه جميعه . . . وهذا يحتاج إلى المال الوفير ، ومصادر مصر كما سبق لنا القول ضئيلة ، وزادتها هاتيك الحروب والمنازعات ، وإهمال حال البلاد فقراً على فقر ، فلا غرابة أن تصل الأمة إلى حال لا تستطيع معها الحياة ، ولو طال أمر المماليك على هذا الحال ، ربع قرن آخر من الزمان ، لما بقي في مصر من يحرث الأرض أو يرعى الماشية .

* * *

وعندما استتب له الأمر وبعد أن وضع يده على جدة أرسل فاستدعى إليه تاجراً من أهالي البندقية اسمه كارلو روستي (وبقي في مصر من ذلك الحين إلى أيام الحملة الفرنسية) وكلفه بتنظيم التجارة الخارجية والمخابرات الدولية ، (تولى بعد ذلك منصب مأمور لجهة الطرانة (من أطراف مديرية البحرية عند وادي النطرون) لتحصيل الضرائب المفروضة على الأهالي ، وقنصلاً لامبراطور ألمانيا أيام مراد بك ـ وحصل روستي هذا على امتياز في أيام مراد يخوِّل له احتكار استخراج النطرون) .

وأمر بعد أن دانت له الشام وبلاد العرب أن يخطب باسمه في الجوامع وضرب النقود باسمه . ولا بأس أن نورد هنا بياناً عن النقود في زمن

علي بك نقلاً عن كتاب «ثورة علي بك» الذي سيرد ذكره بعد ذلك . وهذا بيانها وهي على ثلاثة أنواع وكلها من العملة الذهبية :

١ ـ المحبوب وهو يساوي بالعملة الإنجليزية الحاضرة ١٠,٥ بنس ٥ شلن .

٢ ـ الزنجيرلي وهو يساوي بالعملة الإنجليزية الحاضرة ٧ بنس ٧ شلن .

٣ ـ الفندفلي وهو يساوي بالعملة الإنجليزية الحاضرة ٦ بنس ٩ شلن .

أما العملة الفضية فها بيانها :

١ ـ البارة وتعادل ٣ مليمات واسمها إذ ذاك مصرية .

٢ ـ ٥ بارة وتُسمى إذ ذاك خمسية وجمعها خماسي وأما الترك فكانوا يُسمونها «بشلك» .

٣ ـ ١٠ بارة واسمها روبية .

٤ ـ ١٥ بارة .

٥ ـ ٢٠ بارة وتُسمى عند الترك «يارم قروش» وعند المصريين نصف قرش .

٦ ـ ٤٠ بارة وتُسمى القرش وعلى ذلك يكون القرش المصري في ذلك الزمن مساوياً نحو ١٢ قرشاً من العملة الحاضرة ، وعقد له روستي المُشار إليه معاهدة سلمية مع البندقيين ، وعهد إلى رجل أرمني يُدعى يعقوب «كان مساعداً له» في عقد معاهدة هجومية دفاعية مع روسيا وافتتح له الجيش الذي سبق ذكره باتحاده مع جيش صديقه ظاهر العمر «صاحب عكا» : غزة والرملة ونابلس وبيت المقدس ويافا وصيدا وحاصر دمشق وافتتحها عنوة .

وكان كل رجل غني في ذلك العصر مُعرضاً للهلاك والتعذيب والسجن حتى يسلم كل ما يملكه إلى الحاكم . ونذكر من الذين نالهم الحيف كاتباً يهودياً في جمرك بولاق مات تحت العصا والكرباج بعدما دفع ٤٠,٠٠٠

قطعة ذهبية فدية عن نفسه . وفي سنة ١٧٧٠ فرض ضريبة خصوصية على جميع سكان القطر المصري على السواء بخلاف الضرائب الأخرى الموجودة التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي كان الناس يئنون منها حيث اضطرت كل قرية أن تدفع ١٠٠ ريال وزاد على ذلك بأن فرض على الأقباط علاوة على نصيبهم من الضريبة العامة ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) ريال واليهود ٤٠,٠٠٠ (أربعين ألف) ريال ورأى علي بك أن مدير الضربخانة المصرية قد جمع ثروة طائلة فنفاه واستولى على جميع ما يمتلكه حتى ملابسه وأسلحته وكتبه .

* * *

وبالرغم عن معاملته الشديدة للأقباط وقسوته عليهم فإن الرجل الذي كان يثق بإخلاصه ويعتمد عليه كان قبطياً يُدعى المعلم رزق رقّاه من وظيفة سكرتير الضربخانة المصرية إلى مدير حساباتها . ثم إلى منصب الوزارة . وقد كان المعلم رزق هذا على شيء من العلم وخصوصاً علم الفلك الذي مهر فيه وأصبح من رجاله المعدودين . وقد جاءت خبرته هذه فرصة عظيمة للمستر بروس السائح الإنجليزي الشهير الذي اخترق أفريقيا إلى بلاد الحبش . ذلك أن بروس المذكور لما وصل إلى ميناء الاسكندرية عام ١٧٦٨ أوقفت الأدوات الفلكية والجغرافية التي كان يحملها معه على أنها أشياء حربية مهربة ، فلما علم بذلك المعلم رزق أصدر الأوامر اللازمة بعدم التعرض له في طريقه وبأن يدخل ما يحمله مجاناً بدون رسوم عليه فسُرَّ الرحّالة بهذا الجميل الذي اعتبره من حسن حظه . ولما وصل للقاهرة أرسل هدايا نفيسة للمعلم رزق الذي لم يقبل هذه الهدايا بل ردَّها مع رسول وزوده بمثلها وأعطاه خطاباً لطيفاً للمستر بروس يرجوه فيه أن يزوره بعد أن يستريح من عناء السفر ليستعمل آلاته الفلكية لأغراضه العلمية وقد تحصل له أيضاً على توصية من علي بك بعدم التعرض له أبداً مدة إقامته في الديار المصرية كما أنه بتوصية منه تمكن من أن يقضي أيامه في حصن بابليون حيث خصص له البطريرك بضع غرف تحت أمرته في ذلك الحصن . وبعد أن أقام بضعة

أيام هناك ابتدأ في سياحته فسافر إلى الصعيد في باخرة نيلية . فلما أن وصل من أسوان إلى الأقصر اتجه نحو القصير وسار عن طريق البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة حيث لقي هناك تسهيلات هائلة كانت نتيجة لخطابات التوصية التي حملها من البطريرك إلى أمبراطور الحبشة .

ولما عاد بروس من سياحته هذه الطويلة إلى مصر كانت دولة علي بك الكبير قد انتهى أمرها وذهبت ريحها . على أن سقوط علي بك وهلاكه لم يرجع إلى مساعي سلطان تركيا الذي كان استعدَّ علي بك لمحاربته بعدما بنى القلاع والاستحكامات الحربية في الاسكندرية ودُمياط ولا إلى انتقام أحد الأمراء البكوات الذين شتتهم هنا وهناك ونفاهم بل يرجع إلى ما أصابه من خيانة أحد مماليكه الأخصَّاء المُسمى محمود بك أبو الذهب[1] الذي كان اشتراه صغيراً ورباه مع عبده .

ولما أن اشتدَّ ساعده أعتقه ورقاه مع أمثاله فشبَّ على أخلاق سيده وطباعه ، كثير النزوع إلى العلاء ميَّالاً إلى الخيانة . وقد رقي أولاً إلى وظيفة سنجق ثم عينه علي بك قائداً للجيش الذي انتصر به مراراً في سوريا والحجاز ودفعه هذا النصر وهو في سوريا إلى تأليف مؤامرة من الضباط الذين اتحدوا معه على عصيان مولاه علي بك . وبدلاً من أن يسير مع معسكر الجيش للحرب انقطع في الطريق ورجع ثانياً إلى مصر ورفض العودة إلى ميدان القتال . فلما أن رأى علي بك خيانة أبي الذهب ولاحظ أن الجيش كله معه لم يتجاسر معاقبته علناً بل أصرَّ على قتله غدراً بأن أمر بمحاصرة منزله ليلاً فلما شعر بذلك أبو الذهب خرج سريعاً في مقدمة أتباعه واخترق صفوف المُحاصرين وفرَّ هارباً إلى الصعيد حيث اتحدَّ في الحال مع

---

(١) دُعي أبو الذهب لأنه لما رقاه مولاه علي بك الكبير لوظيفة سنجق كانت عطاياه وإنعاماته للشعب الذي تهنئه بالعملة الذهبية بعكس أقرانه الذين كانوا ينعمون على الناس بالفضة وظلَّ طول حياته ينعم بالذهب .

البكوات وجيوشهم الناقمين على علي بك الذي أرسل وراءه تجريدة عسكرية لمطاردته . لكن رجالها جميعاً خانوه واتحدوا ورجال محمود أبي الذهب الذي كان يرشو الناس باليمين والشمال ولم يعد منهم إلى القاهرة إلا نفر قليل من الذين ثبتوا على الولاء له وأخبروه بما كان من أمر رفقائهم . فجرَّد حملة عسكرية أخرى وظلَّ يجنِّد الجيوش ويُرسل وراء أبي الذهب تجريدة بعد الأخرى بقيادة قائد يُدعى علي بك (غير علي بك الكبير) ليقابل أبا الذهب ويصالحه . أما علي بك نفسه فتحصَّن مع باقي جيوشه عند دير البساتين الذي أخذه من الأقباط وجعله حصناً حربياً ثم بنى المعاقل والحصون والطوابي من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطىء النيل حتى آخر سفح المقطم ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الحربي العظيم بين تلك الحصون العظيمة ولكن مع كل تلك الاستعدادات والاستحكامات الحربية فإن أبا الذهب نزل لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانته أغلبيتها وانضمت إلى جيوش أبي الذهب . فلما رأى علي بك ذلك خامره اليأس وتيقن أن آخرته قد دنت .

فلما جاء الليل هجر مركزه بعد أن أسرع في جمع ذخائره وكنوزه وممتلكاته الخصوصية وأمواله وفرَّ هارباً من القاهرة إلى سوريا ملتجئاً إلى صديقه الشيخ ظاهر عمر صاحب عكا وقد قدرت الأموال التي أخذها معه بمبلغ ثمانمائة ألف محبوب ذهباً (أي نحو أربعة وعشرين ألف جنيه تقريباً) يحملها على ٢٥ جملاً وقالوا أيضاً أنه نقل معه من المصوغات والحُلي ما يساوي أربعة أضعاف ذلك .

وعند ذلك دخل أبو الذهب القاهرة دون أن يضطر لعمل حربي أو لرفع سلاح لأن الأهالي وباقي الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه كما تقدم ولكن مع سنوح هذه الفرصة لأبي الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فإن أول أعماله كانت سلب وحرق دير البساتين الذي كان اتخذه علي بك خصمه ملجأ له . ثم دخل المدينة دخول الفاتح القاهر وسار يقطع رأس كل رجل

يشتبه في ولائه لعلي بك وأمر بجمع كل العملة التي ضربها المعلم رزق من أيدي الجمهور وضرب خلافها باسمه . وبعد أن استقر على أريكته كتب لسلطان تركيا أنه خلَّص البلاد من علي بك وأكدَّ له أنه سيظل حاكماً لها وخاضعاً لسيادته .

ثم تواطأ مع بعض البكوات المماليك على أن يكتبوا خطاباً لعلي بك يدعونه فيه للعودة إلى مصر وأكدوا إخلاصهم واستعدادهم لخيانة أبي الذهب وانضمامهم إليه حال عودته . أما علي بك فقد تجددت قواه الحربية في أثناء ذلك بواسطة مصدرين عظيمين وهو في سوريا أولهما أنه أقام المخابرات بينه وبين روسيا (ولا يخفى أن الروسيين هم الأعداء الألداء الطبيعيين للأتراك العثمانيين) فأقرضته روسيا قوة الحرب الطوبجية والذخائر الحربية وثلاثة آلاف من العساكر القوزاق . وثانيهما أنه عقد محالفة جديدة مع الشيخ الظاهر والي عكا كما أن أحد قواده قام بتجريدة حربية وأعاد افتتاح طبرية ومدينتين على شاطىء سوريا بخلاف يافا وغزة والرملة وعاد منتصراً لعلي بك الذي تنازل عن هذه البلاد بعد افتتاحها إلى الشيخ الظاهر والي عكا .

فلما وصل إلى علي بك ذلك البلاغ والدعوة الكاذبة من المماليك المصريين حول حالاً جهة جيوشه إلى مصر وسار بهم حتى وصل إلى الصالحية وهناك التقى بجيوش أبي الذهب فانتصر علي بك في أول معركة قامت بين الجيشين ولكن مماليكه الخائنين ظهر منهم شيء من التراخي فلم يثق بحربهم وحدهم مع جيوش أبو الذهب الذي لما آنس من نفسه انهزاماً في المعركة الأولى وقف بين جيوشه المصرية يخطب متحمساً ويحرضهم على الاستقتال في الحرب ويدعوهم للجهاد الديني لأنه كان يقول لهم أن الله لا يسمح لعلي بك الذي هجر الدين الإسلامي ودخل في محالفة مع النصارى (الروس) أن ينتصر عليهم . وعلاوة على هذه الخطب الحماسية الدينية فإنه تمكن بواسطة الدسائس والخدع والرشوة مع ابراهيم بك ومراد بك مساعدي علي بك واتحد معهما على عصيان سيدهما والانقلاب عليه وقت الحرب

والانضمام مع الجيوش المصرية . وعلاوة على الرشوة العظيمة التي أخذها مراد بك من أبي الذهب اشترط عليه أيضاً أنه إذا خان سيده وانضم له عليه أن يعطيه الست نفيسة زوجة علي بك وهي امرأة شركسية بارعة الجمال كانت السبب الأول والأهم في خيانة مراد بك لمولاه علي .

فعند ساعة القتال خان البيكان مراد وابراهيم مولاهما وانضما إلى أبي الذهب فعندما رأى جيش علي بك ما كان من أمرهما دبَّت الهزيمة في صفوفه ولكن عشرة من المماليك المخلصين لمولاهم استمروا في القتال حتى تغلب عليهم رجال أبي الذهب وذبحوهم عن آخرهم وجرح علي بك جرحاً مميتاً فحملوه إلى القاهرة حيث توفي فيها بعد سبعة أيام لم يلقَ في أثنائها من عبده الذي أصبح سيده أدنى عناية .

مات علي بك الكبير سنة ١٧٧٢ م[١] بعد تلك الأعمال الحربية والسياسية العظيمة ومن عظيم أعماله الإصلاحية المباني العظيمة الكثيرة العدد التي شيدها في البلاد المصرية في العشر السنوات التي حكم فيها .

وأخص أعماله من هذا النوع في بولاق حيث شيَّد سوراً عظيماً وسوقاً كبيرة لم يذكرها الجبرتي بالخير . وفي عصره جددت ورممت وبنيت أعظم الجوامع والمدارس والسُبل والجسور والكباري وخصوصاً تلك التي شادها أحد رجاله المدعو الأمير عبد الرحمٰن .

ولكن كل هذه الأعمال العظيمة ، وهذا المجد الذي لم يسبق في مصر مثله منذ دخلها الأتراك لم يشفع له لدى الجبرتي الذي وصمه بوصمة البخل الشديد الذي لا يطاق ولكنه تعلل ذلك بحاجته إلى المال ليقيم به أعماله العظيمة .

ولا يفوتنا إن نذكر هنا قبل أن نختم الكلام عن حياة هذا الرجل العظيم

(١) كان علي بك ابن قسيس رومي كما سنذكر ذلك ومما رواه عنه (استافرو) في الفصل الأول من كتابات علي بك لما وُلد في سنة ١٢٢٥ سُمي يوسف وأنه خطف لما كان سنة ١٣ سنة أي سنة ١٧٤١ م .

أن نذكر ما رواه عنه (إستافرو لاسنبان) الرومي في كتابه «ثورة علي بك» وهذا الكتاب محفوظ بدار الكتب الملكية «وعليه معظم اعتمادنا ومصدرنا الوحيد في هذا الفصل» وفيه شرح مسهب لحياة علي بك بقلم المؤلف الذي عاشره واشتغل معه . فقد ذكر عنه في صحيفة ٨٣ في كتابه المطبوع في لندن سنة ١٧٨٤ ما يأتي . . «في عام ١٧٦٦ أرسل علي بك أحد مماليكه المدعو طنطاوي أميناً على الخزينة المُرسلة منه للباب العالي وأمره أن يبحث عند وصوله إلى استامبول في مدينة أماسيا (الأناضول) عن والديه إذا كانا لا يزالان على قيد الحياة حتى إذا وجدهما يدعوهما إلى الآستانة ليحملها معه إلى مصر . فقام مملوكه بالمهمة ووجد أن والده المدعو داوود على قيد الحياة (داوود هذا كان قسيساً من قساوسة الروم الأرثوذكس) فحمله معه إلى مصر ومعه أصغر بناته وحفيد له ، تاركاً أكبر بناته في المنزل مع زوجها .

ووصلت البشائر إلى علي بك بمقدم والده فخرج من المدينة ومعه أشياعه وبلاطه لاستقباله بما يليق بمقامه وجثا على ركبته وقبّل يديه ثم أنزله في داره وهناك قدم له زوجته مريم (وهي يونانية الأصل) وتلقى علي بك التهاني من جميع المصريين .

وأقام داوود هذا سبعة أشهر في القاهرة وصمم على العودة إلى أماسيا ولم تنفع فيه توسلات ولده بالبقاء فسافر من مصر محملاً بالهدايا النفيسة ، وأقلته سفينة خاصة إلى الآستانة . ومما يجب ذكره أن علي بك بذل مساعي كثيرة لدى والده لحمله على تزويج أخته المُسماة (يوهود) إلى محمد بك أبي الذهب ولكن الوالد رفض وعاد بأسرته إلى داره القديمة في الأناضول .

أما ما كان من أمر هذا الخائن (أبي الذهب) فإنه أعاد مصر تحت سلطة الباب العالي واستقرَّ هو في شياخة البلد ، وعاث في البلاد فساداً وكان من المحتمل أنه لو استتب قدم علي بك ، ولم يغدر به مملوكه ، أنه كان يسير بالبلاد سيرة حسنة ، ويوطد فيها دعائم مُلك ثابت الأركان رفيع العماد ، ولكن مصر كانت دائماً مقضياً عليها بمثل هذه الظروف السيئة .

ـ ١٤ ـ

أخبار المماليك في عصر الحملة الفرنسية

هذا الفصل منقول عن أوراق متناثرة وهوامش كتب دينية ورقوق محفوظة في مكتبة الدار البطريركية القبطية تحت عنوان «أخبار الأمراء السناجق» وهي تتناول عصر شياخة إبراهيم بك ومراد بك اللذين كانت لهما الزعامة أيام الحملة الفرنسية وأخبار هذا العصر لم أجد لها مصادر لغموضها فسدت هذه الأوراق عندي فراغاً كبيراً ولا يفوتني أن أذكر هنا أن الفضل في عثوري على هذه الأوراق يعود إلى الأستاذ توفيق اسكاروس كما نوَّهت عن ذلك في مقدمة الكتاب .

وسأنقل هذه الأوراق بأمانة ، وسيجد القارىء فيها فضلاً عن قيمتها التاريخية نموذجاً لأفكار أهل ذلك العصر وكتابتهم وأسلوبهم وتفننهم ، سيجد فيها القارىء أيضاً بعض أغلاط نحوية ولغوية ولكنني سأنقلها كما هي بدون تغيير فيها . . .

* * *

١ ـ في سنة ألف وخمسمائة للشهداء الأطهار ابتدأت الحنطة تقل . . لأن النيل الذي كان قبلها كان شحيحاً ومن قبل منه كان القمح هاف ومن قبل ما بدىء الغلا كان حكام مصر بينهم خلاف . . . وافترقا من بعضهما اثنين . . . وكان الغز (صغار المماليك) بصعيد مصر هاربين هناك في قلعة أصوان قاطنين عصاة أخذوا مال الصعيد من جرجا إلى آخر بلاد ملكهم ولم

يعطوا للسلطان مالاً ولا للمصريين غلالاً .

وأما حكام مصر المذكورين كان سبب افتراقهم هؤلاء القوم العصاة وعملوا حيلة لكي يصطادوهم بها وطلع مراد بك إلى الصعيد إلى أسيوط وأراد يجيب الذي في قبلى بحيلة فلم تدخل عليهم تلك الحيلة فقالوا لهم لما يصير بينكم حرب نحضر عندكم فرجع مراد بك إلى مصر وابتدأ بالحرب ما بينه وبين إبراهيم بك فكان قبالته بالبر الشرقي قبل دير الطين بمصر القديمة وأقاموا للحرب اثنين وعشرين يوماً وكان ذلك الحرب في سنة تاريخه في الرفاع الكبير فلما طال الحرب بينهما عدوا الذين من بر بولاق في الشرق إلى البر الغربي وبهذا السبب كسر الذين في الغرب وولّى راجعاً إلى الصعيد ثانياً ولم يقدر يجذب الذين في قبلى العصاة لا بالحيلة ولا بالقهر لأنه كان سافر لهم متجرداً لحربهم قبل ذلك أربعة أمراراً وكانوا يهربون من قدامه إلى السودان ولما يعود المذكور يرجعوا إلى جرجا وكانت هي حد ملكهم كما ذكرنا أولاً .

ولما طالت مدة رجوعه قبلى بعد حربه مع إبراهيم بك وطال مقامه في الصعيد أرسل إبراهيم بك إليه بالصلح وأحضره إلى مصر وأقاما الإثنين بالناحية وأما سبب قهرهم والحروب بينهم فهي مجيء رضوان بك من عند العصاة القاطنين بقبلى وأسماء العصاة ! حسن بك الجداوي وإسماعيل بك فلما قعد مراد بك في مصر مدة يسيرة طلع إبراهيم من أرض مصر إلى الصعيد زاعماً أنه مطرود من مراد بك وأرسل إلى العصاة يحضرهم عنده بدعوى أنه يحبهم وأنهم يحبوه ويأتوا عنده ويعينوه على مراد بك كي يقتلهم بهذا السبب أما هم فلم يحضروا ولم يأمنوا له فلما طال مقامه في الصعيد أرسل مراد بك له بالصلح فأحضره إلى مصر وزالت العداوة بينهما وهذا الأمر كان من الله . . .

٢ ـ وأما . . . بدء الغلا فكان في شهر كيهك في السنة المذكورة واتصل ربع القمح بالكيل المصري ثلاثين نصف فضة ، فكان ثمن الأردب

القمح بالكيل المصري ستة محبوب وبقي من كيهك إلى أبيب على هذا الثمن وفي ١٩ من شهر مسري جبروا البحر ووصل ثمن الأردب القمح في ذلك الوقت إثني عشر محبوب وبهذا السبب ماتت الناس بالجوع ولم يجدوا لهم أكفان وأكلوا لحم الميتة والفطيس والدواب التي لا يحل أكلها وماتوا وكانت الموتى مطروحة في الشوارع والأزقة والأسواق وموتى كثيرون هدموا بيوتهم ولم يسمع قط من مدة أجيال أن الحنطة حصلت على هذا الثمن وجميع الحبوب . وكانت أثمان العدس والأرز والفول والحلبة تفوق أثمان الحنطة وكانت الغلال تحضر من بلاد الشام ومن بلاد الفرنج إلى مصر المحروسة والشكر لله .

٣ ـ وفي سنة واحدة بعد الخمسمائة والألف للشهداء أتى في الصيام الكبير موت عظيم . وكان يُسمى بالطاعون حتى آيس باقي الناس من حياتهم وكانت الحنطة في ذلك الوقت بالثمن المذكور وكان أوقات يكثر وأوقات يقل (إلى عبد الملك ميخائيل !!) . . في ثاني عشر من شهر بؤونة فتراجعت أسعار الحنطة وساير الحبوب قليلاً . . وكان نيلها شحيح جداً .

٤ ـ وفي سنة اثنين بعد الخمسمائة والألف للشهداء وان القمح نزل في تلك السنة وبقي الأردب ثمنه ستة محبوب ثم أخذ في النازل واطمأنت الناس وسكن روعهم قائلين أن الله اطلع لنا بعين الرحمة ولم يدروا ماذا يكون .

ووردت أخبار إلى أرض مصر بأن السلطان أرسل حشود وجيوش كثيرة أتوا إلى مصر ليقتلوا الحُكّام هنا ولم يصدق أحد هذا الكلام . ففي أواخر الخماسين ملك الحشود الذين أتوا من عند السلطان بر الإسكندرية وفم البوغاز الذي لرشيد ودمياط وكان مقدَّم الحشود وعميد جيوشهم يُقال له حسن باشا قبطان وجنسه عثمانلي وأقام بالناحية المذكورة إلى عشرين يوماً من شهر بؤونة وكان مراد بك غائباً في الوجه البحري فأرسلوا له غز مصر وأحضروه بسرعة وعجلة فلما حضر عندهم وعرضوا عليه المشورة تجرد لحرب القوم المذكورين الذين أتوا من إسلامبول فلما مضى إليهم أتاه خوف

وفزع واضطراب عظيم وقلق جداً وسمع أن القوم الآتيين قدامه سبع باشات من عند السلطان وبهذا السبب انهزم وولّى راجعاً وهم وراءه يسيروا مُطاردين له إلى أن دخل إلى أرض مصر .

وفي سابع عشرين يوماً من أبيب من السنة المذكورة قفلوا مصر وأغلقوا أبواب المدينة وأخذ غز مصر الفزع والرعب الشديد وكانوا يسيرون من مكان إلى مكان وهم في ضجة عظيمة .

وفي وشهر ثاني يوم مسري ضاق بهم الحصار جداً فولّوا بالليل هاربين إلى الصعيد ولما أصبح ثالث يوم من مسرى دخل الحشود مصر وكانوا سبعة جيوش ويتظاهروا بمثل الحكم والعدل وأهم من داخل بخلاف ذلك وأرسلوا وراء الغز المذكورين عدة علايين محاربين فلما استمروا في مصر قليلاً وكملت لهم سبعة أيام قالوا لا يجوز لنصراني أن يمشي من تحت يمين مسلم وضايقوا على النصارى لكل ضيق شديد وكان حسن قبطان شديد العسف قوي الزعم متسلطاً بل قوته على النصارى حتى أنه فرض عليهم غرامات عظيمة واستجرمهم وأخذ أموالهم ظلماً وبهذا السبب هرب الأب البطريرك انبا يؤانس وهو السابع والمائة في عدد الآباء البطاركة واختفى عن كرسيه وجمع الأساقفة معه وأنهم غيَّروا لباسهم ولبسوا ثياب زرية وجميع النصارى القبط غيَّروا لبسهم حتى أن الكهنة لم يعرفوا من العلمانيين . . . وكان الأب البطريرك يجول من مكان إلى مكان حزين القلب على ما جرى بأرض مصر من هؤلاء القوم الذين لا رحمة في قلوبهم .

٥ ـ دخلت الغز الذين كانوا عصاة في وجه قبلى سبعة سنين إلى أرض مصر مكسورين من قدَّام مراد بك وإبراهيم بك وإن المذكورين الذين كسروهم أتوا وراءهم في البر الغربي إلى حد أم خنان وأقاموا بالناحية المذكورة إثني عشر يوماً وأرادوا يملكوا الجيزة فما أمكنهم من كثرة المدافع أن يبلغوا قصدهم فولّوا راجعين إلى الصعيد ثاني مرة وكان معهم أكابر قبط مصر ومُعلميها وأن الباشا عمل آلة حرب عظيمة وأرسلها مع التجريدة وراءهم .

ـ ١٥ ـ

علاقة المماليك بالأقباط والنزلاء الأجانب

إن علاقة المماليك بالمصريين كانت علاقة غريبة لا مثيل لها فإنه فضلاً عن أن هؤلاء المماليك كانوا أغراباً عن هذه الديار ولم يكن لهم هم إلا قضاء مصالحهم الشخصية وإرواء مطامعهم الأشعبية فإنهم كانوا لا يجدون لهم نفوذاً في هذه البلاد إلا بالتفريق بين عنصري المصريين . فلاقى المصريون من جورهم وفظائعهم ما لا يُطاق . وخصوصاً الأقباط . وستتكلم عند ذلك بالتفصيل في هذا الفصل .

إذا نظرنا إلى مصر طول عصر المماليك ، نجد أن ملوك السلاطين البحرية ، ومن بعدهم الجراكسة وأخيراً الوُلاة العثمانيين ، لم يكن لهم هم سوى استنزاف أموال الناس بأي طريقة كانت وبدون استثناء ولا تمييز بين المصريين ولا سيما لأن الوُلاة الذين كانوا يأتون إليها من القسطنطينية لم تطل مدة ولاية الواحد منهم أكثر من سنة ، وإذا سمح له بالبقاء في منصبه أكثر من ذلك فلا يكون إلا ببذل الأموال الطائلة طمعاً في تحصيل ما يزيد عمّا دفعه أضعافاً . وزيادة على ذلك انقسام المماليك على ذاتهم وقيامهم على بعضهم تارة وعلى الوالي تارة أخرى وانتهاز أهل الفساد ولا سيما العرب المعروفين بالهوارة هذا الاختلال فرصة للسلب والنهب وسفك دماء الآمنين من الناس . وبينما كان المماليك يُقاتلون بعضهم في مصر أو يُحاصرون الوالي في القلعة كان العرب يهجمون على البلاد وينهبون البيوت ويقتلون الرجال ويسبون النساء .

وقد أفاض الكلام على هذا الاختلال وسوء تصرف الوُلاة والحُكام المسيوميليية قنصل فرنسا والجبرتي والرحّالة بوكوك الإنجليزي الذي أتى إلى مصر سائحاً في سنة ١٧٣٧ م وأقام بها بضعة أشهر . وإذ كانت الحال فيها هادئة تمكن من الطواف في جملة بلاد منها . ولكنه قال في كتابه أنه قلّما كان يمضي يوم لم يسمع فيه بموت واحد من الأمراء وزعماء المماليك أما في معركة أوبالسم . وكانت الاختلافات التي تحدث بين المماليك أنفسهم تعود بالويل والثبور على الأهالي البعيدين عن المشاكل . فقد حدث أن تمرد المماليك سنة ٦٨٢ هـ في عصر برقة خان وهمّوا إلى نبذ طاعته فغضب لذلك غضباً أعمى بصيرته فلم يميز بين المجرم والبريء والمماليك والأهالي المُسالمين فساقهم جميعاً بعصا واحدة وأخذهم بذنب واحد وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام قتل فيه من المماليك جمع غفير حتى غصت الشوارع والطرق بجثث القتلى رجالاً ونساءً وأطفالاً .

* * *

والغريب في أمر هؤلاء المماليك أنهم لم يمتزجوا بالسكان الأصليين بل عاشوا مترفعين في معزل عنهم ، وقليل منهم من تزوج وكوّن له أسرة ، إذ كان دينهم الحروب والفروسية فلا يرضون بشيء يشغلهم عنها ، ومعظمهم كان يموت في ساحة الوغى وسنّه لا تتجاوز الخامسة والثلاثين ، ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضي بالزواج (وهو النذر اليسير) كان نسله يندمج على مدى الأيام في المصريين .

وقد غالى المماليك في أواخر العصر العثماني في ابتزاز الأموال من الأهلين وانغمسوا في الترف في مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، على غير عادتهم الأولى المبنية على الخشونة والسذاجة في كل شيء وصارت حُلة المملوك لا يقل ثمنها عمّا يعادل ٦٠٠ جنيه الآن (مع عظم قيمة النقود في تلك الأيام) ، ولا يمتطون إلا خيول «نجد» العربية الأصيلة التي يبلغ ثمن أحدها نحو ٣٠٠ جنيه ولم يكن ذلك مقصوراً على البكوات أنفسهم . بل أن

مماليكهم الذين لم يرتقوا بعد إلى مراتب الرياسة كانت ركائبهم مزينة بأفخر الحرائر ، ومزركشة من كل جانب بالذهب والفضة ، على حين أن المصريين الأصليين لم يُسمح لهم إلا بركوب البغال والحمير .

وصار أهل البلاد هم العبيد الحقيقيون و «المماليك» هم السادة . إذ استولى المماليك على جميع الأملاك إلا ما كان منها موقوفا على الأعمال الخيرية في وصاية العلماء ، وتشعثت حال الفلاَّح حتى صار رثاً في ملبسه ومسكنه ومأكله ، لا يكاد يفيق من دفع ضريبة شرعية أو غير شرعية حتى يطالب بدفع أخرى ، وإذا امتنع عن الدفع(فقراً أو ادعاءً) ضُرِب أو عُذِّب حتى يدفع وربما قُتل من أجل ذلك واختلَّ الأمن في تلك الأيام ، وكثرت مناسر اللصوص وقطَّاع الطرق ، فتأخرت التجارة ، وأُهملت مرافق الزراعة ، وانقرض معظم الصناعات . وكانت قد دخلت في طور تقهقر بعد أن نقل السلطان سليم أمهر الصُنَّاع إلى القسطنطينية فقضى الفقر واختلال الأمن على البقية الباقية منها .

وفي أواخر القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر هـ) كان صنع السكر لا يزال جارياً في بعض أنحاء البلاد ، وكذلك بقي أثر من صناعة الحرير والكتان التي كانت لمصر فيها شهرة فائقة من قبل ، كما بقيت نماذج من صناعة الزجاج .

على أن الذي لطَّف هذه الحالة أن ما كان يُجبى من البلاد كان يُصرف في نفس البلاد ، فالثروة التي كانت ترد متجزئة إلى خزائن البلاد وتتجمع فيها ، تُنفق بعد متجزئة إلى التجار من الأهلين إذ لم يكن ظلم المماليك وعسفهم ليمنعهم من الكرم وبذل الصدقات ، فكان كبار القوم يعيشون في رخاء وسعة . وكانت بيوتهم مفتحة للقادمين في الغداء والعشاء ، وكانوا في الأعياد يوزعون كثيراً من الأوز والعسل واللبن على الفقراء والمساكين كما يُوزعون عليهم الحلوى أيضاً في أيام الجمعة والمواسم .

* * *

إن علاقة المماليك بالأقباط كما أسلفنا كانت علاقة غريبة شاذة ، فقد شعر هؤلاء (المماليك) أنهم أغراب عن هذه الديار وكانت لهم مصالح كثيرة تحتاج إلى عناية وخصوصاً الأعمال المالية التي كان يحتكرها الأقباط[1] منذ أقدم العصور . وقد ثبت من المخلَّفات الأثرية الموجودة من هذه العصور أنها كلها من عمل المهندسين الأقباط وقد اضطر كثيرون من هؤلاء مُحاباة للسلاطين أن يسلبوا الكنائس أفخر الأعمدة الموجودة فيها ليُزينوا بها منشآت الخلفاء والسلاطين . ورغماً عن ذلك فإن علاقة المماليك بالأقباط كانت علاقة منفعة وحاجة فإن سيف المماليك بقي مُسلطاً على رقابهم طوال هذه العصور الطويلة .

فأول المصائب التي حاقت بهم كانت على يد رجل قبطي اعتنق الإسلام وسُمي شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن صاعد الذي كان وزيراً للأمير عزالدين أيبك فإنه أرهقهم بالضرائب والمظالم التي ضجوا منها .

وفي عهد الظاهر أُحرقت أكثر جوامع القاهرة فاتَّهم الأقباط بحرقها وتوالت عليهم المصائب بسبب ذلك ثم أثبتت الحوادث بعد ذلك براءتهم . وفي عهد قلاوون كانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بِطرد جميع الكُتَّاب

---

(١) قال الكاتب الرحَّالة فولني الذي زار مصر عن أصل (قبط Copt) التي تطلق باللغات الأوربية على الأقباط فقال أن كلمة قبطي الغربية يظهر أنها تحريف لكلمة (أجيتوس) اليونانية التي معناها (مصري) إذ لابد من ملاحظة أن (يوشا) كان ينطق بها (au) عند قدماء اليونان وأن العرب بالنظر إلى عدم وجود حرف (g) كما ينطق أمام u,o,a ولا حرف P الفارسي يبدلون من هذه الحروف بحرفي Q (b) أي القاف والباء العربية فالأقباط والحالة هذه سُلالة قدماء المصريين (انظر صفحة ٣٦٧) نفحة إلى مصر لكلوت بك .

وقد قرأت في كتاب آخر أن أصل هذه الكلمة مشتق من كلمة فقط إحدى مدن الوجه القبلي التي كانت مأوى عظيماً للأقباط في العصر القديم ولكنني لاأقبل هذا الرأي (راجع صفحة ٥٣٦) من كتاب عادات وأخلاق المصريين تأليف وليم لان .

Mannvers and cusioms of Modern Egyptians W.Lane P 539.

الأقباط من ديوان الجيش . ولما مات هذا السلطان تولّى بعده ابنه الخليل فظنوا أن أيام ذُلهم قد انقضت فعادوا إلى ركوب البغال والخيل وأخذوا في تغيير هيئاتهم وملابسهم وعادوا إلى ما كانوا عليه من العز أولاً ولكن الحوادث بعدئذٍ زادت نار الاضطهاد اضطراماً فعاد المماليك إلى سومهم العذاب وأمر الخليل بطرد جميع كُتَّاب الدواوين الأقباط الذين كانوا عادوا إليها .

وكان من عادة الأقباط أن يُقيموا احتفالاً سنوياً في اليوم الثامن من شهر بشنس في ناحية شبرا يُسمونه عيد الشهيد . ففي سنة ٧٠٢ هـ في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر نكاية فيهم بإبطال هذا العيد فأُبطل من ذلك العصر حتى اليوم .

كانت كل هذه المصائب المتوالية داعية لإسلام كثير من الكُتَّاب الأقباط الذين أرادوا الانتقام من هؤلاء المماليك الغلاظ الأكباد . ففطن لذلك فأوعزوا إلى السلاطين أن يأمروا بعدم قبول إسلام الأقباط وإذا أسلم أحد منهم فلا يبرح باب أحد الجوامع بل يعيش من إحسان المسلمين أهل الخير .

وفي هذا العصر كثُر إحراق الكنائس ، فقام جماعة من رهبان الأقباط وأحرقوا عدداً كبيراً من الجوامع ، فقامت حركة عامة في جميع القاهرة على الأقباط ففنيت كنائسهم جميعها إلا كنائس بابليون والبيوت التي حولها . وشمل الخوف جميع الأقباط الساكنين بمصر والفسطاط فلم يجسروا على الخروج من بيوتهم وبقوا محبوسين فيها أياماً وسكنوا جميعاً بابليون لحصانتها وعدم إمكان التغلب عليها . ولما علم ملك الأحباش بما حلَّ بنصارى مصر أرسل رسولاً بكتاب إلى السلطان يطلب منه إعادة بناء الكنائس . ولما كان السلطان يخشى سلطة امبراطور الحبشة صرَّح لهم ببناء بعض الكنائس التي هُدمت على شرط أن لا يتوسعوا فيها أو يزيدوا عليها شيئاً مما كانت عليه قبل الهدم غير أن بعضها هُدم بعد تمامه بدعوى أنها لم

تُبنَ على حالتها القديمة أو أنهم زادوا في زخرفتها وإعلاء بنائها .

وفي أواخر عهد الناصر كان بين الأقباط الذين أسلموا رجلان أحدهما يُسمى موفق الدين والآخر كامل الدين صارا يتنازعان ويكدران راحة الحكومة بسبب طمع كل منهما في الوزارة والاستيلاء عليها واختصاصه بها . فألغاها السلطان وبذلك استقلّ موظفو الدواوين الأقباط بالأعمال الإدارية فكانوا في راحة لا منازع لهم في أعمالهم مدة باقي حياته .

وفي سنة ١٤٨٤ م هجم عرب الوجه القبلي على ديري أنطونيوس وبولا وقتلوا جميع من فيها من الرهبان وبقيا خراباً نحواً من ثمانين سنة وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة فجمعوها وأحرقوها عن آخرها ولم يبقَ منها إلا ما خفي عن عيونهم .

وفي أواخر الجيل السابع عشر للميلاد ألّف رجل من أعيان الأقباط يُسمى (أبا دقن المنوفي) كتاباً باللغة العربية شرح فيه حال الأقباط في ذاك العصر وعوائدهم وتاريخهم في ذلك العصر وهذا الكتاب الجليل موجود بمكتبة جامعة اكسفورد بانجلترا وقد تُرجم إلى اللاتينية ونشر بها سنة ١٦٧٥ م وترجمه أيضاً إلى اللغة الإنجليزية ونشره السر سادلير سنة ١٦٩٣ ميلادية . وفي نهاية هذا الجيل كان للفرنسويين بمصر قنصل يُسمى المسيو ميلييه حضر إليها في سنة ١٦٩٢ م وكتب تاريخاً جليلاً عن الأقباط وعلاقتهم بكنيسة روما .

* * *

وأما حال الأقباط في عهد الدولة العثمانية فقد كانت هادئة نوعاً ما في أول أيام هذه الدولة لرفع الاضطهاد عنهم وتشاغل المماليك بسبب الكوارث التي كانت تتساقط عليهم من وقت إلى وقت وعاشوا كل هذه المدة مع غيرهم على أحسن حال . غير أنهم كانوا يزيدون عنهم في المصائب من جراء الجزية التي صارت تُسمى الجوالي . وفي عام ١٧٣٣ م صدر أمر السلطان للوالي بزيادة الجزية عليهم وعلى اليهود وجعلها ثلاث درجات

الأولى أربعة دنانير والثانية إثنان والثالثة واحد ففرضت على جميع الذكور منهم بدون استثناء وألزم البطريرك بدفعها عن القسوس .

ولما فسدت الحال واختلّ النظام واستولى عرب الهوارة على معظم بلاد الوجه القبلي انتهى القبط إليهم فأدخلوهم في ذمتهم وحماهم فصار القبطي يخاطب العربي المنتمي إليه (بيا بدويني) والعربي يُسمى القبطي الذي تحت حمايته (بيا نصرانيني) . ورغماً عن ذلك فإن حالهم كانت راضية وتحسنت أحوالهم وصار الأقباط يُكنون بأسماء المماليك . ومع ذلك تسمع عن فترات استراح فيها الأقباط وأكرم زعماؤهم وذلك لاطمئنان المماليك من جهتهم لعدم إمكانهم الطموح للعرش الذي لا يتولاه إلا مسلم ومن هنا نعلم السبب الذي من أجله تولّى وزارات جميع سلاطين المماليك تقريباً وزراء من الأقباط . فيُقال مثلاً المعلم غبريال السادات والمعلم يوسف الألفي نسبة إلى مخدوميهم . وفي النصف الثاني من الجيل الثامن عشر الميلاد في عهد علي بك الكبير تولّى الوزارة وزيران قبطيان كان لهما في التاريخ ذكرى مجيدة وهما المعلم رزق وأخوه المعلم إبراهيم الجوهري وتجد ذكرهما في الفصل الخاص بعلي بك الكبير . وفي عهد مراد وإبراهيم أرسلت الدولة العلية حسن باشا ليهدىء الأحوال في مصر فأذاق الأقباط الذُل والهوان وأعاد الأوامر القديمة التي كانت تقضي عليهم بشد الزنار على أوساطهم وأمر برد الأموال التي وقفها المعلم إبراهيم الجوهري على الديور والكنائس إلى أموال الحكومة .

وفي عصر الحملة الفرنسية حسُنت حالة المصريين جميعاً للحرية الدينية التي منحها الفرنسيون للجميع وعند عودة الحملة الفرنسية إلى الديار الفرنسية بعد أن خابت مساعيها هاج الرعاع وأحرقوا الكنائس وغيرها فقامت طائفة من الأقباط وكوّنوا جيشاً قبطياً ردَّ عنهم غائلة الردى بقيادة الجنرال يعقوب الذي خرج مع الحملة الفرنسية ومات في فرنسا . ومن الذين خرجوا أيضاً معه من مصر المعلِّم الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسوي والعربي .

وعاش الأقباط في حياة مريرة بقية عهد المماليك حتى خلّصهم من هذا الضغط محمد علي باشا الكبير فإن أحوالهم أخذت في الارتقاء وأمورهم في الاستقرار .

* * *

في عهد دولتي المماليك الأولى والثانية نجد أن علاقة المماليك بالنزلاء الأجانب كانت معدومة إلا العلاقة الحربية التي كانت قائمة بين المصريين والصليبيين وإنَّا نجد أنه من الصعوبة أن نجد ذكراً لزيارة أحد من الأجانب أو إقامته في مصر أو الولايات التي كانت محكومة بالمصريين إلا أننا نجد في عهد مماليك الطبقة الثالثة ذكراً للسفراء الأجانب وبعض الزوّار الأوربيين الذين حضروا إلى مصر (وذلك لتمتع الأجانب بالامتيازات التي منحتها لهم الدولة العلية) لأغراض تجارية أو سياسية أو علمية ثم أننا نجد أن جالية كبيرة في أواخر عهد هذه الطبقة استوطنت مصر . إلا أن عزلة المماليك عن بقية العالم ، في جهل تام عن قوى الدول الأوربية وأطماعها ، أو عن بعضها البعض ، ولذا نجد أن المصريين لم ينتفعوا بإقامة الجالية الأوربية النشطة التي كانت مستوطنة بمصر ، بل اكتفوا بالنظر إليهم بعين الازدراء والمقت . ظناً منهم أن دولهم ما زالت على الضعف الذي سمعوه عنهم أيام الحروب الصليبية ، وفاتهم أن الزمن قد تغير ، وأن أوربا أصبحت على مبلغ من القوة وسعة العلم وعظم الدراية والفنون الحربية بحيث لا يمكن مصادمته إلا بمثله .

وكانت مظالم المماليك على التُجّار الأوربيين لا تُطاق من إرهاقهم بالضرائب الكثيرة الثقيلة الحمل ، ثم إهانتهم ومصادرتهم في أموالهم بدون أسباب تدعو لذلك . وإننا نجد كل ذلك مذكوراً في تقارير قناصل فرنسا في مصر ـ ونعني تقرير ماجلون Magallon الذي اتخذته الحكومة الفرنسية ذريعة لحملتها على مصر وهو يشكو مر الشكوى من معاملة المماليك للتجار الفرنسيين سواء في الإسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة .

وقبل ذلك في عهد مراد بك وإبراهيم بك عام ١٧٨٦ م (١٢٠٠ هـ) وصلت الجيوش التركية إلى الإسكندرية بقيادة حسن باشا . ولما علمت الحكومة الروسية بذلك أوعزت إلى قنصلها في الإسكندرية بتعليمات سرية أن يتحد بمحالفة مع البكوات المماليك ضد الدولة العلية . ففي الحال ابتدأ القنصل بفتح المخابرات بين الأميرين في هذا الصدد ولكن هذين المملوكين رفضا كل مداخلة أوربية ظناً منهما أنهما كفؤ لمقاومة الدولة العلية وحدهما بعد أن يتمّا استعداداتهما الحربية . لكن وصل حسن باشا التركي بجيوشه إلى الإسكندرية فجأة كأنه قد سبق السيف العزل .

هذان المثلان يعطياننا فكرة عن المعاملة التي لاقاها النُزلاء الأجانب في مصر ثم تظهر لنا أي عقلية كان يتمتع بها أولئك المماليك .

ـ ١٦ ـ

علاقة المماليك بالخلافة الإسلامية

بقيت الخلافة الإسلامية في بغداد عاصمة العراق حتى اجتاحها المغول بقيادة هولاكو من بغداد ، فقد خرَّب هذه المدينة وأهلك أكثر أهلها وخصوصاً العباسيين أرباب الخلافة الذين تعقبهم واحداً بعد واحد . وقد فكر بيبرس بعد توليه عرش مصر بعام واحد سنة ١٢٦١ م أن يعيد الخلافة العباسية وأن يجعل مقرها مصر ، وكان غرض بيبرس من ذلك أن يوطِّد مركزه ضد أعدائه لاستمداده السلطة من سلطة عُليا رسمية هي سلطة الخلافة . وكان أهم من ذلك لديه القضاء على نفوذ الشيعة الذي كان لا يزال باقياً في مصر منذ عهد الفاطميين بتولية خليفة سُني ، فأرسل رُسُله لهذا الغرض باحثة عن أي عباسي تكون قد أخطأته مذبحة هولاكو فعُثر على عباسي مُختفٍ في سوريا ففرح بالعثور عليه فرحاً لا يُوصف وفعلاً أرسل لعُماله في سوريا بإكرامه وتنظيم موكب حافل يعود به العباسي إلى مصر . وعندما جاءت البشائر بقرب مقدم الموكب خرج السلطان بنفسه بموكبه الفاخر وحاشيته لانتظار العباسي القادم خارج المدينة ، وقد تبع السلطان في خروجه جميع أهل الملة من المسيحيين واليهود الأولون يحملون في أيديهم الإنجيل والأخيرون يحملون التوراة . وقد دخل العباسي إلى المدينة دخول الفاتح المنتصر ، في موكب لا مثيل له من الوجاهة والفخامة بين تهليل الناس وأفراحهم وسار الموكب إلى القلعة حيث بويع للعباسي بالخلافة ودُعي «المستنصر بالله» وأقسم له بيبرس ورجال حكومته على الخضوع

والامتثال ، وفي نفس الوقت قلّد الخليفة بيبرس سلطنة البلاد وعند صلاة الجُمُعة دعى في الخطبة لآل عباس ، وعقب ذلك وقف الخليفة ودعا للسلطان بدوام المُلك والبقاء .

ودامت الأفراح بعد ذلك في القاهرة لمدة شهر ، وفي إحدى هذه المهرجانات ، قام العرب والمماليك بمبارزات حُبية على النيل في جهة بولاق ، وبعد نهاية هذه المبارزات خلع الخليفة على السلطان الخلع وهي «جُبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من الذهب ، وقلّده سيفاً عربياً» ومنحه تقليد المملكة بعد أن تلاه عليه وفيه حث للسلطان على نصر الإسلام والدفاع عنه والحرب في سبيله . وواجباته نحو الرعية والعدل بهم والإشفاق عليهم ، وتلت ذلك أفراح لا تُحصى فقد تلقى بيبرس هذا التقليد بين دق الطبول وعزف الزمور وتهليل الناس وتكبيرهم وعاد الموكب بعد ذلك في طريقه إلى القلعة في مهرجان ليس له مثيل ، فقد كانت المدينة مزينة والطرقات من بولاق حتى القلعة مفروشة بالبسط . وقد سار الموكب بالترتيب يتقدمه السلطان ويتبعه الخليفة ومن خلفه الوزير على صهوة الجياد وأما الجند والشعب فقد تبعهم على الأقدام بين أصوات الحبور والأفراح حتى القلعة وكان منظر ذلك الموكب من المناظر التي لا يمكن وصفها ولا يحيط بها العقل لما احتوته من وسائل الفخامة ومظاهر المُلك .

وقد أراد بيبرس بعد ذلك أن يقوم بخدمة للخليفة العباسي وليعزز مركزه بأن يُعيد إليه خلافته العباسية في بغداد وفعلاً أعدَّ جيشاً قوياً مدرَّباً ليُقابل به هولاكو . ولو أخلص بيبرس النية لهزم التتار هزيمة مؤكدة إلا أنه في أثناء خروج بيبرس مع الجيش إلى سوريا أسرَّ إليه بعض الأمراء أنه في تكوين خلافة عربية قوية في بغداد خطر داهم على استقلال مصر ، وعندئذٍ صمم بيبرس على نفض يديه من مسألة الخليفة وتركه يخرج وحده مع جماعة قليلة من الجُند لملاقاة التتار وفي أثناء سيره تركته المماليك وحيداً وانفضوا من حولة فانقضَّ عليه المغول وقتلوه هو وحاشيته شر قتل .

وعاد بيبرس في أثناء ذلك إلى مصر حيث وصلته أخبار هذه الفاجعة الأليمة . التي كانت من تدبيره ووضعه ليتخلص من الخليفة الذي أعطاه من السلطة نفوذاً هائلاً والذي قدمه عليه في كل شيء ، وفي هذه المرة لم يقع في مثل ما سقط فيه المرة الأولى من الهفوات فاحتاط لنفسه وولّى أحد سلائل العباسيين أيضاً الخلافة إلا أنه لم يعطه من السلطة شيئاً ولم يجعل له أي نفوذ أو دخل في شؤون الدولة وجعله شخصاً عادياً في الحاشية مراقباً سجيناً لا يُبارح القلعة إلا بإذن السلطان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الخليفة وليس له من الخلافة إلا اسمها . والعمل الوحيد الذي كان يقوم به هو أن يُتمم الحاشية في المهرجانات الرسمية المهمة . وأهم عمل كان يقوم به هو أن يعترف بالسلطان الجديد ويمنحه البركة بصفته أكبر رئيس ديني إسلامي .

بقيت الحالة كما كانت منذ عهد بيبرس حتى عام ١٤١٠ ـ ١٤١١ م عندما ثار المماليك على السلطان فرج بن برقوق وقتلوه واجتمع العلماء والمشايخ وزعماء المماليك ، ولما كان الخليفة زعيم الثورة لاتهامه فرج بالخروج على الدين الإسلامي لضربه سكة للمملكة جعل عليها صورته ! ، فقد اجتمع الزعماء وطلبوا إلى الخليفة العباسي أن يرتقي إلى العرش ليصون الشريعة والدين من تلاعب المارقين ، وكان «عباس» الخليفة يرفض هذا المنصب لأنه يعلم مقدار قوة المماليك وضعفه أمامهم . فاشترط لقبوله العرش أنه إذا خلع من السلطنة يحتفظ لنفسه بمركز الخلافة ، وقد تولّى العرش عام ١٤١٢ م وهو في سوريا «ولُقّب بالخليفة الإمام المُستعين بالله» وعاد في أُبهة هائلة إلى عاصمة مُلكه وقد فرح الناس بهذا الحادث فرحاً جزيلاً لتوقعهم انتعاش الخلافة بعودة النفوذ الزمني إليها .

ولكن المماليك لم يستكينوا لذلك وسرعان ما أصبح الخليفة سجينهم حال عودته لمصر ، وقبض زعماؤهم على أزمّة الأمور ثم حدث بعد ذلك بعام واحد أن ثار ثائر البدو فانتهز «شيخ» أكبر زعماء المماليك والحاكم الحقيقي للبلاد في ذلك العصر ، هذه الفرصة وطلب بوجوب تعيينه سلطاناً

على البلاد لصالحها وصالح الحكومة ، وفعلاً خلع عباس من العرش والخلافة وأرسله سجيناً إلى الإسكندرية ووثب شيخ بعد قليل إلى العرش ، ومنذ ذلك الوقت حرم الخليفة من جميع امتيازاته وأصبح عمله الوحيد أن يتبع الجيش في جميع غزواته ليمنحها البركة .

وقد بقيت الأحوال مرعبة كما ذكرنا حتى خرج الغوري إلى حرب السلطان سليم في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م ، وذكرنا في غير هذا المكان انكسار جنود المماليك وانحياز بعض قوادهم الخونة مع الخليفة والقضاة إلى السلطان سليم ، وقد رافق الخليفة (المتوكل) سليماً في غزوة لمصر وبقي في معسكره طول مدة حرب سليم للسلطان طومان كما أوضحنا ذلك . وقد منح سليم في بادىء الأمر الخليفة سلطة عظيمة حتى أنه ما كان يُنفذ حكماً شرعياً في مصر إلا بعد موافقته وقد رأينا أيضاً قبول شفاعته في كثير من الزعماء والعلماء .

ولما بارح سليم القاهرة استصحب معه الخليفة وجميع سلائل العباسيين ، إلى القسطنطينية ، وقد ساروا مُهانين مُحتقرين ، واعتبروا أفراداً عاديين في حاشية السلطان سليم ، وذلك لأنه اتهم الخليفة بأنه لم يحافظ على أموال اليتامى التي عهد بها إليه بحكم وظيفته الدينية في أثناء الهجوم على القاهرة ، ولذا ما كاد الركب يصل إلى القسطنطينية حتى سجن في حصن «القلاع السبع» في ضواحي العاصمة التركية وبقي سجيناً معتقلاً في القلعة حتى مات السلطان سليم . وتلاه على العرش السلطان سليمان القانوني ، فأذن للخليفة البائس أن يترك معتقله فاستوطن القسطنطينية وعاش بقية أيامه زاهداً يتناول مرتباً بسيطاً من خزانة الحكومة التركية .

وتنازل الخليفة بعد ذلك عن الخلافة لسلاطين آل عثمان ، فلقبوا بألقاب الخلافة من ذلك اليوم وبقيت فيهم حوالي أربعة قرون إلى أن ألغاها بطرد سلائل العثمانيين من تركيا الغازي مصطفى كمال باشا .

وبعد أن أصبح الخليفة شخصاً عديم الأهمية بتنازله عن ألقابه ووظيفته

سمح له بالعودة إلى القاهرة ، ولا نعلم بالضبط تاريخ عودة «المتوكل» إلى مصر لأن مصدرنا الوحيد في هذه الفترة «تاريخ ابن اياس» ينتهي حتى عام ١٥١٢ م ولم يذكر فيه شيء عن تاريخ عودة الخليفة فلا بد أنه قد عاد بعد هذا التاريخ .

ولما وصل الخليفة المنزوع إلى مصر ، أثار الناس والعامة والعلماء وبقايا المماليك فتنة عامة ضد الأتراك وحكمهم ، ورأس بنفسه هذه الثورة ولكن الثورة فشلت نهائياً ، وقضى الخليفة نحبه يائساً عام ١٥٣٨ م .

ـ ١٧ ـ

المماليك والامتيازات الأجنبية(١)

تخضع مصر اليوم لنظام الامتيازات الأجنبية التي تفرضها علينا المعاهدات التي ارتبطت بها تركيا مع الدول الأوربية . وأهم هذه المعاهدات وأولها هي التي وقّع عليها السلطان سليمان القانوني (الذي سُمي قانونياً لسنّه هذه القوانين) وفرانسوا الأول عام ١٥٣٥ ، ثم تلتها معاهدة أخرى بين الدولة العثمانية وانجلترا في سنة ١٥٧٩ ، وبينها وبين هولندا عام ١٥٩٨ ، وبينها وبين المجر عام ١٦١٥ وروسيا عام ١٧٠٠ ، ومملكة نابولي عام ١٧٤٠ ، ومملكة دنماركا في سنة ١٧٥٦ وإسبانيا عام ١٧٨٢ ، وأميركا عام ١٨٣٠ ، ومعاهدة أخرى مع فرنسا عام ١٧٤٠ .

ولكننا نتساءل هل كانت هذه النظم جديدة في حكومة المصريين ، وهل عرفها المصريون قبل عام ١٥٣٥ عندما وقّع الأتراك أولى هذه المعاهدات السالفة الذكر ؟ .

الواقع أن المصريين عرفوا هذه الامتيازات ، وكانوا هم أول من

(١) الامتيازات الأجنبية نظام نشأ في مصر من عمر طويل يرجع إلى أيام صلاح الدين الأيوبي ولكنه توطد وتثبتت أركانه على أيدي المماليك . فلما فتح الأتراك مصر على يد سليم الأول انتقل هذا النظام إلى تركيا عن طريق مصر . وليس العكس الشائع صحيحاً .

فهذا المقال وُضع لإظهار الخطأ الفاحش القائل بأننا ورثنا هذا النظام عن تبعيتنا للسيادة التركية وعلى ذلك عندما نبحث في الامتيازات الأجنبية يجب أن =

استخدمها في حكومة بلادهم فإذا نظرنا في تاريخ مصر ورجعنا إلى عام ١١٧٣ قبل ظهور دولة الأتراك ، وجدنا أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أبرم معاهدة مع جمهورية «بيزا» في ٢٥ سبتمبر من تلك السنة لتنظيم شؤونه مع الأجانب . نقتصر على ذكر ما ورد بديباجتها نقلاً عن كتاب فيليب جلّاد :

«بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ هذه صورة الوفاق الذي أبرمه صلاح الدين مع جمهورية بيزا بواسطة الدبران والوزير المُرسل إليه من قِبَل القناصل . يقول فيه صلاح الدين أن الأحكام الآتي ذكرها يجب أن تكون نافذة في عموم سلطنتي ، وينبغي أن يُحاذر الجميع مخالفة أوامري في كافة مملكتي ، وعلى جميع رعاياي أن يُراعوا الاتفاق الصادر عني ويحترموه لأن كتابتي واجبة الاعتبار في أيدي البيزانيين وحال إبرامي هذا العقد والوفاق أنا صلاح الدين كانت السنة ١١٧٤ لميلاد سيدنا عيسى الموافقة لعام ٥٦٩ للهجرة النبوية صلّى الله على صاحبها وسلم ، إذ في السنة المرقومة حضر إلى بلاطنا الملوكي ذو العظمة والعدل حضرة الدبروMليتي رسولاً مكرماً من قِبَل قناصل بيزا وأحضر معه الكتب من قنصلية الجمهورية المُشار إليها فاستمعنا أقواله من فمه وتلونا الكتب التي أحضرها ، ففهمنا منها أن البيزانيين راغبون في ولائنا وإطاعة أوامرنا والمجيء إلى ممالكنا كما في الماضي . . وقد فهمنا أيضاً من الرسول المومأ إليه ومن الكتب المذكورة أنه ، أي الرسول المذكور حضر باسم قناصل بيزا وجمهوريتها بحيث اعتبرنا أن لسانه لسانهم ويده أيديهم وأن كل ما أجريناه نحن صلاح الدين معه يكون جارياً نافذاً بتمامه . وبعد أن تحقق لدينا أنه حضر باسم جميع قناصل بيزا وجمهوريتها أدخلناه إلى بلاطنا الملوكي وسألناه عن السبب الذي ألجأ القناصل والجمهورية لإرساله إلينا وعمّا يريده منّا لنجيبه بكلام يعود لشرفنا

= نبحث على ضوء هذه الحقيقة وهي أنها منحة من مصر للأجانب وليست حقوق لهم وأن مصر التي منحت يمكنها أن تسترد الهبة عند الحاجة .

وشرفهم ويكون سبباً للولاء والسلم فيما بيننا . فتكلم الرسول بكلام نذكره لكم وأجبناه بما أجبناه فنذكر جوابنا لكم . وقد أثبتنا كل ذلك في عقد يحفظونه في أيديهم كشهادة من بيننا وبينهم تُثبت الوفاق الذي قررناه فيما بيننا . ومن مقتضى الوفاق المذكور أنه إذا حدث أمر مُخل من رعاياي أنا صلاح الدين في الديار البيزانية أو من البيزانيين في ممالكي يرجع كل منَّا إلى الوفاق المذكور كأنه شاهد علينا لزمن طويل . ذلك ما سبَّب حضور الرسول المُشار إليه إلى بلاطنا الملوكي مراعاة لمصلحة التجار الذين يجيئون إلى بلادنا ويحضرون معهم أصناف السلع والبضائع ويؤدون عليها الرسوم» .

وبقيت معاهدة صلاح الدين هذه مرعية ومُعتبرة مع الأجانب عموماً في الديار المصرية حتى جاء عصر المماليك ، وفيه كثر ورود الأجانب إلى هذه الديار واتخذوا التجارة ونقل البضائع مهنة لهم في السواحل المصرية ، ولما كانت حاجة المماليك إليهم عظيمة في تصريف تجارة الشرق التي احتكروها أباحوا للأجانب الاستيطان في الديار المصرية ، والبقاء فيها بقصد الإتجار فأصبح لهم قناصل في جميع الموانىء والسواحل وداخل البلاد وعقد السلطان أبو النصر مع جمهورية فلورنسا سنة ١٤٨٨ معاهدة تنظم حقوق الأجانب وامتيازاتهم في الديار المصرية والبلاد التابعة لها وهذا طرف مما جاء بها نقلاً عن كتاب لطفي بك صفحة ١٥ :

«بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ هذا أمر السلطان السامي رفع الله شأنه وأعلى مقامه ـ إننا نعرف جميع الوُلاة والحُكَّام ووُلاة المسلمين المحمديين وكُتَّاب سِرِّنا المستخدمين في مدينة الإسكندرية حفظهم الله وفي سائر مرافىء مملكتنا السنية الإسلامية إن المؤدب «لويجي دبلاستوفا» المُرسل من قِبَل السلطان حاكم الفيورنتيين تقدم إلى بابنا العالي وبعد أن أُسعد بالجلوس في حضرتنا السنية وعرض علينا باسم رئيسه الأشياء المتعلعة بأمة الفيورنتيين وتُجارها والمعاهدات التجارية السابق عقدها من السلاطين سلفائنا . . (من هذا يُستدل على أن أمر هذه المعاهدات سابق لهذا التاريخ) التمس من

مراحمنا تجديد المعاهدات المذكورة وتثبيتها بأمر سام منّا فبناء على ذلك أمرنا جميع وزرائنا بأن يطيعوا أمرنا هذا ويقوموا بتنفيذ المعاهدات الآتي ذكرها بمزيد العناية والدقة» .

وفي البند الرابع عشر من هذه المعاهدة تنظيم لحالة وقوع الخلاف بين الأجانب مما ينص على عدم تدخل الحكومة المصرية في ذلك ، فجاء ما نصه :

«إذا وقع خلاف ونزاع بين الفيورنتيين أنفسهم ليس لُحكامنا وقُضاتنا المسلمين أن يتداخلوا في مسائلهم ، ولكن الحكم في ذلك عائد لقنصل الفيورنتيين فيحكم في مثل هذه الحالة بما يُناسب القوانين الفيورنتية ، هذا ما نأمر بإجرائه» .

ويظهر لكل من يطلع على نصوص المعاهدات التي صدرت من المماليك للأجانب أنها تقضي بمحاكمتهم فيما يقع بينهم وبين المصريين من الخصومات أمام السلطة المحلية ، وأنهم يُعاملون حسب قوانين البلاد وكانت إذ ذاك تتبع نصوص الشريعة الإسلامية . ويؤيد ذلك ما ورد صريحاً بالمرسوم الشريف الصادر من الملك قايتباي للفيورنتيين في السابع من شهر جمادى الآخرة سنة ٩٠١ هـ «إن من شروط البنادقة أنه إذا وقعت مُحاكمة أو مُخاصمة بمال أو غيره من مسلم على بندقي أو على مسلم من بندقي تكون المحاكمة مرفوعة إلى الأبواب الشريفة ، إن كانا بالأبواب الشريفة أو إلى النائب أو الحاجب أو إلى المباشرين بالثغر ، وألاّ يحكم بينهما غير المُشار إليهم ، فرسم لهم بإجرائهم في ذلك على العادة والشروط القديمة ومنع من يعقد الحكم بينهم غير المُشار إليهم إلا بمقتضى الشرع الشريف» .

وجاء بالمرسوم الشريف السالف الذكر ما نصه :

«ذُكر أن من شروط البنادقة أن ثمَّ من الخاصكية والمماليك السلطانية والبريدية الذين يحضرون إلى ثغر الإسكندرية من يشوّش على طائفة البنادقة

ويسجنهم ويهينهم ويضربهم قصداً لقطع مصانعتهم بغير مستند ، ولا طريق ترسم لهم بمنع المذكورين من التعرض إليهم إلا بطريق أو مرسوم شريف . وكذلك لا يسجنهم النائب ولا يضربهم ولا يُمَكِّن أحداً من التشويش عليهم ولا من يعارضهم إلا بمستند شرعي أو بمرسوم شريف . وإذا طلب أحد من البنادقة الحضور إلى الأبواب الشريفة لا يُمنع ولا تُغلق عليه الأبواب بل يمكن من البيع من غير تعويق . فالجناب العالي يتقدم بإجراء جُماع الفيورنتيين المذكورين على عادة البنادقة المذكورين ومنع من يُشوِّش عليهم أو يتعرض لهم من المذكورين إلا بمستند شرعي أو بمرسوم شريف . ومن طلب منهم الحضور إلى الأبواب الشريفة يمكن ولا يعوقه عن حكم شروط البنادقة المذكورين» .

ومع عظم هذه الامتيازات والحقوق لم يكن يُسمح لقناصلهم بالتدخل في شؤون الحكومة إلا عند وفاة أحدهم ، ففي هذه الحالة فقط يصح للقنصل أن يضع يده على متروكاته بدون تدخل السلطة المحلية ، وقد ورد ذلك بالمرسوم الشريف المذكور أيضاً «ذُكر أنه من العادة في الشروط القديمة من الملوك السابقين أنه إذا هلك أحد من طائفة البنادقة لا يتعرض أحد من المسلمين لموجوداته بل يكون جميع ما يخلفه تحت يد القنصل أو رفقته من التُجَّار ، فرسم لهم بمنع من يتعرض لموجودات من يهلك منهم ، وأن يتولى أمر الهالك القنصل أو رفقته حملاً على جاري العادة وما تضمنته الشروط المُشار إليها» .

وقد وردت أكثر هذه النصوص في المجموعة التي عُني بجمعها العلاَّمة الإيطالي المستشرق المسيو «أماري» واستخرجها من مكتبة فلورنسا وطبعها ، وقد وجدنا بها أمراً عالياً صادراً من السلطان قايتباي لجماعة الفورنتيين (أهالي فلورنسا) في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٩٠١ يسمح لهم بالتجارة بثغر الإسكندرية وإقامة قنصل لهم ، ووجدنا بها اتفاقاً بين السلطان قانصوه الغوري وملك الفيورنتيين في ١٤ ربيع الأول سنة ٩١٠ هـ يسمح بإقامة قنصل للفيورنتيين في مدينة الإسكندرية .

وإليك نموذجاً من هذه المعاهدات القديمة وهو نص أمر عالٍ صادر بالسماح للفيورنتيين بأن يحضروا إلى موانىء الإسكندرية ودُمياط والبرلس ورشيد لأجل التجارة .

«الإسم الشريف ـ مرسوم بأن يتقدم كل واقف عليه من جماعة الفيورنتيين وفقهم الله تعالى باعتماد ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل به على ما شرح فيه .

«بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ رسم بالأمر الشريف العالي المولوي قانصوه ـ السلطان الملكي الأشرفي السيفي أعلاه الله تعالى وشرَّفه وأنفذه وصرفه أن يسطِّر هذا المرسوم الشريف إلى كل واقف عليه من جماعة الفيورنتيين وفقهم الله تعالى . يعلمهم أن المجلس السامي الأميري الكبيري العضدي الدحري الأوحدي الأكملي السبقي تغري بردي الترجمان القاصد أدام الله سعده حضر إلى خدمة أبوابنا الشريفة ، وذُكر لنا أنه جهَّز إليكم أماناً شريفاً لا يحصل معه تشويش على أحد . فقد أحاطت علومنا الشريفة بذلك وهو ناشىء عن مقامنا الشريف سمحنا لكم أن تحضروا إلى ميناتنا الشريفة وتبيعوا وتشتروا أسوة ببقية التُجَّار . وعليكم أمان الله تعالى وأمان رسوله ﷺ ، وأماننا الشريف ورسمنا بمنع من يتعرض لكم بأذية أو ضرر أو تشويش وألاَّ يُطالب الأب عن أبيه ولا أخ عن أخيه إلا بمستند في الثغر الإسكندري أو في ثغر من ثغور الإسلام بمستند شرعي فيتقدموا باعتماد ما رسمنا من ذلك على الحكم المشروح أعلاه ويحضروا إلى ثغور مملكتنا الشريفة طيبي القلب منشرحي الصدر آمنين على أنفسهم وأموالهم لا يمسهم ضرر ولا سوء فيعلموا ذلك ويعتمدوه والله الموفق بمنِّه وكرمه .

«وفي ثاني عشرين من شهر جمادى الآخرة المبارك سنة ثلاث عشرة وتسعمائة حسب المرسوم الشريف ـ الحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ـ نعم الوكيل ـ حسبنا الله تعالى ـ تمَّ بحروفه .

واستمرت هذه القوانين متبعة بل زيد في الحرية التي أُعطيت للأجانب استجلاباً لهم للحضور إلى هذه الديار فكثُر عدد الوافدين منهم وأكثروا من الاستيطان خصوصاً في بلاد السواحل . وكان أكثر هؤلاء الأجانب من البندقية ومن أهل بيشا وفلورنسا وكانت كل طائفة منهم تنزل في خان خاص بها يُقفل من الداخل في المساء ولا يُفتح عند الحاجة إلا بإذن من القنصل وكانت محلة الفرنسيين بالإسكندرية تُدعى Fondique[1] ومنها أخذت كلمة فندق التي تُستعمل الآن كأنها عربية صحيحة . وقد أضاع الأتراك على المصريين احتكارهم للتجارة ، وزاد الطين بلّة اكتشاف البرتغاليين لطريق الرجاء الصالح وقضاؤهم على الأسطول المصري في ميناء الهند في موقعة ديو ١٥٠٩ م ـ وكان من أكبر غلطات الأتراك مهاجمتهم لأملاك جمهورية البُندقية واستيلاؤهم عليها ، وبذلك فقدت الديار المصرية أهميتها التجارية ، وضاعت قيمة جمهوريات البحر المتوسط ، فقلَّ خروجهم للتجارة في موانىء الشرق ونزح الأجانب عن الديار المصرية ، وبذا أصبحت هذه القوانين عديمة الأهمية لعدم وجود الأجانب في الديار المصرية .

وجاء عصر الأتراك بعد أن قضى سليم الأول على سلطان الإمبراطورية المصرية في مرج دابق سنة ١٥١٦ م فبدأ نزوح الأجانب إلى العاصمة الجديدة (الأستانة) وسُمح لهم أولاً في الاستيطان فيها بالشروط التي كانت تُمنح لهم في مصر ، ولما كثر عددهم في تركيا في عهد السلطان سُليمان بدأ يفكر مع حليفته فرنسا في تنظيم علاقاته مع الأجانب لكي يفدوا بالمتاجر لبلاده ، ولكي يُضارب بهم نفوذ البرتغال الذي سلبه سلطان مورشيه المصريين في الشرق ، فعقد مع الملك فرنسوا الأول عام ١٥٣٥ م أول معاهدة لامتيازات الفرنسيين في الديار التركية وتلتها غيرها

---

(١) بقيت هذه الدار حتى عهد الحملة الفرنسية ونزل فيها بونابرت عند قدومه إلى الإسكندرية أثناء حملته الشهيرة .

كما أسلفنا في صدر هذا المقال . ومضمون كل هذه المعاهدات لا يختلف بنصه عما كان المماليك يمنحونه عادة للأجانب .

وكان من الواجب بالطبع على محمد علي باشا ومن خلفه من الخديويين احترام المعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر مع الحكومات الأوربية . ووجوب تنفيذ ما منحه سلاطين آل عثمان من الامتيازات للأجانب كما ورد بفرمان تولية محمد علي المؤرخ في أول يونيه ١٨٤١ م ففيه أن السلطان يسلمه مقاليد الحكم على البلاد المصرية ولكن يلزمه احترام جميع المعاهدات التي أُبرمت والتي ستُبرم بين الحكومة العثمانية وغيرها من الدول . وقد أجاب محمد علي عن ذلك في خطاب رفعه إلى الصدر الأعظم في ٢٥ يونيه سنة ١٨٤١ م أنه سيقوم بتنفيذ جميع المعاهدات المذكورة بالديار المصرية .

* * *

فأنت ترى من هذا أن الامتيازات الأجنبية نظام نشأ أولاً في مصر وانتقل إلى تركيا من مصر بحكم وراثتها لسلطان مصر في الشرق ، ولم ينتقل إلينا عن طريق تركيا كما هو شائع خطأ .

ـ ١٨ ـ

الفن العربي في عهد المماليك

بدائع الفن في هذا العصر

كانت مصر ولا تزال قلب الشرق العربي ، ومصدر الحضارة والفن للعالم الإسلامي ، فكان ارتقاء الفن العربي في العالم عبارة عن سلسلة تطوره في مصر . ولما قيّض الله لمصر استقلالها حقبة طويلة وزعامتها على غيرها من الممالك العربية لا بل على العالم العربي كله خصوصاً في عهد المماليك ، كان درسنا للفن المصري في عهد المماليك هو دراسة تفصيلية لرقي وانحطاط الفن العربي .

وسنمهد للفن العربي في عصر المماليك بكلمة صغيرة عن رقي الفن في العصور التي سبقته ، ولا يفوتنا أن نذكر أننا كتبنا هذا الفصل مستعينين بدليل دار الآثار العربية .

* * *

العصر الأيوبي :

كلنا يعلم من الفصول السابقة أن صلاح الدين أنقذ بيت المقدس من الصليبيين بعد أن مكثوا به ثمانية وثمانين عاماً ، فكان ذلك داعية لاتصال المشرق بالمغرب ، ذلك الاتصال الذي كان له أكبر أثر بين الأبنية الإسلامية ولم يظهر ذلك دفعه ولم يكن بالشامل العام لجميع البلاد بل كان مبدأ ظهوره في الشام حيث جاءها الصليبيون بكل ما من شأنه أن يساعدهم على تكوين أمة صليبية .

كانت غاية الصليبيين الاستيطان في تلك البلاد التي كانوا يأملون أن يمتلكوها بالفتح حتى أن تنقلهم في البلدان والقرى كان مقروناً بتشييد الكنائس وكان المسلمون إذا انتصروا عليهم يقلبونها مساجد ، ولبث بيت المقدس في يدهم حتى سنة ١١٨٣ هـ وحيثما حلّت أقدام الصليبيين بنوا الأبنية العظيمة على طريقتهم الغربية فتعلّم مهندسو الشرق أشكالاً جديدة وهم وإن لم يقتدوا تماماً بهذا الطراز المُغاير لطرازهم إلا أنهم قدّروه ووعوا صيغته حين رأوها قريبة الانطباق والاتفاق مع طريقتهم في العمارة .

وكان صلاح الدين مؤسس هذه الدولة رجل حرب يميل إلى العمارات الحربية ولتقدم فن العمارة لم يرَ من اللائق الاكتفاء بقصر الفاطميين فطلب إلى وزيره الأمين بهاء الدين الخصي قراقوش مسكناً جديداً فوق المقطم فبنى له قلعة الجبل وهي القلعة الحالية وعزم على توسيع أسوار المدينة ولكن لم تتحقق كل أمانيه في ذلك وكان الحجر اللازم لهذه العمائر الكبيرة يؤخذ من هرم الجيزة الصغير .

هذا ولم تقتصر همة بني أيوب على الأبنية العسكرية بل بذلوا الجُهد الكبير والعناية الزائدة في العمائر ذات المنفعة العمومية ، أما محلات العبادة والأبنية الخيرية فاتبعوا في تشييدها أوضاعاً مخصوصة يظهر أن الموجب لاتخاذها أوجه سياسية وذلك أن الدولة التي خلّفتها الدولة الأيوبية كانت شيعية وكان مذهبهم منافياً لمذهب أهل السُنة فلما أراد السلاطين من بني أيوب أن يحيوا في البلاد مذهب أهل السُنَّة الذي خرج منه كثير من أهله في عهد الفاطميين أنشأوا مدارس كثيرة لتدريس المذاهب الأربعة[١] .

(١) أول مدرسة أُسست بمصر هي مدرسة الناصر بقرب جامع عمرو وكان يدرس بها مذهب الإمام الشافعي (راجع المقريزي صفحة ٣٦٣ جزء ثاني) وفي مدرسة السلطان الصالح نجم الدين وجدت للمرة الأولى أربع منابر للمذاهب الأربعة (راجع المقريزي صفحة ٣٧٤ جزء ثاني) .

وهذه المدارس عبارة عن بناء في وسطه صحن كبير مربع وفي كل جانب من جوانبه الأربعة أيوان مقبَّب فيصبح شكلها بهذا الوضع الشكل المتعامد ، وهذه المدارس تُبنى دائماً على سِمته القبلة ويتخذ فيها المحراب ومن ثم يرى بالسهولة أن المدرسة لا تخرج عن كونها جامعاً من حيث تفاصيل أجزائها الأساسية بل أنه لم يفرق فيما بعد بين المدارس والجوامع واستمر اتخاذ الشكل المتعامد زمناً مقارناً للأشكال القديمة ذات الإيوانات وإنما كان يُرجح عليها في المساجد الصغيرة .

ويجدر بنا هنا أن نوفي المدارس حقها من البحث فنقول أن أقدم المدارس التي لا تزال لها بقية هي مدرسة السلطان الكامل التي بُنيت في سنة ٦٢٢ هـ وهي الآن خراب . ولم يبقَ شيء مما كان في منتصف القرن الماضي يروق زائرها من المنظر البهيج وإن كانت لا تزال أوضاعها الأصلية ظاهرة وقد نقل ما كان باقياً بها من زخارفها الثمينة الكثيرة إلى دار الآثار العربية وحفظ بالغرفة الثالثة وهذه الزخارف مُتممة لما عثرنا عليه في جامع الصالح طلائع الذي بينه وبين المدرسة المذكورة تقارب كثير ، وبالمدارس التي شادها السلطان الصالح نجم الدين بعد المدرسة الكاملية بثمانية عشرة سنة دقائق خاصة وهذه المدرسة عبارة عن بناءين منفصلين عن بعضهما بدهليز يدخل إليه من تحت المنارة وهي وإن كان في وجهاتها ما في الجامع الأقمر من الحنيَّات التي سبقت الإشارة إليها إلا أن الزوايا الداخلة للسقف استدارت أضلاعها بوجود المقرنصات في جزئها العلوي .

وفي هذه المدارس استخدمت المقرنصات في غير ما استخدمت فيه في الجامع الأقمر فتراها مستعملة استعمالاً بديعاً في علو حنية المنارة[1] ومن جملة الزخارف الخصوصية لهذه المدارس العصابات المفلجة ونقوش أخرى اتخذت نموذجات للزخرفة في كثير من آثار الأعصر التالية . ومما

(١) بالجزء العلوي من المنارة كثير من المُقرنصات ولكنها ليست من عهد بنائها بل من وقت إصلاحها .

يُنسب لهذا العصر أيضاً من الترقي في ضروب فن العمارة اتخاذ مقرنصات زوايا القباب فإن خرطوم الزوايا بعد أن كان مكوَّناً من حنية واحدة كما في جامع الحاكم أصبح مركباً من مجموعة حنيات إذ عملت مقرنصات قبة السلطان الصالح وقبة الإمام الشافعي المعاصرة له تقريباً على هذا النسق .

ويظهر تأثير الغرب في المباني الشرقية ظهوراً تاماً في تربة السلطان الصالح التي بُنيت بعد عمارة مدارسه بسبع سنوات وهي تتصل بنافذة في حائط الإيوان ولها وجهة رسمها مثل رسم وجهة هذه المدارس إن لم نقل من كل وجه فعلى الأقل في العموميات . فمن دلائل هذه التأثيرات الغربية الإفريز العلوي المنقوش فيه ورق شجر مثنية أطرافه إذ لا يتردد المتأمل فيه في إدراك أصله الغربي يؤيد ذلك الخطأ الحاصل في الوضع والتطبيق لأن الإفريز جاء وضعه قائماً عند الباب فيظهر أنه محتضن له على حسب الشكل العربي بحيث أن الأوراق تُرى مغايرة لوضعها الطبيعي أما التربة الملحقة بالمدرسة فهي من الابتداع الجديد الذي لا يخفى موقعه من الأهمية ولم يزل ينسج على منواله في العصور التالية ومن لوازمه وجود القبة فوق التربة .

وفي هذه المدارس يُلاحظ أيضاً تحسين ظاهر في صناعة نقش الأخشاب بالنسبة لما كانت عليه في بنايات الفاطميين إذ استبدلت النقوش ذات الرسم الواسع بنقوشات عربية دقيقة ولكن للأسف أن بين هاتين الطريقتين فترة طويلة ضائعة آثارها إذ أن الأخشاب ذات النقوش التي أصلها من جامع الصالح طلائع ليس لدينا منها إلا أوتاراً من عهد تشييده ومن ثم ننتقل دفعة واحدة من غير تدرج إلى مصاريع التربتين اللتين سبق الكلام عليهما أعني تربة الصالح وضريح الإمام الشافعي وحيث كان باب هذا الضريح من سنة ٦٠٨ هـ فيكون بين هذين الضربين من النقوش نصف قرن تقريباً . وبعد هذا التاريخ تقدمت صناعة الخشب المشغول بسرعة وبلغت درجة من الاتقان عالية .

وقبل أن نختتم الكلام على قبر الصالح نجم الدين لا نجد بدأً من ذكر

الوزرات الرخام المُحلَّى بها داخله فإن رسمها ليس عليه مسحة من البهاء وكل من يراه لا يصدق التقدم العظيم الذي حصل بعد ذلك بعشرين عاماً .

عهد المماليك البحرية :

في الأيام الأولى من حكومة المماليك البحرية نجد في البنايات من الأشكال ومادة الصناعة ما يجد النقَّاش أصله في غير مصر وإن الزخارف المتخذة من الجص المُحلَّى بها جامع الظاهر بيبرس الكبير الذي بُني في سنة ٦٦٥ هـ وبين طراز الواجهات المنسوج على منواله في أبنية قلاوون تشابه عجيب وكلاهما عليه مسحة تدل على أنه من غير صناعة أهل البلاد ولا شيء يدل على عدم التقيد في الصناعة بضابط مخصوص ولا قواعد مربوطة مثل الواقعة الآتية : وهي أن محمداً الناصر لمَّا أنشأ المدرسة المنسوبة إليه في القاهرة اصطنع الباب من مواد أصلها من بوابة من الطراز القوطي أخذها من كنيسة عكا سنة ٦٩٠ هـ وجاء بها إلى مصر غنيمة شاهدة له بالنصر على الصليبيين في إحدى حروبه معهم ولننبه مع ذلك إلى أن هذه الحالة التي فيها استعمل الشكل الغريب بدون تمهيد وتوفيق سابق عليه قليل المثال في تاريخ الصناعة .

على أن هذا المثال ليس من شأنه أن يحدث كبير أثر على ترقي فن العمارة العربي المطرد هذا ومع كثرة الأبنية التي شادها الصليبيون في سوريا وانتقلت أشكالها إلى ما جاورها من البلاد بحكم التقليد فإنها لم تصل مصر محوّرة حيث كان يوفق بينها وبين مقتضيات ذوق أهل البلد .

ولذلك كان من المُتعين أن يقوم سد حائل دون تغلب الأشكال المتعددة المُجردة عن الضبط والتناسب على صناعة الأبنية العربية . فجاء حكم محمد الناصر من أقوى العوامل على تطهير هذه الصناعة لتخير المناسب ورد غير المناسب من الأشكال الأجنبية . لأنه كان زمن أمن وجد وقد كان للناس بالسلطان الناصر أُسوة في ذلك حيث سنَّ هذه السنة إذ شاد بالقاهرة مدرسة جعل فيها قبره ومسجداً عظيماً بالقلعة كما أنه أتمَّ بناء

المارستان الذي شرع والده في بنائه قبل وفاته فاقتدى به . ونسج على منواله وذووه ووجهاء دولته .

وعادت النهضة التي امتاز بها هذا العصر بأحسن النتائج على الصناعة لأن التردد وعدم الضبط فيها زالا وتبدلا باحكام وصراحة .

ومع كثرة التنوع الناشئة من غزارة مادة الأشكال والتراكيب ظهرت وحدة في التصوير صريحة جلية لا التباس فيها أضحت أساساً لطراز يعز نظيره في الاتقان وسرى الترقي التدريجي في وضع الوجهات وشمل القواعد والأصول التي ورثناها عن الزمن السابق فغدت سطوح هذه الوجهات تتخذ فيها مجموعة من الحنايا العالية القليلة الغور يراها الناظر فوق الجدران كأنها صفوف أُعدت لأن يتخذ إليها الشبابيك صفوفاً وفي نهاية هذه الحنيَّات غطاء أُفقي من مداميك المقرنصات ويرى الباب من الشكل ذاته غير أن الحنية فيه أكثر اتساعاً وأبعد غوراً وترتب على هذا الوضع أن كثر استعمال المقرنصات والتفنن فيها .

وفي هذه الأبنية اتخذت الوجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالباً من لونين واستعمل فيها زيادة في الرونق الرخام الأبيض والأسود وجُعلت المزارات البديعة فوق نفيس نوافذ الأبواب المصنوعة من الرخام الأبيض والأسود نادرة الوجود .

وفي أعلى الوجهات أحدث طراز للكتابة ينتهي بافريز تعلوه الشرفات وفي داخل الجوامع ذوات الإيوانات استعملت عمد الرخام دون غيرها دعائم وكانت تؤخذ من العمائر القديمة ولأجل أن يبلغ البناء ارتفاعاً مناسباً لحجمه كانوا يأخذون مبدأ العقود .

وأما السقوف فكانت تُعمل من الخشب وتُنقش العوارض التي تحملها نقشاً جميلاً يُحلَّى بالذهب وتعمل وزرات الجدران من الفسيفساء بارتفاع عدة أمتار وفسيفساء الأرضية يُضاهي في الجمال فسيفساء الجدران والكل

منسجم للغاية ويزيد البناء طلاوة ، وبهاء المنبر والكرسي وكلاهما محليات بتطعيم غريب وألوان مستغربة رائقة ثم الثريات المتخذة من النحاس الأحمر ومصابيح الزجاج المدهون بالمينا . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية ولكن للأسف ليس لدينا من هذه المباني عمارة كاملة إلا أن الأجزاء الباقية منها تمكننا من تصور كيفية تأليف المجموع وتثبت لنا عظم العمارات التي شُيدت في تلك الأيام .

عهد المماليك الجراكسة :

لم يطرأ في عهدهم شيء يعوق سير الفنون في جادة الترقي المُطرد . وغاية ما يُذكر في هذا الباب هو أنهم صاروا يتبعون في تشييد المباني الدينية الشكل المتعامد إيثاراً له على غيره بحيث أصبح من النادر أن ترى جامعاً ذا إيوانات لأنه لمّا كثُرت الجوامع بمصر جاء الشكل المتعامد مساعداً على تصغير حجم الجوامع الذي اقتضاه ضيق الفضاء .

ولا شك في أن هذا هو السبب في صغر جوامع أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري حتى أمكن تسقيف صحونها .

ولمّا كان من المتعين إنشاء مرافق أخرى عديدة مع عدم الخروج بها عن خطوط تنظيم الشوارع التي كانت أخذت في الاتساع ، احتال المهندسون على ذلك بطرق عجيبة ابتدعوها ، ومن هذه المرافق الأسبلة والكتاتيب التي هي ملازمة للجوامع في عهد الجراكسة كانوا يستصوبون إقامتها في أظهر نواحي الجوامع . وأول جامع بُني به كتاب هو جامع الأمير الجاي اليوسفي من دولة المماليك البحرية (يروي المقريزي في تاريخه أن أول جامع أُلحق به كتاب هو جامع آق سنقر) .

وكان المهندسون يُعنون على الأخص بالقبور فلم يجعلوها في ركن غير ظاهر من المساجد كما كان الحال في عهد المماليك البحرية بل صارت من الجامع الجزء المهم وإن كان الجامع المبني فيه القبر عظيم الاتساع .

وفي آخر القرن الخامس عشر أُحييت خطة الفاطميين فصارت القبور

وقبابها فخمة كانت أو غير فخمة تُقام في بناء خاص بها .

وفي أيام المماليك الجراكسة أُدخلت على فن البناء تعديلات عظيمة حيث توسعوا في استعمال الحجر المنحوت وبنوا له الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش مُعتبرة .

وفي داخل الجوامع وفي وجهاتها كانوا يوسعون محلاً للنقوش العربية والزخارف والطراز . ومع أن الخط الكوفي كان قد استُبدل من زمان مديد بالخط النسخي إلا أنهم كانوا يرجعون إليه لموافقته للزخرفة ولم تكن العمارات الأهلية على ما يظهر من البقايا الباقية منها ، دون المساجد والمدارس في الفخامة والأحكام فشيدت القصور في غاية الأبهة وصرف في زخرفتها جميع أفانين الصناعة الدقيقة ، واتخذت فيها لاستقبال الزائرين مقاعد ذات بواكي تطل على حيشان واسعة ثم خُصصت من بين غرف الدور القاعات الواسعة بعناية خاصة فكسيت جدرانها بالفسيفساء ومُوِّه سقفها بالذهب ورُكِّبت فيها المشربيات التي يدخل منها الضوء المشعشع وبذلك كانت مقيلاً مستعذباً ومقبولاً من هجير الصيف .

ومن الأبنية الأهلية الوكائل والأحواض وكثير منها محل للإعجاب هذا وآخر درجة بلغتها الصناعة الأهلية المصرية على أيام الدولة الجركسية تُعرف بما كان يصرفه مهندسوها من العناية في زخرفة الأبنية من الخارج . وقد سبق لنا القول بأن مهندسي الدولة الفاطمية قد سعوا في هذا السبيل ولكن سعيهم لم يُنتج أثراً يُذكر حتى عهد المماليك الجراكسة لأن من مميزات العمارة العربية عدم زخرفة أبنيتها من الخارج . ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل هذه الدولة لتتناول من أشهر الآثار غير البوابة والمأذنة وبعض المرافق الأخرى حيث يكون سائر العمارة في غاية البساطة والتجرد من التأنق . ولكن في عهد سلاطين الجراكسة راق المهندسين أن يجعلوا أبنيتهم شائقة في جميع جهاتها الخارجية ولذلك امتازت الآثار التي كثُرت في مصر من ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا وهو الأمر الذي اعتادت العيون أن تطالب به كل عمل من الأعمال الهندسية .

عهد المماليك البكوات :

أصبحت مصر في عهد هؤلاء إيالة تركية وقلت أهميتها السياسية والأدبية فكان لهذا الإنقلاب أثر عظيم على مدنيتها إذ لم تعد مصر في زمن هؤلاء الباشوات تعتبر مهداً للحضارة وأصبح لا فرق بين عاصمتها وسائر عواصم الولايات التركية .

ولذا نجد أن النهضة القديمة قد وقفت تماماً في هذا العصر . وفي الواقع ليس بمصر غير أبنية قليلة تُنسب للوُلاة الأتراك وهي أصغر من أن يكون لها قيمة فنية تعادل قيمة الأبنية التي تركها المماليك في عهديهما الزاهرين . ولم يستحدث الأتراك في مصر إلا الشكل التركي للجوامع وهو شكل أصله من كنائس بيزنطة القديمة . وأول جامع استأنس في بنائه المهندسون بهذه الأشكال البيزنطية هو الجامع القريب من الضريح المشهور بسارية الجبل الذي شُيد فوق القلعة بعد عشر سنين من دخول الأتراك مصر . ويليه جامع سنان باشا الكبير ببولاق وقد بُني في سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) ثم جامع الملكة صفية بُني في سنة ١٠١٩ (١٦١٠ م) وأهم شيء في الوضع الجديد للجوامع اتخاذ القباب ، وهذه البدعة المُخالفة للتقاليد القديمة مُخالفة كلية صارت هي الأساس الذي عليه المُعول في زمن الترك وأصبحت تتخذ في وسط الجوامع بعد أن كانت إشارة للأضرحة والتُرب في الزمن الماضي .

ومع ذلك فقد يعثر على جوامع مبنية على الطراز القديم ولكنها قليلة جداً ويأتي مثل ذلك من الأهالي . هذا والظاهر أن ما كان بين البكوات والباشوات وبين المصريين والأتراك من التنازع أثر حتى على الأبنية الخيرية ، وقد كان بناؤهم للمساجد شيئاً نادراً فإنهم كانوا يؤثرون عليها أبنية أخرى دونها في الأهمية كالأسبلة والكتاتيب والتكايا والوكائل وبعد أن كانت الأسبلة من ملحقات الجوامع صارت تبني لها محال قائمة بنفسها . أما من حيث الحلية فأهم تغيير طرأ عليها هو استحداث القيشاني في كسوة الجدران من داخل الأبنية . أما الزخرفة فيشاهد فيها تأخر إذ لم نعد نجد مثل زخارف

أيام قايتباي لأن الأبنية التي شيدت في عهد الترك بسيطة تنم عن تحري الاقتصاد خلافاً لما كان يبذل فيها قصد التحسين في الزمن الأول . وقلما تجد عمارات عليها آثار دقة الصنعة المعهودة في الأزمنة السابقة . وهذا المُستثنى إنما وُجد في القرن الأول من عهد الترك مثل سبيل خسرو باشا بالنحَّاسين . ومن بعده صارت قلة المادة الصناعية تتضح وتزداد ظهوراً .

وسبب هذا أن الصُنَّاع الأجانب قلما كانوا يستأنسون بالأساليب البلدية كما أن الأهالي ما كانوا يستحسنون الزخرفة لعدم موافقتها لأذواقهم وعاداتهم وتقاليدهم . ومن مُوجبات انحطاط الصناعة فقر البلاد . على أننا نعترف بأن الصناعة العربية ما زالت متغلبة على الصناعة الأجنبية .

وقد جمع في بعض الأبنية بين الطريقتين ونتج عن جمعهما شكل جميل كما في سبيل الكخيا عبد الرحمٰن المبني في سنة ١١٥٧ (١٧٤٤ م) وهو واقع في مُلتقى شارعي النحَّاسين والجمالية وله ثلاث وجهات وبالدور الأرضي منه السبيل وله ثلاث شبابيك على الشارعين المذكورين وبالدور العلوي منه الكتَّاب ومصبعات هذا السبيل المصنوعة من النحاس ونقوش بروز شبابيكه ذات الأشكال النباتية وحلية الشقة المحمولة على الحرمدانات كل ذلك يشهد بأنها ليست أهلية وإن كان الغالب على شكل العمارة الأوضاع العربية الصرفة . وهناك سبيلان يُعرفان بسبيلي السلطان محمود والسلطان مصطفى وهما من بنايات ذلك العهد ولكنهما لا يُقاسان بسبيل عبد الرحمٰن كتخدا .

نعم إنهما يحتويان على بعض النقوش العربية ولكن شكلهما الأهلي يبعدهما عن أمثالهما من المباني التي تنسب لذلك العصر الزاهر . فبينما ترى القيشاني المُحلَّى به سبيل كتخدا من الداخل شرقياً ترى القيشاني المكسوة به جدران سبيل السلطان مصطفى افرنجيا هولنديا . أما عمارات الشبابيك فكسوتها منه على غير نظام . وقصارى القول أن التأثير الافرنجي واضح وضوحاً تاماً في هذا السبيل . وها نحن وصلنا إلى ختام القرن الماضي الذي فيه استردت مصر استقلالها على يدي محمد علي ، وتاريخ ذلك لم يبعد

عهدنا به حتى نحتاج لإيراده هنا .

* * *

ومُخلفات هذا العصر ـ لا بل العصور ـ أكثر من أن تُعد أو تُحصى فإن أكثر مباني وجوامع القاهرة ، لا بل أجملها وأفخمها من صنع هذه المدة وكان هؤلاء العُتاة الجبابرة المماليك . لكي يُكفِّروا عن آثامهم وشرورهم وشغبهم وطغيانهم يتقربون إلى العامة بإنشائهم الجوامع الفخمة والتكايا والمباني العظيمة .

ودار الآثار العربية بالقاهرة حافلة بمُخلفات هذه العصور فإن أجمل محفوظات الدار هي ولا ريب من آثار عصر المماليك . وإذا لاحظنا مجموعة الجص والرخام الموجودة بهذه الدار نجد أن القطع المحصورة ما بين الرقمين ٧٣ ـ ٧٨ هي من مُخلَّفات دولة المماليك الأولى ، والقطع المحصورة ما بين ٨٧ ـ ١٠٠ هي من مُخلَّفات دولة المماليك الثانية ، وأما دولة المماليك الثالثة فإن مجموعة مُخلَّفاتها الجصية محصورة ما بين الرقمين ١٠٦ ـ ١٧٢ وهذه المجموعات كلها محفوظة في الغُرف الثلاث الأولى من الدار .

أما مجموعة الأخشاب المحفوظة بالغرفة الرابعة بالدار المذكورة فإن مجموعتها عديمة النظير ، والغالب في الأخشاب المُخلَّفة عن هذا العصر إنها تحتوي على كتابات عليها أسماء الآمر بصناعاتها بقلم النُسخ المعروف بالمملوكي وهذه المُخلَّفات محصورة ما بين الرقمين ٣٢ ـ ٩٥ .

وهناك مجموعة من أبواب وقطع أخشاب عليها زخارف من بقايا هذا العصر محفوظة بالقاعة السادسة تبتدىء أرقامها من ٤٩ وتنتهي عند ٢١٧ .

وهناك عدا هذه المجموعات النفيسة مجموعات أخرى فخمة محفوظة في غرف الدار العديدة ومنها مجموعات أخرى أنفس منها لعبت بها أيدي العابثين ولصوص الآثار فخرجت من القطر إلى متاحف لندن وباريس وليدن ونيويورك وغيرها من المتاحف الأجنبية(١) .

---

(١) يجب أن أُشير إلى أني استمددت مقالي هذا من دليل عن الآثار العربية .

ـ ١٩ ـ

المماليك والمال

عندما زار فولني مصر في أواخر القرن الثامن عشر قدَّر عدد المماليك بنحو ٨٥٠٠ مملوك من الرؤساء الذين يُنفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته وسراريه ، نحو ٢٥٠٠ (ألفين وخمسمائة) جنيه في العام . وهذا تقدير شاهد عيان .

وكان البكوات الكبار من المماليك يخلعون على أتباعهم في أيام المواسم الخلع النفيسة المصنوعة في فرنسا أو البندقية ، ومن كشامير الهند وحراير دمشق وكانوا إذا أعتقوا مملوكاً ورقُّوه درجة يمنحونه منزلاً فاخراً مؤثثاً بالرياش الفاخر ويزوجونه ، ويهبونه الجواري الحسان . وكان التنافس بين زعماء المماليك سبباً في تخريب البلاد فإذا خاف أحدهم على نفسه من فتك الآخرين ، يغير بجماعته على مديرية من المديريات ويستولي على خراجها ويتولَّى أخذ ضرائبها من الملتزمين وكثيراً ما يستحل المديرية أو المديريتين لنفسه ملكاً حلالاً .

ولا يخفى أن الغزوات التي قام بها علي بك الكبير من سنة ١٧٦٦ ـ ١٧٨٥ م كلفت مصر وأهلها أكثر من ستة وعشرين مليوناً من الجنيهات . وقد ذكر فولني أن علي بك الكبير ابتاع خنجراً مرصعاً بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه .

وقد وصف فيفان دينون[1] في كتابه ما في قصر مراد بك بالجيزة وصفاً بليغاً، بما فيه من طرقات وبساتين ومفروشات، وروى كتاب الحملة الفرنسية أن الجنود الفرنسيين كانوا يجدون في ملابس كل واحد من المماليك الصرعى في ميدان القتال (وقعة امبابة) ما لا يقل عن نحو مائتين أو مائتين وخمسين قطعة من الذهب. عدا ما تقدر به ملابس الواحد منهم وطيلسانه وسلاحه وسراج جواده من المبالغ الطائلة.

وحين هرب علي بك بعد أن خذله أنصاره إلى الشام التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر في عكا وأخذ معه من الأموال ثمانمائة ألف محبوب ذهباً يحملها على ٢٥ جملاً ونقل أيضاً معه من المصوغ والحلي ما قُدرت قيمته بمبلغ ثلاثة ملايين محبوب ذهب. أي ما تُقدر قيمته بحوالي ستة وتسعين ألف جنيه، وقد وصف فولني في رحلته في الشام ملابس جنود علي بك وصفاً دقيقاً فقال أن ملابسهم تتكون من أربعة أو خمسة أردية وطيلسانات تتدلّى إلى أرجلهم. وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض والثوب المتدلي فوق القميص من القماش الهندي الخفيف، وفوق ذلك القفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع، ثم «الكرك» بأكمام قصيرة، ويطوف حول الرقبة فراء من السمور ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه في الحفلات يلف به جسمه جميعه... وكان عدد هذا الجيش ٤٠,٠٠٠ مقاتل، فاحكم أيها القارىء على عظم المبلغ اللازم لإلباس هذا الجيش العظيم.

وفي عام ١٣٠٢ م بعد أن انتصر الناصر في موقعة «مرج الصفر» وأزمع على العودة إلى عاصمة مُلكه من دمشق إلى مصر، أمر أن يفرش له الطريق بالبسط. وفعلاً لم يمس حافر السلطان الأرض في طريقه حتى مصر. وأعمال هذا السلطان وأخبار بذخه لا يمكن أن يصدقها العقل لولا أن رواها

---

(١) فيفان رجل فرنسي قدم إلى القاهرة بعد استيلاء الفرنسيين عليها عن طريق رشيد وألّف كتاباً عن رحلته.

مؤرخون مُعاصرون موثوق بهم ، فقد أمر هذا السلطان مرة وهو مُزمع على الخروج إلى الحج ، أن تُقام له واحة صناعية غنَّاء ، لتُقام عليها مائدة طعامه ، في كل مرحلة ينزل فيها الركب من مراحل الصحراء حتى وصل مكة وأدَّى فريضته ، وعاد بنفس الطريقة إلى مصر ، وقد أنفقت إحدى زوجاته في سفرها لقضاء الحج نحو مائة ألف دينار . وقد انفق في زواج كل من بناته نحو ٨٠٠,٠٠٠ دينار ، وقد احتفل في زواج ولي عهده احتفالاً ملوكياً لم يروِ التاريخ له مثيلاً فقد أوقد في تلك الليلة نحو ٣٠٠٠ مصباح ، وقد مرَّ جميع أشراف الدولة والخليفة وزعماء المماليك ، مع مماليكهم الخواص ، حانين رؤوسهم وحاملين المصابيح بأيديهم أمام السلطان العتيد ، وفي نفس الوقت اجتمع في الحريم زوجات السابقين ومررن أمام زوجة ولي العهد حانيات رؤوسهن ومُقدمات للعروس الهدايا راقصات أمامها لتسليتها .

ولم تكن تلك فقط أخبار بذخ الناصر فقد كان مُغرماً جداً بالخيول يبذل عن سعة في سبيل اقتناء النادر منها ، فقد اشترى مرة حصاناً استلطفه بمبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار . ولم يبلغ في ذلك العهد ثمن أي جواد أكثر من ١٢,٠٠٠ دينار .

وقد بذل الناصر في بناء قصور عديدة للصيد مبالغ باهظة لا يُحصيها العد ، وذكر المقريزي للدلالة على عظم بذخ الناصر أنه استحضر في زواج ابنه ١٨٠٠٠ رأس من السكر وذبح ٢٠,٠٠٠ رأس ماشية .

وتلى عصر الناصر عصر أحفاده وكان عصر خلاعة ومجون وتهتك وبذخ وإسراف لا مثيل له فقد أهدى السلطان المُظفَّر «حاجي» إلى إحدى مُحظياته هدايا تكاد تكون خرافية ، منها عقد من اللؤلؤ قيمتة ٤٠٠,٠٠٠ دينار ، وعمل لها قلنسوة رصَّعها بلآلىء قيمتها ١٠٠,٠٠٠ دينار ، ولم يعمل حاجي هذا العمل وحده بل إن الأشرف برسباي أُعجب بامرأة رقيقة ، فتزوجها وصنع لها ثوباً واحداً كلفه ٣٠,٠٠٠ دينار .

وقد خرج قايتباي للحج ، وكانت مصاريفه في طول الطريق ملوكية

وكان بذخه مضرب الأمثال ، وقد بنى في جميع الأماكن التي زارها مدارس وجوامع وتبرع بهبات جيدة لجميع الأماكن المقدسة ، وفي عودته إلى مصر ، فُرشت الطرقات بالبُسط واستقبلت السلطانة زوجها العائد من الحج بفرش الطريق من باب القلعة إلى عتبة قصرها بالحرير الموشى بالذهب .

وكانت لقايتباي محظية تُدعى «اميلباي» تزوجها بعد ذلك السلطان جيبلاط وكانت هذه المحظية غنية حتى أنه حين زواجها استخدم في نقل متاعها إلى مسكنها الجديد ، مئات من البغال .

وكان بلاط الغوري أكبر مثال لبذخ المماليك الذي ليس له مثيل ، فقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس في مائدة السلطان فحسب ، بل في كل أرجاء القصر ، وكما يُقال ، حتى في صنع أدوات المطبخ . أما لباس السلطان وأدوات زينته فقد جُملّت بكل ما غلا ثمنه وكان بلاطه يحوي آلاف المماليك الذين اشتراهم حديثاً ، والشعراء الذين أوقفوا حياتهم على مدحه ، والمغنين والموسيقيين ، والقصّاصين الذين احتشدوا حوله لتسليته .

ولما خرج الغوري هذا لحرب السلطان سليم أودع أمواله قلعة حلب فلما هُزم ومات في أثناء القتال استولى السلطان سليم على تلك النفائس والأموال التي قدَّرها المؤرخون بمبلغ «مائة مليون قطعة ذهبية» .

فأنت ترى من هذه القصص مقدار عظم ثروة هؤلاء المماليك ، والآن فنحن نتساءل من أين للمماليك هذا المال وهذه الثروة حتى ومصر في الوقت الحاضر لا يمكنها أبداً أن تدر هذا المال رغم تقدمها في تلك العصور ذلك التقدم العظيم والبلاد خلو من المناجم ، ومن موارد الثروة غير الزراعة التي لا يمكن أن يجني منها المماليك رغم ظلمهم كل هذه الأموال ؟

الواقع أن الظروف خدمت المماليك في تلك العصور خدمات جمة فقد كانوا هم المالكين المطلقي الحكم في مصر وسوريا . ولذا وقعت في

قبضتهم جميع الموانىء وطرق القوافل التي توصل التجارة الهندية إلى أوربا ففرضوا على هذه المتاجر ما حُلي لهم من الضرائب (نجد تفصيلاً أكثر لذلك في باب علاقة المماليك بالبرتغال والبندقية فارجع إليه) ولكي يعلم القارىء مقدار الثروة التي خبأها هؤلاء الطُغاة ننقل لك مثلاً عن كتاب The Egyptian Ninteenth Century By Cameron : «كان التاجر الشرقي يُصَدِّر التجارة من الهند وقيمتها مثلاً عشرة آلاف جنيه ، وكانت لا بد أن تُرسَل لموانىء مصر سواء في البحر الأحمر أو عن طريق القوافل من بلاد فارس إلى سوريا ، وكانت المكوس تُضرب عليها في ميناء الوصول ولا تقل الضريبة عن ٤٠٠٠ جنيه ، فيصبح ثمنها على التاجر ١٤٠٠٠ جنيه ، وفي مرور هذه التجارة في داخلية البلاد حتى وصولها ميناء الإصدار لا يمكن أن يصل ثمنها إلى أقل من ٣٠,٠٠٠ جنيه بما يدخل عليها من الضرائب في أثناء مرورها في المديريات والأقاليم وتكاليف نقل ورش ومصاريف أخرى . وتُباع هذه البضاعة في ميناء التصدير لتاجر بندقي أو جنوي ، فلا يقدر على إصدارها قبل دفع ضريبة الإصدار وقدرها ٥٠٠٠ جنيه فيصبح ثمنها على التاجر الأوربي ٣٥,٠٠٠ جنيه ، فيكون ما دخل جيوب المماليك من مجموع هذه الضرائب يُقدر بنحو ١٠,٠٠٠ جنيه أي نحو ٢٥ في المائة من ثمن البضاعة حين تقديرها ، أو ربع ثمنها الأساسي .

ومما يجب أن نذكره فضلاً عن هذا المورد العظيم للمال ، أن المماليك كانوا يأخذون من زوار الأماكن المقدسة من المسيحيين أتاوات عظيمة في مُقابل السماح لهم بزيارة تلك الأماكن .

ومن هذا يظهر للقارىء أن التيار الذهبي تدفق على جيوب المماليك من كل مكان وكان عوناً عظيماً لهم على البذخ والانفاق .

ـ ٢٠ ـ

كلمة عامة عن أخلاقهم وعصرهم(١)

يجب أن يُسمى هذا الفصل «كلمة ختامية عن المماليك وحياتهم» وأريد بهذه الكلمة الختامية أن أعطي صورة صادقة عن حياة هؤلاء الناس الفريدي النشأة والذين عاشوا وحكموا البلاد بطريقة فذة لا تضارعها غيرها في العالم كله .

فكما أن حياتهم كانت غريبة كذلك كانت أحكامها أغرب ، ولو نظرنا في تاريخ سلاطينهم لوجدنا أمثلة جمة على ذلك ، فهذا السلطان العظيم قلاوون من سلاطين الطبقة الأولى ، أمر مرة بأن يوثق لص وهو ممدود على ظهر جمل وأمر أن يُطاف به في المدينة حتى يُقضى عليه ، وقد أمر هو أيضاً ، بدفن رجل مسيحي حياً لأنه تزوج من امرأة مسلمة وأما تلك الزوجة التعسة فقد جدع أنفها . ومما يدل دلالة تامة على الحياة في ذلك العصر ، أن المملوك بدلاً من أن يخجل من أصله الحقير ، كان يُفاخر به ، فقلاوون هذا كان من ألقابه الرسمية الألفي لأنه اشترى بألف دينار ، وقد تمكن مرة أحد المماليك المدعو «قوصون» سنة ١٣٤٢ م من الوصول إلى العرش ، ولكن المماليك انفضُّوا من حوله في اللحظة الأخيرة لأنه لم تتوافر فيه شروط

(١) يجب أن أقرر هنا أن مصدر الفصل هو كتابا «دولة المماليك في مصر»و«فتح مصر الحديث» .

المملوك أي أنه لم يشتر في بادىء أمره كمملوك ، بل حضر إلى السلطان الناصر من تلقاء نفسه في حاشية زوجته المغولية فوهب نفسه للسلطان بمحض إرادته فلم تكن له تلك المكانة الاجتماعية التي كانت لمملوك اشتُري بالمال .

وإنا نجد في مطالعة تاريخ الناصر للمرة الأولى ذكراً طويلاً للأمير لاجين وهذا الأمير كان الحاكم الفعلي للبلاد في عهد الناصر في المرة الأولى وفي عهد كتبغا وفي ذلك العهد قبض هذا الرجل على ثلثمائة شخص كما يروي المقريزي وأمر بصلبهم فصُلبوا جميعاً على أبواب المدينة ، وقد تمكن هذا الرجل في ديسمبر عام ١٢٩٦ من الوثوب إلى العرش على جثث أعدائه ، فما كاد يثبت على العرش حتى حاول أن يغيِّر في تقسيم الأراضي وذلك لأن الأراضي الأميرية كانت مقسَّمة إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، عشرة للأمراء ، وعشرة للجيش ، وأربعة للسلطان وحاشيته ، غير أن القسم الأخير في التقسيم الجديد وُزِّع بطريقة أغضبت الأمراء ورجال الجيش . فقام عليه المماليك وقتلوه وهو يلعب الشطرنج ليلاً في قصره . والغريب في أمر هذا السلطان أن مؤرخي زمانه من الغربيين يُقررون أنه من أصل جرماني ثم اعتنق الإسلام ، وهذه خُرافة إذ أن مؤرخي عصره من الشرقيين كتبوا عن تاريخه بالتفصيل من يوم اشتُري مملوكاً وهو في سن الثامنة حتى وصل العرش وإنما الثابت أنه من أصل أغريقي .

وفي تلك الأيام حدث وباء مات فيه كما يُقرر ابن أياس ٧٠٢٠٠ نسمة وبلغ ثمن البطيخة في ذلك القحط مائة درهم ومات في القاهرة وحدها في شهر واحد ١٧٥٠٠ وكانت جثث الموتى تُطرح بغير دفن وتأكلها الكلاب في الشوارع .

وكان عهد الناصر خير عهود الأقباط واليهود النازلين في مملكته فقد عاملهم بالرفق ، وذلك لعلمه بأنهم لن يكون منهم من يناهضه في المُلك .

وكان الناصر هذا يغار على مُلكه من جميع الناس حتى من أولاده ،

وكان يخشى أية شُبهة في أي كان تُنبىء عن طمعه في العرش ، ولذا لم يُعيِّن ولياً لعهده حتى كاد يُفارق الحياة . ومما يؤسَف له أن أحمد أكبر أولاده كان شر مثال يُحتذى به في أقبح الرذائل ، وقد نفاه والده إلى الكرك بعد أن خابت مساعيه في إبعاده عن أحد فتيان المماليك. . . وكذلك أُولع «أنوق» أحد أبنائه بفتاة ولعاً شديداً . وقد وصف المقريزي وفاة «الناصر» فقال «ـ سبحان مَن لا يحول ولا يزول ـ هذا ملك أعظم المعمور من الأرض ، مات غريباً وغُسِّل طريحاً ، ودُفن وحيداً ، إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب» .

ومما يعطينا فكرة تامة عن أخلاق هؤلاء الأقوام القصة الآتية : في عصر السلطان الأشرف «شعبان بن الناصر» وصل مصر بعث صليبي يطلب رهائن لتنفيذ شروط الصلح بين السلطان والصليبيين . فسلَّم الأشرف بعضاً من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام بعد أن ألبسوهم أفخر لباس ، وأرسل معهم بعض النساء والأطفال كأنهم عائلاتهم .

وأصبح النفوذ للوزراء في نهاية عصر الأسرة الأولى ، حتى أننا نرى أن برقوق (الذي أصبح بعد ذلك أول سلاطين الأسرة الثانية) يطمع في أيام سلطنة على أن يُولي طفلاً لزوجة مُطلَّقة من الناصر على العرش ، كانت قد صرَّحت بأنها حامل عندما لحقت بزوجها الثاني ، وعند ذلك أعلن الخليفة بأن سلوك هذه السيدة شائن ومُخالف للدين الإسلامي ، ومما يجب ذكره عن نهاية أسرة المماليك الأولى أن آخر ملوكهم «حاجي» كان طفلاً صغيراً ، فعزله برقوق عن العرش فأخذ السلطان من دار الحكم وأرجع إلى الحريم وبهذا انتهى عهد طبقة المماليك الأولى .

تولَّى برقوق العرش وكان أول سلاطين الطبقة الثانية من المماليك ، وكان قاسياً شديداً في حكمه . ومما يُذكر عن مدة حُكمه للدلالة على الأحوال الاجتماعية في ذلك العصر أن برقوق ترك القاهرة يوماً في سفرة إلى سوريا فأناب عنه في حكمها أميراً يُدعى «كمسغبا» فسنَّ هذا الحاكم قانوناً

لسير السيدات في الشوارع وحظّر عليهن زيارة الجبّانات أو الخروج جماعات في الليل ، وكان قد بولغ قبل زمانه في اتساع ملابسهن حتى كانت أكمام القميص وبدنه ٧٢ ذراعاً من القماش في عرض ثلاثة ونصف فأمر كمسغبا بنقص هذا المقدار إلى ٢٤ ذراعاً ، ولما عاد السلطان إلى عاصمة مُلكه ألغى هذا القرار . ويقول المقريزي أنه رأى في زمنه بعض السيدات يلبسن ملابس قصيرة ضيقة تُسمى (قميص كمسغبا) .

وخلف برقوق على عرش المماليك ابنه فرج ، وقد انغمس فرج في الموبقات واشتهر بالرذائل ، فكان في بعض نوبات غضبه يقتل بيده أحياناً الأمراء الذين يرتاب فيهم والمماليك من حوله . وقد أرسل «فرج» مرة في طلب مطلقة له ، فلما جاءت إليه إجابة لطلبه ، تبعها وهي تجري جريحة صارخة ، وحزَّ رأسها ولفَّ جسدها في ملاءة واستدعى زوجها وسأله عن معرفته إياها ، ثم هجم على زوجها وهو مذعور وقطع رأسه وأمر بدفن الجثتين معاً ، مع أن هذين الزوجين لم يرتكبا شيئاً لا يُقِرُه الشرع أو العُرف بزواجهما لأن المرأة كانت مُطلقة من السلطان من زمان طويل .

وقد كره العلماء والأمراء فرجا هذا لأنه ضرب سكة في عهده ووضع صورته عليها فقامت عليه ثورة رجال الدين لأنهم عدُوا ذلك احتقاراً للشريعة ، وقد قتل أحد الفدائيين فرجاً هذا وأُلقيت جثته إلى المزبلة ، وبعد يومين أو ثلاثة دفنه أحد الأهالي سراً .

وتولّى بعد فرج عدة سلاطين لا أهمية لحكمهم إلا أننا نذكر شيئاً مهماً حدث في عصر المؤيد شيخ . وذلك أن هذا السلطان أحدث تغييراً مهماً في نظام الجيش لأن الجيش كان مكوناً من .

١ ـ جنود نظامية يدفع لهم بيت المال مُرتباتهم .

٢ ـ مماليك الأمراء المختلفين الذين كانوا يمدونهم من إقطاعاتهم .

٣ ـ مماليك السلطان وأجورهم من الأملاك السلطانية .

وكان الأمراء قد بدأوا ينقلون جنودهم إلى الصفوف النظامية تخلصاً من نفقاتهم ، فعلاجاً لهذه الحالة أعطى المماليك الخيرة في البقاء في خدمة مواليهم الأمراء أو الاندماج في الجيش النظامي .

ومما يعطي فكرة تامة عن الحالة العقلية للبلاد في ذلك العصر ، ما حدث من هذا السلطان وحاشيته ، فقد أصاب مصر في عهده طاعون ووباء شديدان ، أهلكا شعباً كبيراً ، فما كان من السلطان إلا أن لبس ثياب الدراويش وخرج في حاشية كبيرة على رأسها الخليفة ، والعلماء خلفهم رافعون المصاحف ، وتلاهم القسوس يحملون الإنجيل ومن بعدهم شيوخ اليهود يحملون التوراة ، وسار هذا الموكب الفذ حتى ضريح برقوق حيث سجد السلطان والحاشية على التراب وصلُّوا لله طالبين رفع الطاعون .

وفي عهده أيضاً شحَّ ماء النيل ، فعمَّت المجاعة والقحط فانقطع للصلاة والصيام وفي يوم الجمعة دعا له الناس بالبركة فقال لهم «لا تطلبوا معونة الله لي فما أنا إلا مثلكم وفرد منكم» وقد ذكر المقريزي هاتين القصتين مستهزئاً بالسلطان قائلاً أنه كان في مقدوره بتوزيع قليل من المخزون في خزائنه أن يفرِّج الحالة أكثر مما فعلت صلاته .

وتولَّى السلطان المُظفَّر أحمد بعد أبيه شيخ ، وهو طفل صغير وقد حمل من الحريم وهو يصرخ إذا كان لا يزال طفلاً على حصان وسير به إلى مكان الاجتماع حيث تولَّى السلطنة وهو لم يبلغ بعد ١٦ شهراً .

وتولَّى السلطان الأشرف برسباي بعد ذلك فأراد أن يُحبِّب الناس إليه فأصدر مراسيم شديدة ضد المسيحيين واليهود ، ثم غيَّر العادة التي كانت تقضي على كل من يقرب من مجلس السلطان أن يمس الأرض بيده أولاً ثم يُقَبِّلها ، بأن سمح للناس بتقبيل أطراف ردائه بدلاً من الأرض ، وفي عصر هذا السلطان احتكر تجارة السكر وبيعه وكان يصف السكر بأنه دواء الطاعون .

ومما اتصف به المماليك ولم نذكر أمثلة عليه هو خيانتهم الفظيعة

وذلك لأن تاريخهم كله عبارة عن حوادث خيانة متواصلة وبينما نجد المملوك منهم يصل إلى العرش على أكتاف ثلاثة أو أربعة من مساعديه نجد أن أول ما يعمله عندما يصل إلى العرش أن يحز رؤوس أولئك البؤساء الذين ساعدوه على النهوض والوصول إلى المُلك ، ومما يجب أن يُلاحظ على المصريين في عصر المماليك أنهم فقدوا الروح القومية تماماً ولم يحاولوا أن يقوموا طول تلك العصور الطويلة ولا مرة واحدة بمحاولة تدل على رغبتهم ، في طرد أولئك الأغراب وإعادة استقلالهم . وحدثت محاولة واحدة من هذا القبيل في سنة ١٣٩٤ م ، بقيادة رجل عربي غريب من أشراف مكة ، فقد قام يساعده جماعة من المصريين لطرد المماليك من مصر ، فقبض على الشريف وزميل آخر له ، وعُذبا عذاباً أليماً ليُنبئا عن أعوانهما فرفضا بأن يبوحا بشيء ، بل أقرَّ بأنهما المسؤولان الوحيدان عن ذلك ، وأفصحا بكل شجاعة أنهما إنما قاما بالواجب نحو الكتاب والسُّنَّة ، وقضيا نحبهما تحت التعذيب .

* * *

ولم يكُ مماليك الطبقة الثالثة خيراً من مماليك هاتين الطبقتين ، بل يمكن أن نقرر هنا أن مماليك الطبقة الثالثة كانوا شراً مستطيراً ، وسنروي قصة واحدة تدل دلالة كافية على عقلية هؤلاء القوم ننقلها عن كتاب «مسيو مارسل» ، فقد ذكر في ترجمة مراد بك أنه فرض ضريبة كبيرة على اليهود تُجبى على أموالهم . ولما كانت الضريبة أعظم من أن تحتملها تلك الطائفة الصغيرة فقد اجتمع اليهود وتداولوا في الأمر وقرَّ رأيهم على إرسال حبرين لبقين منهم ليجتمعا بمراد ويطلبا منه إنقاص الضريبة أو إلغائها ، وقد تمكن هذان الحبران من إقناع مراد بك بأن عمر بن العاص لما بنى جامعه دفن في أرضه كنزاً عظيماً ، فرفع مراد الضريبة عنهم وأمر في اليوم الثاني بترميم الجامع وكان غرضه من هذا أن يُنقِّب عن هذا الكنز الموهوم ولما تهدم الجامع في أثناء التنقيب ولم يوجد شيء فقد اضطر مراد لإعادة بناء الجامع .

وخير ما نختم به كتابنا هذا هو القصة التالية ، التي تدل دلالة كافية على أنه كان من السهل في تلك الأيام السالفة ، أن طفلاً يُولد ويُخطف من بين أحضان والديه ، ويُباع رقيقاً فيصير مملوكاً ، وينهض به الجد الباهر إلى العرش فيُصبح سلطاناً ، فقد ذكر سافاري في خطاباته التي كان يرسلها لملك فرنسا (وهذه الخطابات جُمعت في كتاب وطُبعت في باريس سنة ١٧٨٥ ونُقلت إلى الإنجليزية في سنة ١٧٨٦ وموجودة باللغتين في دار الكتب الملكية) عن مراد بك هذه الحكاية : حدث في أحد الأعوام قحط شديد في سوريا ، فخرج رجل يبيع ما يملك ليسد به رمق أولاده ، وبينما هو في السوق رأى قافلة مصرية وصلت دمشق وسمعهم يتحدثون عن مراد بك وعظمة مُلكه ، فسمع منهم وصفهم لهذا الأمير ، وخُيِّل لهذا الرجل أن هذه الأوصاف تنطبق على وصف ابنه الذي خُطف منه وهو لا يزال طفلاً ، فصمّم على السفر إلى مصر ، فباع ممتلكاته وبارح بلدته إليها وهناك التقى بمراد وعرف فيه ابنه[1] وبقي الشيخ مدة مُكرماً في مصر ولما كان مسيحياً فقد رغَّبه مراد في الإسلام فرفض . وبعد حين عاد إلى دمشق ومعه من الهدايا والأموال ما يفوق العد والوصف .

---

(١) هذه القصة لا يمكن أن تكون حقيقية لأن الجبرتي وهو معاصر لهذا العصر لم يذكرها إنما ذكرها سافاري تفكهة لشقيق الملك وقد حدثت هذه القصة حقيقة لعلي بك الكبير كما أوردنا ذلك في فصل سابق .

ـ ٢١ ـ

بعض نواحي المماليك الخلقية والاجتماعية

عصر حكم الطبقة الأولى :

في هذا المقال ، بعض الحوادث التاريخية الغريبة ، منها يمكن أن يقف القارىء على الناحية الخُلقية والعقلية لعصر حكم المماليك في مصر .

كانت الأراضي الأميرية في عهد المماليك ، مقسَّمة إلى أربعة وعشرين قيراطاً وكان المماليك أو قوّاد الجيش والمديرون والوزراء يستولون على عشرة منها قيمة مرتباتهم ، وتُقسَّم عشرة قراريط أخرى على أفراد الجيش ، والضباط ، وما يتبقى وهو أربعة قراريط فكانت تُصرف على مُخصصات البلاط والحاشية ، وقد اتبع المماليك هذا النظام وحافظوا عليه ولم يشذوا عنه من عهد بيبرس حتى جاء السلطان لاجين إلى العرش في ديسمبر سنة ١٢٩٦ م فقد تمكن هذا الأفَّاق من الوصول إلى العرش بعد أن قبض على ٣٠٠ مملوك وصلبهم على أبواب المدينة كما يروي المقريزي .

لما وصل لاجين هذا للعرش بقوة الباطل أراد أن يزيد مُخصصات السلطان عن الأربعة القراريط المُتبعة فقاومه المماليك وانتهوا منه بقتله .

وقد حكم مصر بعد ذلك أغرب سلطان عرفته البلاد ، فقد جمع النقيضين فبينما كان يُعتبر أحسن حاكم ، يمكن أن يُقال أنه كان أسوأ سلطان ، ويُعتبر عصره أفكه وأغرب عصر . وقد كان هذا السلطان يغار على مُلكه من جميع الناس وحتى من أولاده ، وكان لا يتهاون في الانتقام من أي

إنسان يُشتبه في أنَّ له أي مطمح في العرش ، ولذا لم يُعيِّن ولياً لعهده حتى كاد يُفارق الحياة ، وكان أكبر أولاده المدعو «أحمد» شر مثال يحتذي به في أقبح الرذائل ، وقد نفاه والده إلى الكرك بعد أن فشلت مساعيه في إبعاده عن غلام مملوك ؟! . . . وأما ابنه الثاني المدعو «أبوق» فقد أُولع بقينة شركسية ولعاً عظيماً وأهمل كل شيء في الحياة ليتفرغ لمعبودته .

وقد ذكر ابن أياس عن حكمه نادرة لطيفة ، إذ يظهر أن عصره كان عصر تهتك وتبهرج وقد هال السلطان ذلك فأمر بتعيين ضابطة مُلحقة بشرطية القاهرة لتشرف على المتنزهات ولتحجز منهنَّ من تخرج عن حدود الأدب في مسار خطواتها .

ولا يزيد هذا غرابة عما أتاه وزير برقوق كمسغبا الذي وضع مقاييس لاتساع ملابس النساء لا يمكن أن تتعداها كما سبق ذكره .

عصر حكم الطبقة الثانية :

كان من العادات الشائعة أن يأمر السلطان بتنفيذ أحكام الإعدام في مجلسه وعلى ذلك لا يمكننا أن نستغرب ما أتاه فرج مع مُطلقته فقد كان هذا السلطان ظالماً فاسقاً قاسياً في أحكامه واشتهر حكمه بالإرهاب والقتل ، وهذه الأساليب القاسية التي كان يتَّبعها المماليك هي نفسها أساليب العصر الذي عاش فيه العالم في ذلك الحين . فبينما كانت أوربا تُقاسي في ذلك الوقت من محاكم التفتيش وآسيا ويلات وأحكام التتار ، كان الشرق العربي يُقاسي مظالم وأحكام هذه الطبقة الشاذة من الأفّاكين الذين سُموا اصطلاحاً بالمماليك .

ولا يُستغرب من العامّة في ذلك العصر أن يتهموا مثل السلطان فرج بالإلحاد لضربه عملة عليها صورته فإنه لعهد قريب كان الجهلاء يعتبرون التصوير مُحرَّماً شرعاً .

وقد كثُر في عهد المماليك إصابة البلاد بالطواعين ، كأنما المصائب

تجر وراءها المصائب ، ومما زاد الطينة بلّة أن احتكر المماليك بيع السكر الذي كان يُعتبر في ذلك الوقت دواء لهذا الداء الوبيل . ولم يعمل المماليك على تخفيف ويلات الشعب بل قد يُخيَّل للمؤرخ أنه قد طاب للمماليك كثرة الوفيات ليسهل عليهم ادعاء وراثتهم للموتى ونهب أموالهم وقد قصَّ المقريزي في تاريخه ما حدث أثناء إصابة البلاد بهذا الداء وأنحى باللائمة على المماليك قائلاً «أنه كان في مقدور السلطان بتوزيع قليل من المخزون في خزانته أن يُفرِّج الحالة أكثر مما فعلت صلاته» التي دعى الشعب إلى إقامتها ليمن الله بالفرج .

ومن الصفات البارزة التي اتصف بها المماليك ، فضلاً عن ذلك هو حبهم للمال وتفننهم في ابتزازه بكل الوسائل ، فقد استحدثوا من أنواع الضرائب ما لا يمكن أن يصل إليه فكر أي ظالم ، وبرغم ذلك كانت الضرائب تُجمع مضاعفة مرات . ولم يكن يُوجد في ذلك الحين فرد واحد يمتنع عن دفعها أو يثور في وجه ظالميه . وكان هذا سبباً مهماً في كراهية المصريين للامتلاك العقاري وقد بقيت هذه الفترة في أذهان المصريين حتى عهد حديث جداً . إذ أنه امتنع أكثر المصريين من الاستحواذ على الأباعد التي كانت تفرقها الدائرة السنية بأثمان بخسة . وقد اتصف المماليك ، بالخيانة ومحبتهم للغدر فكان المملوك لا يكاد يصل إلى العرش حتى يُنكِّل بمساعديه ويعمل على استئصال شأفتهم ولكن قد يغفر لهم لأن روح ذلك العصر كانت روح تنازع للبقاء جامحة ، وكان التنازع شديداً والتطلع إلى العلاء أمنية كل مملوك فكان من اللازم أن يتبع المماليك المثل القائل : أن الغاية تُبرر الوسيلة .

وبينما كانت معاملة المماليك لبعضهم موسومة بالغدر والخيانة المتوالية نجد أنهم أحسنوا معاملة الذِّميين من الأهالي وذلك لعلمهم بأن غير المسلم لن ينازعهم العرش ولن يصل حتى بمجرد التفكير إلى ولاية السلطنة .

وقد عاشت مصر في عهد المماليك ، نفس المعيشة التي عاشها العالم في عهد الاقطاع فقد كان السلطان يقطع العقارات لمماليكه الخواص وهؤلاء يقطعونها لمماليكهم كل بدوره ، فكان السلطان إذا احتاج لجند للقيام بحرب يلجأ إلى مماليكه يطالبهم بالخدمة فينضم هؤلاء إليه ومعهم مماليكهم والآخرون ومعهم أتباعهم وهكذا . ولكن يُلاحظ أنه لما أصاب البلاد الفقر قلَّت مواردها فصار المماليك يتخلصون من مماليكهم الأصاغر بإلحاقهم بجيش السلطان كما حدث ذلك في عهد المؤيد شيخ كما أسلفنا الشرح .

عصر حكم الطبقة الثالثة :

وكان عهد المماليك عهد فروسية ونظم وإقطاع ، فقد كان المماليك ينقسمون إلى أحزاب ، ففي النهار يخرج أفراد الحزبين المتعاديين إلى المبارزة والطعان ويدوم ذلك طول النهار حتى إذا أمسى الليل وأُعطيت الإشارة أُبطلت المبارزة وأخذ كل فريق يدفن موتاه وينقل جرحاه ويعود الباقون إلى المدينة كأنه لم يحدث بينهم شيء وفي اليوم التالي يُعاودون الكرة وهكذا دواليك حتى يخضع حزب لمطلب الفريق الآخر .

وقد كان عصر المماليك أهم عصر في تاريخ الآثار العربية فمن مُخلفات هذا العصر كل الآثار التي تزخر بها دار الآثار العربية ، ويمكن أن يُقال بالإجمال أن أهم الآثار العربية الفخمة هي من صنع المماليك ويرجع ذلك إلى الدور المهم الذي لعبه المماليك في القرون الوسطى وإلى السلطة الهائلة التي تمتعوا بها في إدارة شؤون البلاد ، وقد يُقال أن شعور المماليك بشدة المظالم التي كانوا يصبونها على رأس الشعب دعتهم إلى تشييد الجوامع والتكايا والزوايا . .إلخ كفَّارة عن ظلمهم له وتقرباً للمولى .

ومهما يُقال عن شدة ظلم هذه الطغمة وشرورها فإنه من المستحيل أن نُنكر فضلها في حفظ استقلال البلاد تلك الحقبة الطويلة من الدهر ومحافظتها على كيان مصر بصفتها دولة مستقلة على رأس الشرق العربي ، فقد كانت القاهرة في ذلك الحين مركزاً مهماً في عالم السياسة الدولية

وخصوصاً الشرقية وكانت الرُسُل والسفارات المصرية تُرسل إلى كل الجهات وكانت الأعلام المصرية مُظفرة أينما سارت وحلّت .

وبينما كان المماليك يُحافظون على استقلال البلاد يمكن أن يُقال عن الأهالي أنهم فقدوا الروح الحربية والقومية وطابت لهم الاستكانة إلى الذل ، حتى لم نسمع عن مُحاولة في سبيل الاستقلال من ربقة حكم المماليك ، غير تلك التي حدثت عام ١٣٩٤ م[١] وقام بها أغراب إلا أنه يجب أن يُذكر هنا أن مصرياً واحداً هو الذي فكر في استقلال هذا الوطن في ذلك العصر المظلم وسلك إليه الطريق السوي فقد قام الجنرال يعقوب المصري بمفاوضة الحكومة الإنجليزية عند انسحاب الحملة الفرنسية لتساعده على إعادة استقلال البلاد . وقد نُشرت أخيراً مذكراته عن ذلك .

وقد تنبه هذا القائد المصري إلى قوة الدولة الإنجليزية الناشئة وعظمة أسطولها ففضّل أن يتحد معها بدلاً من منافستها فرنسا ، ولو كان محمد علي تنبه بعده إلى هذه الحقيقة لما حاق بمصر ما لحقها من المصائب على يدهم بعد ذلك فلنذكر نحن المصريون وليذكر معنا أحفادنا من بعدنا هذا المصري الذي فكر وحيداً في استقلال هذه البلاد وتحريرها من نير الأجانب ومات في سبيل هذه الفكرة غريباً عن هذه الديار .

(١) راجع صفحة ١٥٨ من هذا الكتاب .

المماليك في مصر

فـهـرس